السفينة

"دربنت"

تأليف

يوري كريموف

ترجمة

عزالدين اسماعيل

السفينة



تأليف

يوري كريموف

ترجمة

عزالدين اسماعيل



دست اللاسلكى

كان هناك اثنان منهم يقومان بالمناوبة الليلية فى المحطة اللاسلكيه لخط كاسبين الملاحى ، همـــا تاروموف الذى يقوم بالعمليـــات ، وبلتسكايا التى كانت وظيفتها توصيل الاشارات البرقية عن طريق الراديو الى وجهتها · وكان تاروموف شابا فى العشرين من عمره ، ولكنه كان مشتهرا بأنه أحسن من يقوم بالعمليات فى الخط ويقال عنه انه يستطيع ان يرسل أكثر من مائة اشارة فى الدقيقة · وعندما يسأل عن هذا الموضوع يبتسم وهو يقول : « ماذا تظننى ـ أتظننى رجلا أم آلة ؟ » · وكان يعرف كل مسمار وكل سلك فى الجهاز الذى يعمل عليه ، ويستطيع أن يعمل دون مساعدة أى خبير فنى · فاذا هو لاحظ خللا فى أى شىء راح يصفر ويقرض اظافره ثم يبدأ فى العمل خلف لوحة المراقبة · وعندئذ ربما ضحكت بلتسكايا وقالت

« اذا صعقك التيار الكهربائى يا آرسن فاننى سأموت من الخوف . فكر فى على الأقل ! »

كان الاثنان فى سن واحدة ، وتزاملا فى العمل منذ وقت . وكانت مهمة بلتسكايا هى تلقى الاشارات البرقية وتصنيفها ، وهى عملية مضنية ، ورتيبة ، ولم تكن تتطلب أى معرفة خاصة . أما آرسن فكان شغوفا بمراقبتها عندما يكونان منفردين فى حجرة الارسال . وأما هى فتستمر فى عملها فى كفاءة ودون ان تلفت اليها الأنظار ، وشفتاها تتحركان حركة خفيفة عندما تقرأ الرسائل البرقية . وقد يسقط شعرها الكستنائى على عينيها فتطوح به الى الخلف بحركة من رأسها . وفى هذه المواقف كانت تبدو له جذابة للغاية . وعند نهاية نوبتها فى العمل كانت تبدو نشيطة تماما كما هى عند بدايتها ، سوى ارتجاف طفيف فى يديها .

وقد أطلقوا عليها فى المحطة اسم موزيا . وكان الصبا باديا عليها . وهى تميل الى قليل من المزاح ، ولها لسان طلق . وكان تاروموف يوصلها الى بيتها بعد الفراغ من العمل . وكانت تثنى ذراعها فى هدوء حول ذراعه .

وقد عرف انها كانت متزوجة ، ولكنه لم يسمع قط شيئا عن زوجها ، كما لو لم يكن قد وجد على الاطلاق بالنسبة للجميع .

وفى ذات مرة ، بينما كانا يسيران على شاطىء البحر . رأيا اثنين على أحد المقاعد ، مستغرقين فى قبلة ، سابحين بنظريهما فى الفضاء .

وهمست موزيا فى صورة مشاكسة ، ونظرها مصوب الى وجهه،

قائلة : « من اجل ماذا يقبل الناس فى الأرض بعضهم بعضا ؟ لا بد ان فى ذلك شيئا من المتعة ، وان كنت لا أظن ذلك !

فأجاب فى لهجة جافة كيما يخفى ضيقه وحرجه قائلا :

ـ ألست اذن تقبلين زوجك مرارا ، وتظهرين نحوه من المشاعر أكثر مما يصنع الآخرون ؟

وصمتت موزيا لحظة . ثم قالت فيما يشبه التنهد والتثاؤب

ـ اننى لم أره منذ وقت طويل . لست أدرى منذ متى .

فسألها : « وكيف ذلك ؟ » ، وهو يريد أن يعرف ما اذا كانت تمزح أم تقول الحقيقة

فقالت موزيا وهى تمد فى كلماتهـا لتطيلها : « انه بعيـد ، بعيد جدا . انه كبير المهندسين على ناقلة الزيت (ديربنت) »

وسرعان ما حدث تغير فى العلاقات بين موزيا وتاروموف وأدرك هو من نفسه أنه يفكر فيها حتى فى غيابها . وكان يحب أن يلمس أجزاء من ملابسها أو من الاشياء الاخرى التى تخصها ، ويرضيه أن يسمع اسميهما يذكران معا ، الامر الذى كثيرا ما كان يحدث فى محطة اللاسلكى .



وكان فى بعض الاحيان يشعر بضيق من نفسه ليس له سبب، فقد أفلت منه الزمام ، ووقع فى حب زوجة رجل آخر ، كما يحدث

لتلميذ مع زميلة هي زوجة لرجل آخر ، وهو حب لا يمكن ان ينتج عنه سوى الأحلام" .

وفي بعض الأحيان ، بينما هو يراقب كومة الورق المتراكمة على منضدتها ، كان يدب في نفسه خوف مفاجيء ، اذ ماذا يكون الأمر لو ان الوظيفة أنهكتها فتركتها وكانت هذه هي نهاية كل شيء . ولم يكن يستطيع ان يتصور فتاة أخرى تجلس في مكانها . ولكن موزيا لم تكن لديها نية اعتزال العمل ، فقد كانت مرحة وجلدة كالمعتاد . وربما صاحت به وهي تتركه عند مفترق الطرق بعد العمل :

- شكرا لك يا فارسي ! حاذر أن يدوسك الترام !

وفي تلك الأمسية لم يكن هناك عمل كثير . فقد بعث تاروموف في الحادية عشرة مساء بالنشرة الجوية : « في منطقة استراخان تظهر سحب متوسطة ، مع جفاف ، والرياح شمالية شرقية ، مع ارتفاع ثلاث درجات . وفي منطقة ماخاش - كالا - كراسنوفودسك يحتمل سقوط رذاذ ، وسرعة الرياح لا تتجاوز خمس درجات . وتنبؤات الجو في الأربع والعشرين ساعة المقبلة هي زيادة في التغيرات المفاجئة في الرياح ، مع سحاب خفيف » . وفي دفتر التسجيلات وجد تقريرات من من سفن تأخرت عن مواعيدها بسبب رداءة الطقس . أما في الظهيرة فلم تكن هناك أي تقريرات .



وتغير اتجاه العاصفة الى الجنوب ، وهي تجر أذيالها فيما بين كراسنوفودسك وباكو . وقرب المساء سجلت اشارات الريح

وغادرت البــاخرة الأولى أرصفة البضاعة وهى تطلق صــفارة الانتصار .

وبعد اذاعة النشرة الجــوية ، حول عامل اللاسلكى الجهــاز للاستقبال . ولم يكن من الممكن - بحسب تقريرات الصباح - ان تصل أى ناقلة زيت خلال الساعتين القادمتين وكانت موجة الارسال متعطلة ، والغناء الخافت الذى لا يكاد يسمع يتسرب اليه خــلال السماعات كخشخشة حشرة صغيرة رقيقة على الحاجز .

وأدار تارُوموف مقياس الورنية فارتفع الصوت وقوى ، وصار من الممكن تمييز النغم فى وضوح وهو يعزف بمصاحبة بيــانو . وأداره مرة أخرى فاذا بالصوت الانثوى الغاية فى الوضوح يتلاشى فى ضجة ممتدة من الاستحسان .

وأدار عامل اللاسلكى مكبر الصوت ونزع سماعتيه . وانبعثت من المكبر أصوات قوية متلاحقة نتيجة لاهتزاز فيه أحدثته ضجة تصك الأسماع ، تميزت فيها الأصوات عالية منكرة كما لو كانت أصوات استغاثة . فتركت بلتسكايا مكانها بالقرب من التليفون وجاءت على عجل .

وسألته فى انزعاج : « هل جننت ؟ وماذا لو أن أحدا طلبك ؟ »

واستندت الى ظهر كرسيه وأنفاسها تلفح قفاه . وهدأت ضجة الاستحسان ، وشرع الصوت الانثوى يردد نفس الأغنية البيتية البسيطة التى تغنى للأطفال عند النوم .

وهمست موزيا « انها أغنية لطفل ، وغناؤها جميــل ، أليس كذلك ؟ تنح قليلا يا آرسن » .

وجلست على حافة كرسيه ، وطوقت كتفيه بذراعهـــا لتحتفظ بتوازنها ، وكان وجهها قريبا منه حتى انه استطاع ان يرى لمعان أسنانها الرطب من بين شفتيها نصف المنفرجتين · أما هو فترك رأسه تسقط شـيئا فشيئا الى الخلف نحوها حتى داعب شـعرها وجنته · ولم تلاحظ هى ذلك ، فقد كانت عيناها مثبتتين على مكبر الصوت ، ولم يكن هو ينصت الى الموسيقى ، وانما كان يفكر فى انهما لم يجلسا قط مثل هذه الجلسة ، وعلى هذا النحو من القرب ، وأنهما من الممكن ان يزدادا قربا حتى ··· حتى يصـبحا زوجا وزوجة · وكان يفكر فى جذل : « بهذه الطريقة يقع الأمر · أجل هكذا تماما » · وانطلقت عاصفة أخرى من الاستحسان أعادته الى وعيه ·

وقالت موزيا : « يكفى هذا · انهم يوجهـــون اليك اللعنات فى مكان ما من البحر ، وسوف تجلب لنفسك المتاعب »

وأدار المحول ، وألقى بنظرة جانبية على موزيا · أما هى فقـــد عقدت يديها خلف رأســــها وتمددت ، وفى عينيها نظرات تشرق بالصداقة والحب · وكان يبدو أنها عرفت من قبل أنه معجب بها ، وأنها مع ذلك لم تبتعد عنه ، بل على العكس ، فربما كانت الفرصة قد بدأت تتاح لها !

وأخذ يلبس سماعتيه فى بطء ، وعاد الى الموجة التى تحمل نداء السفن · وكان سكون · فموزيا كانت قد عادت الى منضدتهـــا ، ويداها تتحركان فى صمت خـــلال كومة من الأوراق ، تصنفها وتنظمها · ولم يكن فى حجرة الارسال شىء يسمع سوى صـــوت موقد الغاز فى الجانب الآخر من الحاجز · ونظر فى ساعته ، فكانت تشير الى الواحـدة والخمسين دقيقة صباحا · وفجأة راح يفـكر

، اذا جاء طلب من البحر قبــل الساعة الثانية فسـاخبر اليوم به موزيا ، واحس ببهجة غريبة ، ولكنه مع ذلك كان خائفا . فقد تذكر من أيام الطفولة كيف أنه هو وأصحابه اعتادوا أن يلقوا بعصا فى الهواء ليقرروا الأمور المهمة ويجتمعوا حولها فى جدية وصمت تام . وتدور العصا فى الهواء وتسقط سواء على جانبها أو على طرفها وكلا الأمرين كان حسنا .

الساعة الآن الواحدة واربع وخمسون دقيقة ، اى لم يمض سوى ست دقائق ، كانت ثقيلة على النفس ومن الأفضل التفكير فى شىء آخر ، ولكن فى ماذا ؟ فزوج موزيا كان على ناقلة الزيت (ديربنت) . وقد ذكرت الأخبار أن هذه السفينة كانت منذ عهــد قريب أعظم سفينة . وقد بدأ بحارتها فكرة الرحلات الاستخانوفية وكانوا أول من وضعها موضع التنفيذ . أما الآن فكان التنافس بين ناقلة الزيت (ديربنت) وناقلة أخرى هى (اجاماليا) التى كان عليها بحـــارة رائعون كذلك ، ولم يكن من الممكن التنبؤ بمن سيكون له السبق . وقد وصلت من الديربنت برقية لاسلكية فى ذلك الصباح تقول انها كانت تسحب سفينة كانت قد أصاب ماكينتها خلل وقد رأت موزيا الرسالة ولم تقل كلمة واحدة . وقبل ذلك بيوم كانت ريح عاصفة قد هبت . ولكنها رغم كل ذلك لم تذكر زوجها قط . وحتى فى اليوم الذى أحرزت فيه الديربنت انتصارها الاستخانوفى لم تفــكر فى الذهاب الى الرصيف لمقابلته . ثم ان ناقلات الزيت لا تمكث فى الميناء أكثر من ساعتين . ومن أجل ذلك نشأ بينهما نوع من البرود . على كل حال . فان هذا يحدث فى بعض الأحيان .

وتفكر فى زوجها كيف يكون . انه مهندس سفينة ، واســـمه فلاسوف ، لا ، بل بازوف ويحتمل انه تجاوز مرحلة الشباب ، وانه يقتصد فى كلماته ، شأن كل مهندسى السفن ، فى حين كانت موزيا تميل الى قليل من المزاح .

الساعة الواحدة والدقيقة السادسة والخمسون صباحا . وكان جهاز اللاسلكى فى احدى السفن يعمل ، فقد سمع ضجة خافتة مفاجئة وطنينا . وتمنى ان تبدأ الاشارة ، وغمس ريشته فى الحبر، وقرب اليه دفتر التسجيلات . انه يجب ان يتحدث الى موزيا اليوم، ولكن العمل كان على قدم وساق ، فكان لا بد له من ان يوصلها الى بيتها ، وبعد ذلك ...

الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والخمسون صباحا ، وقد قطعت الاشارات الصاخبة الواضحة هدوء الحجرة . وأدهشته رتابتها غير المألوفة ، التى كانت تبدو كما لو أن يدا تداعب بمفتاح . نقطة . نقطة . نقطة . شرطة . شرطة . شرطة . نقطة . نقطة . نقطة ... النجدة ... وجذب سلك سماعته ، وقد أمسك نصف الدائرة الحديدية بجمجمته بشدة . وكانت الطرقات الصاخبة البلورية تدق ، فى جنون ، صدغيه .

« النجدة النجدة النجدة ... هنا اذاعة ازبكستان ٣٦٠و٤٢ ، ١٨ر٠٢ شمال جزيرة شيشن . اشتعلت النار فى جنب السفينة ، ولا يمكن محاصرتها .... النجدة النجدة النجدة »

وبدأ عامل اللاسلكى يكتب . وأحس بما تحس به أنت أحيانا فى الحلم ، عندما يصيح شخص ما فى اذنك وسط الخيالات البليدة بكلمة واحدة يبدو عندها كل شيء مليئا بنذر الشر المفزعة . واستمرت الطرقات :

« النجدة ..... ٣٦ر٤٢ ، ٠٢ر١٨ شمال جزيرة شيشن . قطرتنى ناقلة الزيت (ديربنت) . قطعت سلك القطر . سارت فى طريقها السابق . لا تجيب على أى اشارة . الموقف يبعث على اليأس ...... النجدة »

وصاح تاروموف : « يا موزيا ، اطلبى ادارة الانقاذ ، اسرعى يا موزيا ! »

وسمع صوتها خفيضا من وراء سماعتيه وهي تقول :

ـ ماذا بك يا آرسن ؟

ـ لا تقولى شيئا ، اليك هذه الرسالة

وامتدت يدها الى أعلى كتفه وامسكت بدفتر التسجيلات

وسمعها تحدث باصبعها طرقات على قاعدة سماعة التليفون قالت فى هدوء :

ـ الخط الملاحى ، اعطنى ادارة الانقاذ ، الأمر خطير !

وعادت الاذاعة تنادى فى صراخ :

« النجدة . اذاعة أزبكستان ... ناقلة زيت ثقيل . انفجر الخزان العاشر فقدنا التوازن ، اشتعلت النيران فى ركن السطح ، من الصعب انزال الزوارق . ٤٢٫٣٦ ، ١٨٫٠٢ . الديربنت تشق طريقها مبتعدة ... لا تجيب عن أى اشارة .. النجدة .. النجدة»

وكانت فترة صمت قصيرة ، فقد راحت موزيا تنقل الرسالة خلال التليفون ، وقد أدارت ظهرها وأدارت بيدها فوهة السماعة . وكانت تتحدث بصوت خفيض حتى لا تعوق الاستقبال يا لها من فتاة ائعة ! ثم وضعت السماعة على قاعدتها ومضت اليه .

وفى صيحة تعجب غاضبة قالت : « الانذال ! لقد تركوا زملاءهم ! - يا آرسن ! »

ـ ماذا ؟

ـ أيمكن أن تسمع شيئا ؟

ـ كلا

ـ لماذا هم يبحرون بعيدا يا آرسن ؟

ـ لا أدرى ، انهم يحملون زيتا ثقيلا أيضا ،وهم يخشون أن ينتقل اليهم الحريق فيما أظن ٠

ـ يا للجبناء ! ينجون بجلدهم ٠ أليس كذلك ؟

ـ هيم ، هيم !! ٠٠

ـ يا آرسن ، أأنت منصت ؟

ـ أجل ، لا تتحدثى الى ٠

وضغط بيديه على سماعتيه الى أن تأذت أذناه ، فقد كان الأثير المزعج لا يسمح بضجة الاشارات

« بولشفيك تطلب أزبكستان ٠ نحن على بعد ثلاثين ميلا ٠ فى طريقنـــا اليكم ٠ وأنتم فى باكو وماخاش كالا كراسنوفودسك ، أرسلوا كل سفن الشحن الى ٤٢ر٣٦ شمالا و ١٨ر٠٢ شرقا جنوبى حزيرة شمشمن ٠٠

وحول تاروموف الخط الى جهاز الارسال ٠ وخلف الحاجز أعول المولد (الدينــامو) وهو يدور ٠ وأنار زجاج الارســـال بوهج الصمامات الأصفر ، ووضع يده على المفتاح وبدأ يطرق ٠ وتطايرت شعاعات زرقاء من التماس ، وانطلق مكبر الصوت يصفر ٠

ـ على جميع سفن الشحن أن تتقدم الى ٤٢ر٣٦ ، ١٨ر٠٢ ....

ثم حول الخط ثانية الى جهاز الاستقبال ٠ وانطلقت من أجهزة اللاسلكى بالسفن صرخة أو صرختان ثم عادت فصمتت ٠ وكانت فترة صمت كثيف كذلك الصمت الذى يصحب العمل ، كان يبدو عليه فى خلالهـــا انه يسمع جلجلة سلاسل الخطاف ، وهسهســة البخار ، وزبد المياه التى تقذف بها اللوالب الى أعلى ٠ وفجأة أخــذ صوت اللاسلكى الأجش يطلق صفيرا غاية فى الوضوح :

ـ (ديربنت) تطلب أزبكستان ٠٠٠ (ديربنت) تطلب أزبكستان

- لا أدرى ، انهم يحملون زيتا ثقيلا أيضا ، وهم يخشون أن ينتقل اليهم الحريق فيما أظن ·

- يا للجبناء ! ينجون بجلدهم · أليس كذلك ؟

- هيم ، هيم !! ···

- يا آرسن ، أأنت منصت ؟

- أجل ، لا تتحدثى الى ·

وضغط بيديه على سماعتيه الى أن تاذت أذناه ، فقد كان الأثير المزعج لا يسمح بضجة الاشارات ·

« بولشفيك تطلب أزبكستان · نحن على بعد ثلاثين ميلا · فى طريقنـــا اليكم · وأنتم فى باكو وماخاش كالا كراسنوفودسك ، أرسلوا كل سفن الشحن الى ٤٢ر٣٦ شمالا و ١٨ر٠٢ شرقا جنوبى جزيرة شيشن ···

وحول تاروموف الخط الى جهاز الارسال · وخلف الحاجز أعول المولد (الدينـــامو) وهو يدور · وأنار زجاج الارســـال بوهج الصمامات الأصفر ، ووضع يده على المفتاح وبدأ يطرق · وتطايرت شعاعات زرقاء من التماس ، وانطلق مكبر الصوت يصفر ·

- على جميع سفن الشحن أن تتقدم الى ٤٢ر٣٦ ، ١٨ر٠٢

ثم حول الخط ثانية الى جهاز الاستقبال · وانطلقت من أجهزة اللاسلكى بالسفن صرخة أو صرختان ثم عادت فصمتت · وكانت فترة صمت كثيف كذلك الصمت الذى يصحب العمل ، كان يبدو عليه فى خلالهـــا انه يسمع جلجلة سلاسل الخطاف ، وهسهســة البخار ، وزبد المياه التى تقذف بها اللوالب الى أعلى · وفجأة أخــذ صوت اللاسلكى الأجش يطلق صفيرا غاية فى الوضوح :

- (ديربنت) تطلب أزبكستان ···· (ديربنت) تطلب أزبكستان

... أنا قادم . سوف أقترب من الجانب الأيمن للسفينة . انتى انزل الزوارق ، أجمع البحارة . الهدوء الهدوء حـــول .. (ديربنت) تطلب باكو ، ماخاش كالا ...

وصرخ تاروموف قائلا وقد أفلت منه النسق المترابط للاشارات « يا موزيا ، اطلبى محطة الطوارىء . أتسمعين يا موزيا ؟ »

ـ ديربنت تطلب باكو ، ماخاش كالا ... فى طريقنا لانقـــاذ بحـــارة أزبكستان . ان عليهـــا حمولة كاملة من الزيت الثقيل . هناك خطورة اشتعال النار رغم اتخـــاذ الاحتياطات ... ارسلوا سفينة انقاذ الى ٤٢ر٣٦ ، ١٨ر٠٢ » .

وأسرعت موزيا نحو المنضدة .

وقالت : « ان محطة الطوارىء على التليفون . هل انتهيت ؟ »

واختطفت الورقة وأسرعت الى التليفون . ورآها تاروموف تضع جهاز الاستقبال على اذنيها وتنظر الى الورقة . واستندت فجأة الى الحائط وعضت على شفتها ، وأغمضت عينيها تماما . ولم تستمر على هذه الحال أكثر من بضع ثوان ، ثم فتحت عينيها وتحدثت فى التليفون بصوتها العادى : « أأنت على استعداد ؟ خذ هذه البرقية ناقلة الزيت (ديربنت تطلب باكو ، ماخاش كالا ... »

وأسند تاروموف صدره على المنضدة ، وعادت أجهزة اللاسلكى بالسفن تحدث جلبتها . وكان هو فى أثناء هذه الضجة التى تحدثها خائفا من أن يفلت منه صفير المحطة الأجش . وكانت أذناه تدقان من التوتر ، واختلطت أفكاره بأجزاء من الرسائل البرقية :

« من سوء الحظ انه لا توجد باخرة فى مكان مجاور . لماذا هم يطلبون سفن الشحن ؟ ان النار تشتعل فى ناقلات الزيت بسهولة . و (الديربنت) ناقلة زيت ، لقد قطعت السلك وأبحرت بعيدا ، ثم

عادت . يا للعجب ! سيكون انقاذ الرجال أشق عليها الا ن . و كان عامل اللاسلكى هو آخر من يترك عمله ... ومن عامل اللاسلكي على الباخرة (أزبكستان) ؟ انه فاليا لاستك ـ انه مجرد صبي . وربما كان قد اختنق ؟ وربما كانوا جميعا قد اختنقوا ؟ كلا ، فالديربنت ســـوف ترسل زوارقها وتلتقطهم جميعا . ولكن لماذا تراها قد ابتعدت ؟ لماذا لم تجب عن الاشارة ؟ ولماذا عادت ؟ ان بها حمولة خطرة هي زيت كراسنوفودسك . وهو زيت طيار وسريع الالتهاب كالبترول . وماذا كانوا يقولون عن ناقلة الزيت تلك ؟ أجـــل ، الرحلات الاستخانوفية . انها بداية خطة في الشحن . وبازوف ، زوج موزيا ، هو كبير المهندسين على الديربنت . وقد أصيبت موزيا بالفزع عندما قرأت تلك البرقية ... رياح قوية تهب . والشرر يتطاير ، والبحر مرتفع ... وكان الشيء الرئيسي هو ألا يفلت أى نداء . قالوا ان السفينة كانت تفقد توازنها ، وتترنح . وعلى ذلك فقد كان (فاليا لاستك) ما يزال يجلس الى جهاز اللاسلكى عندما اشتعل الهيكل العلوى للسفينة وكانت على وشك ان تنقلب. وكانت النيران قد بدأت تأكل ملابسه من فوق ظهره، وكان هو يختنق من دخان الزيت والطلاء المحترق . ثم انه مجرد صبى ... »

وصمتت السفن . وانسابت فى سماعتيه مرة أخرى موسيقى تكاد لا تسمع . أهى من (تفليس) ؟ أهى من (افران) ؟

وبدأ رجع صيحة الفتاة اللعوب كما لو كان آتيا من خلف الحائط المصمت وهى تقول : « وداعا يا أبناء مخيمى ، هذه هى آخر مرة أغنى فيها ... »

يا له من جهاز استقبال خسيس ، لا يستطيع الانتقاء ! وحاول عامل اللاسلكى بادارته للمنظم ان يتخلص من الأغنية ، فقد كان ضائقا بالفتـاة اللعوب التى لم تكن تدرى شيئا عن اللاسلـكى أو المسافة الى جزيرة شيسن الصخرية وأمواجها الهائلة . ولكن أخيرا

تلاشت ضجة الاستحسان ، وعاد كل شيء الى الهدوء .

وكانت موجة الارمال بالسفن ساكنة

وحين استدار تاروموف رأى موزيا ، فقد كانت واقفة خلف كرسيه ويداها ملتصقتان ، وكان وجهها شاحبا ، فشعر أنها ربما تنهار .

- أما من جديد يا آرسن ؟

- كلا .

- أنت تعلم أنني لا أستطيع العمل ، فهل يضايقك أن اقف هنا قليلا ؟

- كلا بالطبع . وتنحى قليلا لكي يفسح لها مكانا على كرسيه . « اجلسى هنا ولا تأخذك الدهشة »

وأحس بتفوقه عليها لأنه كان أهدأ منها . ولكن كان هناك فى الوقت نفسه شيء أثار غضبه .

وجلست موزيا على طرف الكرسى ، وهزت بدنها رجفة باردة وقالت شاكية : « اننى أرتجف . الجو بارد »

- انه الاضطراب يا موزيا

- كلا ، ان الجو بارد حقا هنا . اسمع يا آرسن

- ماذا ؟

- فى العام الماضى احترقت السفينة (بارتيزا) . أتذكر ؟ وكانت تحمل زيتا من كراسنوفودسك . انه زيت شديد الانفجار . أليس كذلك ؟

- هذا هراء

- عجبا ، فهلا أخبرتنى بالحقيقة !

- قلت لك هذا مرارا ؟

- فهمت ، فأنت تلفق اكذوبة لا أكثر : اننى مرتاعة الى أبعد حد يا آرسنن . ثم أضافت : لنفرض ان شيئا حدث ...

ولف ذراعيه حولها وجذبها اليه ، وهو دهش من عدم الشعور بأقل قدر من الحياء . ورأى وجه موزيا الشاحب يستند الى كتفه فى بلادة تعسة ، فقال كيما يبعث فى نفسها البهجة :

- ان زوجك لا يشترك فى عملية الانقاذ ، فهو فى عنبر المحركات، وليس هناك من خطر فى ذلك المكان .

وتنهدت موزيا .

- أتعنى بازوف ؟ انه لم يعد زوجى

- ماذا تعنين ؟

- أعنى ما أقول . لقد انفصلنا . ومن الخير ...

وصمتت برهة

- يجب أن تعرف أننى لا أعتقد اننى قد احببته قط . ولكن ربما أحبنى هو بطريقته الخاصة فلست أدرى . انه لشخص غامض . وكل ما حدث انه ذهب وكان ذهابه هو النهاية . لا تظن اننى خائفة من أجله ! فهناك خمسة وأربعون شخصا على الديربنت ، واذا حدث شىء ...

وربت على كتفها ، وفى اعتقاده ان الرجل لا بد ان يكون قد أساء اليها على نحو ما ، وانها كانت تعسة ولم تستطع ان تنسى الاساءة . وقد أثار فى نفسه الزهو اعتقاده أنها كانت توليه ثقتها وتتوق منه التعاطف معها كما لو انهـــا قد اتحدت معه ضد ذلك الرجل الكريه ، زوجهـــا السابق . ثم وقعت عينه على صـــفحة بدفتر التسجيلات ، فقرأ كلمات البرقية : أبحرت بعيدا ... لا تجيب اى

شارة . وتخيل وهج النار الواضح ، وشبح السفينة الحائنة التى أبحرت بعيدا وغابت فى الظلام. وقد خطر على باله أنه كانت لبازوف المهندس يد فى ذلك .

وتصوره ضخما أحمر الوجه قاسيا ، يقف على مؤخر السفينة ، يزأر كالغول وهو يأمر بقطع سلك القطر ، وقد تجمع البحارة على سطح الباخرة والدهشة فى وجوههم ، ولكن لم يستطع واحـــد منهم ان يفكر فى الاقتراب منه . ثم تذكر انه كان على الســـفينه قبطان ، وأنه كان على المهندس بازوف ان يطيع أوامره تماما كبقية البحارة ، وغاظه ان المشهد الذى كان قد رسمه خياله رسما جيدا لم يكن يتفق مع الواقع .

وفجأة نصبت موزيا نفسها وانتفضت واقفة .

ـ أف ! يا للتعاسة ؟ قالت ذلك فى صـــوت خفيض ممرور . واستأنفت قائلة : «ألم ننته بعد ؟ تأكد يا آرسن انه لم يفتك شىء! »

ومضت بطيئة الى مكانها من المنضدة ، وجلست ، وبدأت تصف الأوراق . ووجد انها كانت قد نسيت كل شىء بشأنه ، ولم تكن لديهـــا أية فكرة عن الأثر الذى تركته كلماتها فى نفسه . وحين صرف هذا الخاطر عن نفسه رأى صورته على حافة المنضدة المصقولة ـ رأى شـــعره المبعثر ، والقطعتين السوداوين من السماعتين على أذنيه ـ وخطر له أن هذه الصورة لا تفسر الموقف بينه وبين موزيا ـ وكانت الهمهمة الكئيبة الممتدة ما تزال تطن فى أذنيه كرياح البحر العنيفة حين تعصف فى سماعتيه . وهو يبدأ من وقت لآخر عند طـــرقات الاضطرابات الجوية ، يتناول ريشته ، ولكن دون أن تأتى أية اشارة .

واستحالت زوايا النوافـــذ القائمة زرقاء ، وكبر حجم النجوم وصارت شاحبة ، اذ كانت قد بدأت تضىء . وأضاء شـــعاع أخضر

سطح المخبر بالجانب الآخر من المنطقة المهجورة - كان ذلك أول ترام يغادر رصيف البترول .

وفجأة حدثت فرقعـــة فى السماعتين ، فضغط تاروموف عــلى أذنيه وانتزع ريشته وقفزت موزيا فى الحال وأسرعت اليه . وكان لديه متسع من الوقت لكى يتساءل سريعا كيف عرفت هى عندما دوى جهاز اللاسلكى القوى :

- (ديربنت) تطلب المراسى ... سفينة الانقـــاذ ترجع ... (أزبكستان) تغرق عند ٣٦ر٤٢ ، ٠٢ر١٨ ... أنقذ بحارتها وحملوا الى السفينة ... المساعدة الطبية مطلوبة عند الرسو ... فهنـاك حالات احتراق ..

وبعد لحظة صمت جاء صوت الخط السريع القصير : « من أجل المساعد السياسى للديربنت - بازوف

فصرخ تاروموف وهو يلقى بسماعتيه : عظيم جدا ! لقد انتشلوا البحارة ، أتفهمين يا موزيا ؟.

وأمسكت بالدفتر وقرأت الرسالةفى سرعة، وشفتاها تتحركان.

- لقد أشار بذلك بازوف . قالت ذلك فى هدوء ، ثم استأنفت : « انظر ياله من فتى ! قلت لك انه غاية فى الغرابة » .

فأجاب تاروموف دون تفكير :

- ان بازوف صاحبك هو الشخص القدير بلا شك . انه فتى عجيب . يكفى ان تتصورى انهم كانوا يحملون زيت كراسنوفودسك فى خزاناتهم ، وهو زيت يشتعل كالبترول !.

فقالت موزيا فى ابتسامة تعسة : « لقد قلت أنت من قبل انه هراء » .

- وما أهمية ما قلت أنا ! ان ذلك لم يكن الا لأنك كنت جزعة . انكما ستتقابلان الآن ثانية ، وسيكون كل شىء رائعا . كل ما فى الأمر انك انحرفت نفسيا قليـــلا ، وهذا - كما تعلمين - يحدث

أحيانا . ولـكن يا لله ! ويا لهم من رفقـة لطاف ! فالبحر مرتفع ، والشرر يلمع من حـــولهم فى الريح ، وهم يبحـــرون فى هدوء وينتشلونهم ! انهم بحارتنا ! ومن المؤسف ان (أزبكستان) غرقت ، ولكن الرجال أهم

وقالت موزيا فى صوت خفيض : « ان بعضهم يعانى من الحروق، واستأنفت :

- ربما كانوا   - فيم تفكر ؟

- لا شيء ، ربما كنت مهموما قليلا ، اسمعى ، أى نوع من الرجال يكون بازوف هذا ؟

- حسن ، انك تعرف ذلك ، فهو كبير المهندسين .

- هذا مضحك . ولماذا لم يوقع القبطان البرقية ؟ حسن ، هـذا لا يهم . انه لعمل رائع منهم ، أليس كذلك ؟ اطلبى سفينة الانقاذ ! يالهم من بحارة ! ألست فخورة بهم يا موزيا ؟

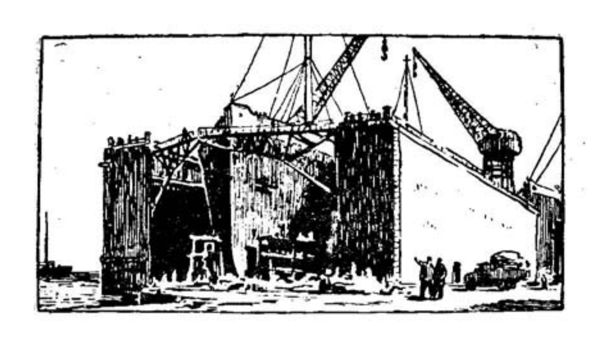
- بطبيعة الحال ، ولكن بعضهم يعانى من الحروق . اننى خائفة

- خائفة ! ها ، فكرى فى شيء آخر . أجل يا موزيا ، انهم رفقة لطاف ..

وأشرق وجهه بالسعادة ، وبعثر شعره فى نشوة . وحين نظرت اليه موزيا بدأت هى كذلك تبتسم .

ثم نظر الى دفتر التسجيلات فجأة ، واستغرق فى التفكير .

وتساءل ثانية : « ولكن لمـــاذا أبحروا بعيدا أول الأمر ؟ لمـاذا أبحروا بعيدا أول الأمر ، ثم عادوا ؟



قــــادة

- ١ -

كان افجينى استيفانوفتش كوتازوف متطيرا مثل كثير من قدامى البحارة ، فكان قبل ان يخرج فى الربيع الى أماكن الصـيد البعيدة عن الشاطىء يلقى بقبضة من النشوق على الرمل ليضمن ألا يفقد حباله . وكان اذا ما هدأت نفسه ، وارتفع الشراع كالخرقة البالية على عمود الزورق ، يروح يصفر فى لطف من خلال أسنانه كيما تهب الرياح .

وفى بعض الأحيان كان النسيم يأتى ويملأ شراعه ، وعندئذ يتمايل الزورق ويمضى سريعا ، وقد لا يبتهج افجينى به أو حتى يفكر فيه ، فالنسيم قد هب وهذا كل ما فى الأمر . وفى ظروف أخرى كان السطح المتألق للمياه الهادئة يمتد حتى الأفق ، ويختلط

بالسماء المتلظية ، ويأخـذ هو فى الصفير قدر المسـتطاع ، ولكنه لا يثير بصفيره أقل نسمة من الهـــواء • وحين يستسلم افجينى للخوف ينكب على مجدافيه •

وكانت هواية القبطان كوتازوف المفضلة هى أن يبحر منفردا • وكان يحب الوقوف عند حان للجعة ، والحديث عن مهنته القـديمة مع بحارة الرفاس القدامى • انه قد اعتزل الملاحة هو نفسه منذ أمد بعيد ، وعمل فى قسم التسجيلات بخط كاسبيان الملاحى ، وكان هذا عملا هادئا • وتتابعت أيامه التى يعمل فى كل منها ست ساعات فى هدوء وسط صف من الصناديق المليئة بسجلات الشحن المتعفنـة منذ سنين مضت • وكانت نوافذ الحجرة تطل على البحر • وفوق المنـــازل ذات الأسقف المسطحة كان سطح المرفأ الأزرق يموج بالدخان المتصاعد من السفن • وذكرته همهمة أنابيب التهوية وهى تنقى الهـــواء من غبار السجلات باختــلاج صوت الآلات البخارية المنخفض الذى اعتاد أن يسمعه وهو على قنطرة سفينته •

ولكن هذا كان جانبا واحدا من حياته • وحين كان يبحر بعيدا عن الشاطىء فى أيام عطلته كان يتتبع بنظره البواخر وهى تندفع فى البحر الى أن تختفى وراء الافق فى غيامة شـــفافة مجعدة من الدخان • ثم يلقى بنظرة على الشـــاطىء الذى كانت تفصـــله عنه شقة ضيقة من الماء النجس ويشعر بحنين غامض يشبه الحنين الى الوطن • ولكن الذكريات كانت مليئة بالخطر • وكان هو خائفا من تذكر الماضى •

وذات يوم بينما كان القبطان يجلس فى بيته يحتسى كوب شاى،

اذا به يقطع ورقة من التقويم كانت تحمل صورة جندى من الجيش الأحمر يلبس خوذة ، ويشير فى توعد بحربة بندقيته الى بعض السفن المبحرة . وتحت الصورة قرأ عبارة : « عام ١٩٢٠ أنشئت القوة السوفييتية فى أوديسة » ونظر الى زوجته . وكانت ناتاليا نيوكولايفنا تقرأ كتـابا ، وكان وجهها الصـبوح المستدير صـورة للرضاء الهادىء . .

لو أنها عرفت كل ما حدث فى تلك الليلة منذ خمسة عشر عاما ، ترى أكانت تبدو هادئة هكذا ؟ وهل كانت ما تزال تحبه ؟ أما هو فقد بدأ يتذكر سريعا وهو يشعر بالفزع والعار ، ويأمل على نحو مبهم أن يجد لنفسه عذرا الآن .

وكانت السفينة (فيجا) تقف فى المرفأ ، تنتظر أن تشحن . وقد وضع البيض الحراس على السـقالة . وكان من الممكن سماع طرقة أطـراف البنادق عـلى ألواح خشب الرصيف من سـطح السفينة . وفى العشاء نطق أحد الناس فى قاعة استقبال الضباط بكلمة « الجلاء » وعندئذ بدأوا جميعا يتكلمون فى الحال ولكن فى أصوات منخفضة كما لو كانوا خائفين من ايقاظ شخص ما ينام فى الحجرة المجاورة .

– انكم لا تستطيعون أن تحاربوا البنـادق بقبضات أيديكم . قالها افجينى استيفانوفتش واسـتأنف : « واذا نحن رفضنا أن نباغتهم فسيقتلوننا . . . هلا أغلقتم ذلك الباب ؟ »

فقال جريف كبير المهندسـين وقد اعتراه شـحوب : « أنا لن أباغتهم ، فليقتلونى اذا شاءوا ! لقد كان لهم الغلب ، وان الخنازير النجسة لتنتقم لنفسها من النساء اليهوديات . لقد رأيتهم بنفسى »

فقال افجينى استيفانوفتش : « بالله عليك يا جريف ! ان كل

شخص هنا يتفق معك ، ولكن ما فائدة الصياح ؟ ألست تعرف الأبواب الأرضية فى السفينة ؟ »

فضرب ضابط الملاحة على المنضدة فى عنف

وزفر فى غضب وقال : « لنطرد البحـــارة ، ولنفتح صـــنابير البحر ، وهذا هو كل ما يتطلبه الأمر · أموافقون ؟ »

وعض جريف أظافره

ـ اننا لا نستطيع أن نصنع ذلك الآن ، فهم سوف يلاحظون ذلك ، وعندئذ يكون القضاء علينا · لهذا ينبغى أن ننفذ ذلك فى المساء · اسمعوا ، فى هذه الليلة ·

ونظر افجينى استيفانوفتش حوله · كانوا جميعا يبدون كما لو انهم فقـدوا كل حصافتهم فى ذلك اليوم · ولم يكن هنـــاك شىء يقنعهم · فقال فى اذعان : « حسن فى هذه الليلة » ·

وهزت بدنه الضخم رعشة باعثة على الضيق · وأراد أن يعود الى بيته ليتناول قليلا من الشاى وليهدىء من نفسه وليرى زوجته · وكانت الشوارع مظلمة وخالية ، والريح تجتاح الثلج على رصيف الميناء فى لفحات قوية · وفكر ايفجينى استفانوفتش فى أن الناس يتغيرون أمامه حتى جريف · وفى البيت حدث له عكس ما توقع ، فلم يشعر بأى تحسن · وأنصتت ناتليا نيكولايفنا لكل ضجة آتية من الشارع ، وظلت تنظر فى قلق الى عينيه · ماذا كان يستطيع أن يخبرها به ؟ أيخبرها أنه سيطرد بحارة السفينة (فيجا) فى تلك الليلة ويفتح الكوى فى جانبيها ؟

أما فى الخارج فقد كانت الأمور تأخذ مجراها ، وكان من الممكن سماع وقع الأقدام خلال النوافذ . كان هناك شىء ثقيل يتحرك فى بطء عبر الشارع ، شىء من الثقل بحيث يرتج منه زجاج النافذة · وأكثر من

هذا كله جاءت دقات ثقيلة تشبه دقات مطرقة الحداد على قطعة م الحديد .

وارتدى ايفجينى استيفانوفتش معطفه ليذهب الى الميناء . وتعلقت زوجته بصدر معطفه وباركته بأن رسمت على كتفه صلبانا صغيرة سريعة ، وألقى بيديها بعيدا ونظر الى ملامحها المضطربة ، وأحس بعزيمته تتضاءل ..

واندفع خارجا الى السدفة . ولم يستطع التعرف على الطريق ، فقد كان هناك مد من الناس ينساب وراءه فى الظلام ، وتألقت السجائر المتـــوهجة . وكانوا جميعا يتحركون فى سرعة صامتـــة ، يملئون الشارع كله ، وكانت أقدامهم العديدة تدق على الأرض . لقد كان البيض يتقهقرون . وزحف ايفجينى استفانوفتش وراءهم على طول رصيف الميناء ، وهو مذهول مغلوب على أمره .

وعلى الرصيف كانت كرات المصابيح اللامعة تتأرجح مدلاة على المحلات . وشق ايفجينى استفانوفتش طريقه خلال جماهير كثيفة من الجنود واللاجئين الى (سقالة) السفينة ، حيث طوق الحـــراس الطريق بحراب بنادقهم المتشابكة . ولكنهم حين رأوا اشارة القبطان على قبعته تركوه يمر .

ووقف على ظهر السفينة (فيجا) ، وتجمع البحارة حوله . وكانوا ينتظرون الأمر منه . ولكنه لم يصنع سوى أن استدار بعينيه حتى لا يرى الشرائط المقصبة على أكتاف الحراس وهى تلمع فى ضـــوء المصباح الخافت .

وفجأة ظهر جريف بجانبه ، ووجهه شاحب اللون ، قاتم ، عليه سيماء الحدة والشراسة .

وقال فى توتر : «لقد بدأت العملية أسرع مما ظننا» . واستأنف: « لا بد أن تخرج أيها القبطان ، فان الرفاق ينتظرون الأمر منك »

وبدأ ايفجينى استفانوفتش ٠

وقال فى غير وضــوح : « انتظر قليلا ، فهنــاك فتى عظيم » ٠ واستأنف : « انك تستطيع ان ترى ما يدور ٠ وربما كان علينا ان نباغتهم آخر الأمر ؟ »

فقــال جريف فى نغمة حزينــة : « ما الذى جاء بك اذن ؟ » ثم استأنف : « عجبا ، يا لك من قبطان رائع ! »

وفى هذه اللحظة انساب الناس خلف الحراس عند (السقالة) وتجمهروا على ظهر البـــاخرة كالقطيع المجفل ٠ وكانت أشـــباح البحارة المعتمة كامنة على مقدم سطح السفينة ٠ ورفعوا أرجلهم الواحد بعد الآخر من فوق (الدرابزين) وتدلوا ، وهبطوا دون ان يحدثوا ضجة على الرصيف ٠ وتحركوا على طول سوره وهم ما زالوا جاثمين كأنهم تلاميذ المدرسة يلعبون قفزة الضفدع ٠

وتنهد ايفجينى استفانوفتش تنهد ارتياح ٠ فقد ترك البحــارة السفينة دون أن ينتظروا أمرا ٠ ولكنه أصيب فى الحال بنوبة أخرى من الفزع تجمد لها دمه ، وخلع قبعته من رأسه ومزق الشارة الدالة بأظافره ٠

ـ أيها القبطان ، هذه خيانة ! كف عن ذلك !!

وخر على ركبتيه أمام هذه الصيحة الصـــارمة ٠ وحملق وهو مأخوذ فى العينين المحدقتين فيه ٠

وقال فى صوت متلعثم متلجلج لا يشبه صوته : « اننى لست القبطان » ثم أردف قائلا : « ولست أعرف شيئا ، لست أعرف شيئا على الاطلاق » ٠

ـ تزعم أنك لا تعرف شيئا ، أليس كذلك ؟ »٠هكذا طرق الصوت

أذنى ايفجينى استفانوفتش • ثم عاد الصوت : « أأنت لا تعرف أيها النذل ؟ سأجعلك اذن تعرف ! »

وطوحت به ضربة عنيفة أفقدته توازنه ، وسقط جسمه المترهل منطرحا على ظهر السفينة • وخلال دمعة ترقرقت من عينيه رأى قمة حذاء البحار اللامعة ، ومن فوقها حزام سراويل أحد الضباط ، كما رأى يدا تسرع الى فتح قراب غدارة •

فصاح ايفجينى استفانوفتش وهو يمسك بالحذاء بكلتا يديه : « لا تفعل ! لا تفعل ! » وحاولت أن تدور دون أن تمسه • فقال لاهثـــا وهو يمسك بساقه أخيرا ويلصق وجهه الدامى بهـــا : « لا تفعل ! »

وأمكنه ان يحس وهو راقد منطرح دون ان يرفع رأسه أن الخطر قد زال •

وزأر الضابط قائلا : « وأين القبطان اذن ؟ » وأردف : « ألا تسمع أيها الذليل ! »

ـ انه هناك • قالها ايفجينى استفانوفتش وهو يشير الى مكان ما فى اتجـــاه مؤخر سطح السفينة • وقام على قدميه وألصق يده بوجهه • ولم يكن من الصعب عليه ، وقد فقد هندامه وعرى رأسه، أن يغادر السفينة • وفيما هو يهبط الى الرصيف سمع ضجيج الأصوات المتوعدة ، فاستدار للمرة الأخيرة ليرى ما كان يدور على السفينة (فيجا) •

ودوى صوت رصاصة بعث الرعشة فى جسمه كله ، كأن ألهوب ســـوط قد لسع ظهره الغـــارق فى العرق • وعرف ايفجينى استفانوفتش ما حدث • واندفع يشق طريقه خلال الجمهور ، وهو يلهث ويضع منديله على وجهه الدامى • ولم يتوقف الا عندما أصبح خارج الرصيف • وحين أسند ظهره الى أحد أعمدة المصابيح وجسمه

يرتجف ، ظل يبكى مدة طويلة ، وهو يرمق أصـــابعه التى لوثت بالدم . ولم يكن ألمه عظيما ، ولكنه هول منـــه ، وراح يئن أنينا واضحا ساعده على ان يتغلب على الاشمئزاز الواهى الذى أحس به تجاه نفســـه . وكانت ذيول الجيش المتقهقر ما تزال تتخبط عبر الشـــارع الرئيسى . واستطاع ايفجينى اســـتفانوفتش أن يسمع العجيج يأتى من بعيد يشق الظلام .

ـ لتنتظروا أيها الأوغاد . قالها وهو يلتفت تجـاه الميناء ، ثم أردف : « انكم لن تفلتوا » . وكانت حالة الجنون التى جعلت منـه شجاعا ـ كانت قـد عادت الآن لتستحوذ عليه . ولـكن المجهول الذى كان يأتى من جهة المدرج ، يشق الهواء بآلاته الحديدية ، ربما كان أشـــد اثارة للفزع ... فهم ربما اقتحموا داره فى أى لحظة وضربوه ، واعتدوا على ناتاليا نيوكولايفنا ، فى حين لا يستطيع هو الا أن يستعطفهم أو يتفرج أثناء اعتدائهم عليها . وقد أدرك أنه لن يقوى على مقاومة ذلك . ألا ما أجمل أن يكون الانسان مغمورا تماما ، وما أجمل أن يعتزل مهنة القبطان !

وفى حجرة الاستقبال المصنوعة من خشب الجوز كان المصـــباح الزيتى مضيئا ، وكانت الساعة على الحائط تدق كالمعتاد ، تماما كما لو أنه لم يخرج قط من بيته .

أما أسئلة ناتاليا نيوكولايفنا فقد أجاب عنها اجابات مقتضبة موجزة . « لقد قتلوا جريف ... وأرادوا أن يقتلونى ولكننى هربت . وكذلك قتلوا أسكار كارلتش » .

ولم يستطع أن يحتمل منها نظرات الحب والاخلاص . وأثارت اللمسة الرقيقة من يديها اللدنتين عندما طوقته ، أثارت اللهيب فى روحه .

وأقام فى البيت بضعة أيام مضطجعا فى كرسى ، ونادرا ما يتحرك .

وكان قليلا ما يذهب الى الشباك ويزيح عنه الستار جانبا . وكان كل شيء في الخارج هادئا .

وذات مرة رأى جنديا في زى غير عادى ، وعلى رأسه خوذة ، وليس على كتفيه أية شارة ، ولكن كان مخيطا على صدره شريط قرمزى . وكان يقف منفرج الرجلين كالمعتد بنفسه ، يقرأ اعلانا ملصقا على الحائط . ونظر ايفجينى استفانوفتش الى الجندى والى المارة ، فوجدهم لا يلتفتون اليه بل يلكزونه بمرافقهم وهم يمرون . وفهم من ذلك أن الحرب قد انتهت ، وأن الفزع قد انتهى ، تاركا فى الناس بلادة تشبه الانهاك المستديم . ولكنه كان لا بد له أن يعيش . فقال لزوجته ذات يوم وقد احمر خجلا ، مخفيا عينيه كما لو أنه يعترف بشيء مخجل :

– أود ان أرحل من هنا – ذلك خير لنا .

وقبل أن تمر بها لحظة من التفكير أجابته قائلة :

– كما تشاء يا عزيزى . ولكن الى أين نذهب ؟

ونظرت اليه بتلك النظرة الحانية المتأنية التى لا تترك مجالا للكلام .

وقال ايفجينى استفانوفتش : «هناك مؤسسة كاسبيان للملاحة . وأعتقد أن حمولة الدورة هناك تساوى حمولتنا ضخامة . ثم ان الجو حار هناك كذلك ، وأنا أحب الحرارة .

وبدا فى الرحيل بمجرد أن ذاب الثلج وهب نسيم دافيء من البحر على الأرض . وفى باطوم ذهبا ليريا حدائق الحيوان ، واشتريا اليوسفى الملفوف فى الورق . وعاد ايفجينى استفانوفتش الى طبيعته كما كان من قبل ، وشعر بنفسه أقل شهرة وأكثر تضاؤلا . وقدم نفسه لمؤسسة كاسبيان الملاحية دون ان يحلق

ذقنه ، ومرتديا ملابسه المدنية ، وقد تدلى منظاره على أنفه ، وتطاير طرفا رباط عنقه الذى ربطه على الطريقة القديمة دون احكام ٠

ولم يستطع أن يتبين شيئا من أى كاتب ٠ وأومأ فى أسى وهو منصت الى رئيس الادارة الشاب المرح وهو يؤكد له أهمية المساهمة فى الاقتصاد الاشتراكى ٠ وأحب كل شىء : أحب رئيس الادارة وأحب ميـــاه الخليج وبريقها الذى كان جـــديدا عليه ، بل أحب وظيفته ٠

ومضت على ايفجينى استفانوفتش خمس عشرة سنة فى العمل المستقر جعلت منه شيخا بطىء الحركة ، وغرست فى نفسه عادات كثيرة ٠ وكانت الأشـــياء الجديدة التى صادفهـــا عند كل خطوة يخطوها توقعــــه فى حيرة لا يمكن التخلص منها ٠ وفى رصيف البترول أثارت فيه السفن الكبيرةذات القاع المسطححب الاستطلاع٠ لقد كانت هذه السفن ناقلات بترول ٠ وبدا له كل شىء بخصوصها غير طبيعى ، وغامضـــا ، وفى غير مكانه ٠ فكان المكان المخصص للبضاعة مقسما الى أقسام تسمى خزانات بدلا من العنابر ، وكانت الكوى فى سطح السفينة لا تزيد فى حجمها على فتحات حجرات التفتيش فى المجـــارى ، وبها فتحات للتفتيش ٠ وحين تبحـــر السفينة تغلق هـــذه الأبواب وتصبح السفينة محكمة الاغـــلاق كزجاجة الجعـــة ٠ وفى عنبر المحركات كانت هنـــاك آلات تعمل بالديزل بدلا من الآلات البخارية ٠ وكانت عجلات القيادة والدفة تدار لا بالبخار بل بالكهرباء ٠ وكان خرطوم الحرائق يندفع منه غاز أكسيد الكربون بدلا من الماء ٠ يا للعجب ! ان كل شىء قـد نظم على السفينة (فيجا) تنظيما غاية فى الحكمة ، وعلى نحو مريح٠ وكان قد اعتاد أن يسخر من القباطنة الجهلاء ، فقد كان هو الأول بين القباطنـــة الذين درسوا الآلة البخارية ، أما الآن فكان من الصعب عليه أن يدرك لماذا هم يحتاجون فى (الكاسبيان) الى السفن

ذات المحرك الآلى ، والتليفون اللاسلكى بدلا من أجهزة مورس اللاسلكية القديمة ، والروافع الكهربائية بدلا من الروافع البخارية .

وذات يوم بعد تناول الغداء ، عندما سكنت ضجة الآلات الحاسبة ، وانخفضت الأصوات الحبيسة فى قسم التسجيل حتى صارت همسا ، عندئذ أرسل جودويان رئيس خط كاسبيان فى طلب ايفجينى استفانوفتش . وفيما هو يصعد اليه وهو يمشى كما تنساب السفينة الشراعية ذات الجوانب المنحدرة الملساء ، صار نهبا للتشاؤم . أيمكن أن يكون لديه تقريرات اختلط عليه أمرها ، وأن ذلك كان قد لوحظ ؟ ووقف أمام باب المكتب وعدل من سترته .

وكان جودويان جالسا الى مكتبه ، يمعن النظر فى بعض الأوراق . وحين رفع رأسه لمع منظاره .



ـ أأنت القبطان كوتازوف ؟ اجلس أيها القبطان . ما وظيفتك ؟

وكان صوته لينا وهادئا ، وبدا رأسه صغيرا ودقيقا الى جانب رأسه فى ذلك التمثال النصفى الحجرى على المكتب . وأحس ايفجينى استفانوفتش بمعنوياته تعود اليه .

ـ اننى مفتش تسجيلات

ـ انك قبطان قديم ، أليس كذلك ؟

- أجل ٠

- وعلى أى السفن أبحرت ؟

- على سفينة الشحن (فيجا) مدة عشر سنوات ٠

- أوه ، هذه مدة طويلة ! أظن أنك قد تجاوزت الأستاذية فى هذه الوظيفة ٠

وعدل جودويان من منظاره وابتسم ٠ وكذلك ابتسم ايفجينى استفانوفتش ٠ وكان من الواضح أن رئيس خط كاسبيان للملاحة شخص لطيف ٠ واستمر جودويان يقول وهو يبتسم فى هدوء :

- انك تتقن عملك أيها القبطان ، وأظن أنك استفدت من مرانك على ركوب البحر فائدة عظيمة ٠

- كلا ، لا أظن أن لذلك فائدة كبيرة ، فالأمر هنا يختلف اختلافا تاما كما تعرف ٠ انه يحتاج الى الاحصاء ٠

- وأخذ جودويان يخرج الكلمات فى تنهد ارتيــاح ، كالمدعى الذى مهد الجو للمحاكمة ، وهو يقــول : « حسن ، فى هذه الحالة لا يكون هناك سبب لبقائك جالسا فى المكتب ٠ هذا واضح فيما أظن ٠

- وماذا ينبغى لى أن أصنع اذن ؟ ٠ قالها ايفجينى استفانوفتش فى صوت منخفض ٠ وعادت فكرة حدوث خطأ فى التقريرات تلوح فى ذهنه ٠

ونهض جودويان وضرب على الأوراق ٠

- سوف نجد لك عمــلا أيها القبطان ! ان ناقلة البــترول ديربنت تجتاز الاختبار الأخير ، وسوف تغادر حوض بناء السفن

خلال بضعة أيام . ستكون هذه وظيفة طيبة لك ، أليس كذلك ؟ انه لدينا عجزا فى القباطنة المجربين .

حدث ذلك فجأة ، حتى ان ايفجينى استفانوفتش ارتبك . لقد أدرك أنه كان ينبغى له أن يرفض دون أى تردد ، ولكن بدا أن عينى جودويان قد عقدتا لسانه .

وبدأ يقول فى توسل محاولا أن يضفى على صوته هدوء الجدية : « أعتقد أنه ربما كان من الأفضل لى أن أبقى هنا ، فليس هذا العمل ميسرا لى - كما هو واضح - فى هذه السن ... »

وتغير التعبير على وجه جودويان فجأة ، وبدت عليه السخرية ، كما لو أنه كان قد تحقق فجأة من ان الرجل الذى أمامه لم يكن هو الشخص الذى يبحث عنه .

- ألأنت تريد أن تبقى فى المكتب ؟ حسن ، كما تشاء . ونظر الى ايفجينى اســـتفانوفتش فى وهن ، ثم أردف : « ولكن ما أعرضـــه عليك شىء عظيم حقا أيها القبطان ! »

وأحس ايفجينى استفانوفتش بالخجل ، وأراد أن يقدم اعتراضا . أتراه قد أساء فى الوظيفة الصغيرة التى أسندت اليـــه ؟ ومع ذلك فقد أراد من ذلك الشاب الهمام أن يبتسم له فى ود مرة أخرى ، كما يبتسم الند لنده .

وتساءل ايفجينى استفانوفتش حبا منه فى المعرفة : « وما حمولة الديربنت ؟ » ثم تفكر فى ارتياع : « تماما كما لو كنت علىاستعداد للقبول » .

وابتسم جودويان .

- ثمانية آلاف طن . ألا تكفى بالنسبة لك ؟

- لا ، ليس الأمر كذلك ، ولكنى ... حسن ، لا بد أن أعرف .
بهذا أجاب ايفجينى استفانوفتش وقد تكلف ابتسامة . وأحس للمرة الأخيرة بانتفاضة فى قلبه ، وقد تحقق من أنه كان يقول تماما ما كان ينبغى ألا يقوله ، ولـكن جودويان نهض ومد يده وصافحه فى ابتهاج عجيب .

وقال فى مرح : « اذن فقد اتفقنا ! حسن ، أرجو لك النجاح . إن شخصا غيرك كان من الممكن أن يطير فرحا لهذا العرض ، أما أنت ... حسن أيها القبطان !!

وابتسم ايفجينى استفانوفتش وهو يمسح العرق عن جبينه . وتضاءلت الحجرة الهادئة فى قسم التسجيلات ، وكذلك التقريرات والشخوص ، تضاءلت وهى تبتعد كما لو أن الرياح الطليقة العنيفة التى كانت تعصف فى أذنيه قد أطارتها من ذهنه .

- ٢ -

كان الرجل قد قام بالأسفار مدة طويلة ، ودفعه ما فيها من عنت الى أن يتعرف فى القطار على الناس . وقد قدم ذات مرة الى سيده شابة فى الديوان المجاور له طاقة زهر ، وساعدها على تنظيم أمتعتها على الرف .

ـ انني أحب الأسفار . هكذا قال لها فى نغمة طبيعية بسيطة . وأردف : « ففى ذلك يبدو أنك تقومين فى نفس الوقت بشيء مفيد ، انك تقتربين من غايتك . ونتيجة لذلك يزداد عقلك وعيا ، ويظهر اهتمامك بالناس . وان الانسان ليصبح أكثر ألفة بالناس خلال الرحلة . انظرى مثلا اليك والى ، فنحن لم نكن يعرف الواحد منا الآخر منذ ساعة ، والآن أنت تنصتين الى كما لو كنت أحد معارفك القدماء . ولكن لو فرضنا أننى تحدثت اليك فى الطريق ـ اذن لضقت بى ذرعا . وبهذه المناسبة أظن الوقت قد حان لكى يقدم بعضنا نفسه للآخر . اننى كازاتسكى ، ضابط بحرى .

وكانا يقفان عند نافذة العربة المكشوفة ، وكانت حاملات العيار فى حقول البترول قد ظهرت فى الأفق ، ولمع البحر على بعد كمعدن الصلب . وأدار الضابط البحار كازاتسكى وجهه فى أدب عندما نفث دخان سيجارته حتى لا يصطدم الدخان بوجه الفتاة ، فنظرت اليه فى استطلاع وخوف . أما الاستطلاع فلأن حركاته كانت ـ كالتعبيرات التى استخدمها ـ سريعة وغير متوقعة ، ثم لأنها لم تستطع أن تقدر عمره على وجه التقريب ، وأما الخوف فلأنه يحملق فيها أحيانا عن قصد كما لو أنه كان يتفحصها . وقد أحست أن عينيه

حتى عندما نظر من النافذة كانتا ما تزالان تقعان عليها ، ترصدان كل حركة لها ·

ـ لقد طفت بنصف العالم ، وقضيت شطرا كبيرا من حياتى على لسفن · ان أفكار البحار ترتبط دائما بالميناء التى يقصد اليها ، نهناك تبدأ صفحة جديدة فى حياته · وماذا يمكن أن يكون أروع من قضاء ليلة فى ميناء جنوبى ؟ انك تبحرين داخل الميناء وأنوار الرصيف من حولك وقريبة منك ، تنعكس على الماء ، وتسطع فى أعماق البحر كأعمدة من نور · وتنزلق السفينة نحو الرصيف ، وتسمعين الأصوات التى تتحدث بلغة غريبة ، وترين أشـــباحا خيالية من الأبنية ومجموعات الأشجار لم تسبق لك رؤيتهـــا · وعندئذ يطيب لك أن تثبى توا الى قلب المدينة ، حيث تقضين ليلة واحدة فقط · ومن أجل أنه لا يسمح لك بقضاء أكثر من ليلة فانك تشعرين كما لو أنك قد ولدت لتوك ، وأن تلك المدينة المجهولة لعبة رائعــة فى يديك · أؤكد لك أنها تجربة ممتازة ، لا شىء فيها سوى الفضول وخفة الروح ·



وقالت الفتاة : « أجل ، لابد أن تكون لطيفــة » · وأغمضت عينيها ، ومرت بلســـانها على شفتيها المتلئتين ، وأردفت : « أخبرنى عن شىء آخر · انك لست شـــاعرا على أى حال ، أليس كذلك ؟ » ·

وخلع كازاتسكى قبعته ومر بأصابعه الطويلة خلال شعره ·

وقد لاحظت فى دهشة أن شعره كان رماديا على نحو واضح

ـ لقد اعتدت أن أكتب الشعر عندما كنت صغيرا ، ولكننى كففت عن ذلك . قالها فى ضحكة مرح ، وأردف : « لقد انتقدت نفسى ولم أرض عنه فاعتزلته كما اعتزلت أشـــياء أخرى كثيرة لا تستحق الذكر . أتحبين الشعر ؟

ـ أجل أحبه ، ولكن استمر من فضلك ، فأنت عائد الى البحر ، وأنا أحسدك .

ـ لا داعى للحسد ، فحياتنا فيها الحلو وفيها المر ، ككل حيـــاة أخرى . وأنا الآن فى طريقى الى الشطر الحلو ، وهو كذلك لا يخلو من قذارة . اننى ذاهب الى الكاسبيان لكى أبحر على ناقلة الزيت . والكاسبيان بحر داخلى ، ليست به مدن غريبة ، ولا أحداث جديدة، وهو شديد الحرارة . أما الشاطىء فصحراوى ، وأما السفينة فنار. وقد عينت على الديربنت، وهى واحدة من مجموعة جديدة من ناقلات الزيت، تصورى ،انهاصهاريجعائمةهائلة، انها نوعمنالفنادقالبحرية الرخيصة . وهم يسمونها كذلك لأن البحارة لا يقيمون عليهـــا طويلا ، فهم يبحثون عن كل أنواع الحجج لكى يتركوها . وانه لمن الصعب أن يرتاح الانسان الى الرتابة المميتة ، فالأمور هى نفسها تتكرر وتتكرر ، والواجباتمحددة ومحفوظة نتيجة لتكرارها كاللعبة الثقيلة الظل ، ثم ان فترات الاستراحة قصيرة ، فهى ثلاث ساعات فى الميناء الداخلى لعملية الشحن ، فأنت لا تعرفين ما تحسديننى عليه » .

ـ يا لك من انسان بائس . قالتها الفتاة فى تعاطف ، وأردفت :

ـ وبعد ذلك تحب الأسفار البعيدة . ولكن لماذا أنت ذاهب الى هناك ؟

تمر فى حديثه يقول بصـــوت حزين كما لو انه لم يسمع

سؤالها : « أجل ، سيكون الأمر شاقا على تلك السفينة . فالناس على الأرض تشغلهم الأحداث ، وكل يوم جديد يحمل اليهم ، كائنين من كانوا ، شيئا من الطرافة . أما أنا فلن أجـــد سوى الاذاعة . وقد أجد صحيفة عرضا . ولكن ربما كان هناك نوع من المفاجأة كذلك قد خبىء لى ، فمنذ عهد قريب احترقت الحاملة بارتيزان فى مياه الكاســـبيان . هل سمعت بذلك ؟ ان مثل هذه الأشـــياء يحدث ... »

وكان يتحدث فى بطء ، وعيناه نصف مغمضتين ، ووجهه حزين . وتنهدت الفتاة :

- لا تكن كئيبا هكذا ، قالتها وهى تربت على يده فى مودة . وارتفعت معنويات كازاتسكى فى الحال .

- لقد كنت أحاول مجرد رسم صورة لمستقبل حياتى . وفى أيام العطلة الكبيرة ستقف السفينة فى الميناء الداخلى ، وستطول مدة الاقامة نصف ساعة أو نحو ذلك ، وسوف يكون هناك نساء أكثر من المعتاد ، ولكل منهن ما يشغل بالها ، فهناك الأزواج والآباء أو الاخوة الذين يرونهم لمدة لا تزيد على ثلاث ساعات كل خمسة أيام . ولكن لن يكون هناك أحد فى انتظارى ، فأنا وحيد . وصمت هنيهة، وأردف : « وحيد فى العالم الفسيح . آسف ، هل ضايقتك ؟ »

فأجابت : « كلا ، مطلقا . انظر ، ان الشمس تغيب ! »

كانت الشمس تغرق خلف التلال البنية ، ومن فوقها انعقدت السحب قرمزية اللون . واستندت الفتاة على اطار النافذة، وتلاعبت الرياح بشعرها . ونظر اليها الضابط البحرى من زاوية عينيه ، عن قصد ، نظرة فاحصة .

وعاد يقول : « ان رجل الطريق غريب ، فهو لا يكف عن الحلـ

وفى البحر سوف أحلم كذلك ، سوف أحلم بالأرض كما لو أن انسانا ينتظرنى هناك »

ومن الديوان الذى كانت تجلس فيه الفتاة جاء صــــوت ضربات الدومينو والضحك الصاخب . ولاح شاب أسود الوجه ، وصاح : « يا زينيا ، هلمى.اشتركى معنا ، اننا نلهو ! »

فأجابت الفتاة فى ضيق :

– لا ، لست أرغب فى ذلك ، العبوا أنتم !

وقال كازاتسكى مسرعا :

– أيمكن أن نذهب لنشرب شيئا ؟ ان الجو شديد الحرارة هنا .

واجتــازا بضع عربات دون أن يتحدثا . وقد سندها وهمـــا يجتازان المصــد بين كل عربة وأخرى ، ممسكا بذراعهــا من فوق الكوع فى احكام . وحين وصلا الى عربة الاكل طلب نبيذا وسجاير . وشربت هى كأسا فى هدوء . وسألها من تكون ، فابتسمت :

– اننى طالبة فى معهد من معاهد الزيت ، والحقيقة أننى أصبحت مهندسة .

وغيم فى وجهه شىء يشبه اختلاجة الجزع . وبدا كأنه يجمع أفكاره لبضع دقائق .

وقال : « الأصول الفنية ، كم تغير من وجه المهنة وروحها . خذى مهنتى مثلا ، مهنة الملاحة . لقد اخترع الناس الشراع منذ العصر البرنزى ، ولا بد أنه كان يصنع من جلد المعز ويشد الى قطعة خشب تشبه الصليب . هؤلاء الرجال كانوا بحارة شجعانا : فقد كانت صـــــناعتهم خطرة ، ومن المحتمل أنهــا كانت تجتذب اهتمامهم . وتقدمت الملاحة ألف ســـنة ، ولكن الشراع ظل كمـــ

عو . يعتمد على مشيئة الريح . وتصارع الانســـان مع الطبيعة . وكان البحر بالنسبة له شـــيئا غامضا مخيفا . ومنه كان غذاؤه ، ومنه خرجت له الكنوز ، ولكنه كان يفتك به أحيانا . وقد كانت حياة البحار دائما مغلفة بضباب المغـامرات الرومنتيكية . ثم جاء (فلتن) وهو مهندس أمريكى ، ووضع آلة بخارية فى سفينة ذات شراعين . عندئذ بدأت السفن تبحر ضد الريح . ولكنها ظلت الى ذلك الوقت لا يمكن المغامرة بها ، كما كانت بطيئة كالسلحفاة . وكان اللولب يشبه شيئا كلولب الزجاجات . وكان من المسلم به أن شيئا فى مثل طوله يمكن أن يشق أعماق الماء ، ويدفع السفينة دفعا أفضل .

ـ وذات يوم حدث حادث ، فقد تطايرت أجزاء من سن اللولب . وحدث ذلك فى عرض البحر ، ولم يكن من المستطاع اصلاح التلف . وكان لا بد من اكمـــال الرحلة بالجزء الباقى من اللولب . عندئذ تضاعفت سرعة السفينة ، وكانت هذه هى الطريقة التى ظهرت بها اللوالب المفلطحة . وهكذا تضعضع جبروت البحر شيئا فشيئا . وباختراع الاتصـــــال اللاسلكى زال الغموض المحيط بالســـفن الغارقة . ويكفى ان تنظرى الى ناقلات الزيت عندنا الآن . فالانسان لا يستطيع أن يسميها سفنا ، ومن الأفضل تسميتها مصــــانع سريعـــة . ولا يمكن لريح شديدة أو زوبعة هوجاء ان تغرقهـــا ، فاغراقها يحتاج الى كارثة جوية محققة . وهى مجهزة لا بالبحارة والقباطنة والملاحين بل بالعمال والخبراء الفنيين والمهندسين . لقد مضى قرابة مائة عام منذ عهد فلتن ، ومنذ ذلك فقد البحر سلطانه على الانسان . هكذا الحياة !

وشرب كازاتسكى بعض النبيذ ، ولمعت عيناه ، ورأى أن الفتاة كانت تنصت فى اســـتغراق لكل كلمة قالها . وقـــد كان على وعى بسحر كلماته الدقيقة الرقيقة . وكشر عندما تذكر الشاب ذا الوجه

الأسود الذى كان فى ديوان الفتاة . وقال فى نفسه : « انه من التتار فيما يبدو »

- ان أصدقاءك ينتظرونك ، قالها فجأة ، ثم أردف : « ألا تريدين العودة ؟

وهزت رأسها .

- كلا ، بل استمر . لقد كنت تتكلم عن روح مهنتك . أتراها تغيرت ؟ ترى هل اختفى الجانب الرومنسى منها ؟

- أجل ، لقد ابتدع البحارة فن الملاحة أول الأمر ، فعاشوا على البحر ، وأحبوه ، وربما لقوا حتفهم فوقه آخر الأمر . ولكن المهندس الألمانى (ديزل) لم يبحر فى وقت ما الا فى مقصورة من الدرجة الأولى لا بغيرها من الطرق . وهذا لا يمنع آلات الديزل فى الديربنت من ان تسير بسرعة حوالى ثلاثين ميلا فى أقصى سرعتها . ان نماذج السفن يجرى عليها الاختبار الآن فى منحدرات خاصة تعد فى المعامل . وهناك تجرى تيارات وصور مصغرة من الأمواج صناعيا . وربما لم ير الناس الذين فى المعمل مطلقا عاصفة حقيقية ، ولم يصطرعوا مع واحدة ، ولم يحسوا بلفحاتها ، ومع ذلك فان السفن التى يصممونها تستطيع أن تواجه العواصف . ان رومنسية البحر الآن ترتبط بزوارق الصيادين الصغيرة ، ولا يستمتع بها سوى السياح القادمين من المدن الداخلية . شيء مؤسف حقا !

واحتسى بقية النبيذ ودفع بالكأس جانبا

- ولكننى لا أتفق معك . قالتها الفتاة فجأة ، ثم أردفت : « فالناس يتحملون عملا شاقا لا يشكرون عليه عندما يبحرون فى الزوارق . انهم تحت رحمة البحر ، فاذا ما عادوا سالمين الى البر

أحسوا بأنهم محظوظون . وهذه هي كل قصتهم فيما أظن . ويا لها من حياة قاسية مملة ، تلك التي تحتمل من أجل لحظة متعة ! اننى أفضل الرومنسية المثمرة . فالغواصون يخرجون السفن من قاع البحر الى السطح ، ومهشموا الثلج يشقون الطريق الى المنطقـــة المتجمدة الشمالية . هذه هي الحياة ! والشيء الرئيسى هو أنه ليست لامكانيات الانسان حدود . فهو اليوم فى قاع البحر وغدا فى قاع المحيط أو فى القطب الشمالى . وربما كان من حظى أنا أن أصنع هذا ، وربما كنت أنت ، من يدرى . أجل ، ان الصراع مع الطبيعة قد بدأ لتوه . وما أكثر الانتصارات التى يحملها لنا المستقبل ! لقد أعجبت بحديثك عن اللوالب ، ولكنك عدت فأفسدت كل شيء» وختمت حديثها وعلى وجهها تكشيرة ودية .

وأحنى كازاتسكى رأسه

وقال فى هدوء : « انك على صواب . فأنا بحار فظ جاهل ، ولا شي سوى ذلك » .

ـ لا ، لست كذلك . انك شديد الحساسية بالتأكيد ، ولـكنك لا ترى المغامرة حيث ينبغى أن تراها » .

وصمتا برهة ، ثم نظرا أحدهما الى الآخر وضحكا .

وفى ديوان الفتاة كان دور الدومينو ما يزال مستمرا ، وكان الشاب ذو الوجه الأسود يضرب بقوة على المقعد كلما أنزل حجرا من حجارة الدومينو . وكانت الضربات تدوى فى الأذن كأنها رصاص .

ـ لا تحدث هذه الضجة يا حسين ـ قالها فى هدوء رجل مسن لطيف كان قد صف حجارته أمامه كالحائط . وأردف : « ربما كان هناك من ينام فى الديوان المجاور . ثم انك ... »

ـ اننى لا أستطيع أن أرى شيئا . قالها الشاب الأسود ، وهو

يدفع بحجارة الدومنو ليخلط بينها . وأردف : « لقـــد أظلمت الدنيا ، وأنا متعب » .

ونهض ، وبصق من النافذة ، وعاد فجلس .

وقال وهو يهم بجسمه الى أمام :

ـ يبدو أنك طبيبٌ ، أليس كذلك ؟

ـ حسن ، لنفرض أننى طبيب .

ـ قل لى أيها الطبيب ما الشراب ؟

ـ الشراب ؟ ماذا تعنى ؟ أتعنى التسمم الكحولى ؟

ـ كما تشاء ، فالأمر لا يختلف ، ولكن ما هو ؟ أهو مرض أم ماذا ؟

ومر الطبيب بيده على لحيته

ـ انه مرض بالتأكيد ، فالادمان على الكحول يلازمه دائما تسمم الأنسجة وفسادها . انه مرض خطير . ثم لاحظ أنه وراثى .

ـ وكيف يمكن الشفاء من هذا الداء ؟

ـ لسوء الحظ أنه ليس هناك سوى علاج واحد مؤكد ـ قالها الطبيب مبتسما ، وأردف : وهذا العلاج هو الكف عن الشرب .

ـ ياله من علاج لطيف !

ومد الشاب رجليه ، واستند الى الحائط ، ولاذ بالصمت . وظل يدخن سيجارته الى طرفها ، حتى انهـــا بدت فى الظلام كالفحمة المتقدة بين أسنانه .

وسأله الطبيب : « أأفهم من ذلك أنك مدمن الخمر ؟ »

ـ حسن ، لنفترض أننى كذلك .

ـ أقلع عنها يا حسين ! يجب عليك هذا .

- لا تقلق بالك ...

وظلا صامتين . وبعد برهة أخرج الطبيب سلة طعامه ، ونشر على ركبتيه صحيفة فى عناية ، وأخرج خبزا وبيضا مسلوقا ودجاجة . واصطدمت أصابعه بزجاجة فودكا ، ولكنه انتشل يده وأغلق السلة سريعا .

- انها طائر بديع . قالها وهو يمضغ قطعـــة من الدجاجة . وأردف : ألا تأخذ منها ؟

- كلا ، أشكرك . اسمع أيها الطبيب .

- ماذا ؟

- أيمكن أن يقدم شاب للمحاكمة لأنه مريض ؟

- لست أفهمك

- ان المســـألة بسيطة جدا . لنفرض أنك مدمن الخمــــر ، أو - لكى نستخدم تعبيرك - لنقل إنك مريض بالتسمم الكحولى ، وانك تغيبت عن عملك مرتين أو ثلاثا ، ومن أجل هذا اســـتدعيت الى مجلس تأديب حيث يجلس أحد المدعين الى منضدة قد غطيت بقماش أحمر ، وما يتبع ذلك . أهذا صواب ؟ .

- بطبيعة الحال صواب . أعنى بصفة عامة . فأنت ترى يا حسين أننا نسمى التسمم الكحولى مرضا ، بمعنى أنه تصاحبـــه ظواهر مرضية ، كتسمم الجسم وما أشبه . ولكن التخلص من ذلك والاقلاع عن الشرب يعتمد عليك . فاذا أنت لم تفعل ، واذا أنت خرجت عن النظام الى المماكسة ، فانك تحاكم . تحاكم لا لأنك مريض بل لأنك تفقد الرغبة فى الاقلاع عن الشرب . أتفهم ؟

- تماما !

- انك عضو فى جماعة يا حسين ، وفقدان العزيمة الصادقة فى

الجماعة غالبا ما يعادل الجريمة . فأنت لم تصنع ما كان ينبغى لك أن تصنع ، وجريمتك هى - على العموم - جريمة سلبية ، ولكنها جريمة ككل جريمة .

- كفى ، فهذا واضح جدا .

- هل قدمت للمحاكمة لشىء من هذا ؟

- ربما

- لأى سبب ؟

- لهذا السبب نفسه .

ونهض حسين ، وسد النافذة بجسمه الضخم ، فأظلم الجو فى الديوان .

وقال فى صوت هادىء : « لقد صدر ضدى حكم قاس ، فقد استبعدت من الخط الملاحى (ى. س.) وطردت من سفينتى ،فماذا أنا الآن ؟ موصوم بالعار لا يصلح لشىء ؟

- لا تقل هراء . قالها الطبيب فى تجهم ، وأردف : وكيف حدث ذلك ؟

- بمنتهى البساطة . فعلى هذا النحو يقع الحادث لى أيها الطبيب. فأنا أعمل لمدة شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة أشهر ، وأقرر أن انسى رائحتها القوية ، أعنى الفودكا . فأنا أعرف أنها جانبى الضعيف ، وأقول : لا بد من الاقلاع عنها . ومع ذلك فهو فى دمى ، أعنى المرض . انه هناك ينتظر اللحظة التى أضعف فيها ولا أستطيع أن أكبح نفسى . وهذا هو السبب فى أننى تمر بى أوقات أضيق فيها بنفسى ويبدو لى أن الآخرين على استعداد لأن ينقضوا على كذلك . وهناك دائما بطبيعة الحال مضايقات فى الصداقة كما فى العمل . وعندئذ أهاجم الناس . وهذا كله يبعث الضيق واليأس .

ـ ان المسألة ترجع الى أعصابك . ولكن من أجل ماذا حوكمت ؟

ـ فلتنصت . اننى ـ كما تعلم ـ أعمل على محرك السفينة ، والآلة فى السفينة هى أهم شىء ، وأنا رجل قدير . وقد عرفت الآلة نتيجة للمران ، للتجربة ، للعادة ، لا كمهندس السفينة . فهو يبدأ بالدراسة ، ويعرف الآلة من الكتاب ثم يبدأ تدريبه . وكم بودى أن أصل الى أعماق كل شىء أنا أيضـــا ، ولكن كيف السبيل ؟ ان المهندس يقول : اصنع هذا ، ولكن التنفيذ متروك لى . وقد بدأت أضايقه بالأسئلة : ما فائدة هذا ؟ وما سبب ذلك ؟ ولكنه أسكتنى بقوله : قم بعملك ولا تتحدث كثيرا . انه لا يريدنى أن أعرف لأنه هو يعرف ويعتمد على نفسه . ولكن ذلك أثار حفيظتى . لماذا تراه يحتفظ لنفسه بهذه المعرفة ؟ يبدو لى أننى أستطيع أن أفهم مثله تماما . وحين كنا فى الميناء تشاجرنا . وعندئذ جاءت تلك اللحظة ، أو بعبارة موجزة ، الحـــاجة الى الشراب . وعلى التـــو استغرقت فى السكر .

ـ ألم تعد الى سفينتك ؟

ـ كلا ، فعندما دخلت تلك الحانة سكرت فى لحظة ، وجعلت من نفسى حيوانا . اننى حين أسكر لا أكون لطيفا ، فليس يهمنى اذا شتمت انسانا . والى جانب ذلك فأنا ـ كما ترى ـ قوى البنية . وقد حاول رفاقى أن يستفزونى فكان ذلك سببا فى بدء المشاجرة . ان مجرد التفكير فى ذلك يؤذى نفسى .

ـ هل أصبت شخصا منهم ؟

ـ أجل ، لقد صنعت ذلك . وحوكمت فيما بعد عندما عادت السفينة . فقد اجتمع البحارة جميعا فى حجرة الطعام ، وأجلسونى بمفردى تبعا للعادة . وكان المساعد السياسى هو المدعى . قال : (ان هذا الرجل يجلب الماء الى طاحون أعداء طبقتنا) أنا ، تصور !

وتحدث مدة طويلة ، ولكن حديثه لم يجعلنى أشعر مطلقا بالعار . بل لقد جعلنى أكثر اعتدادا . ورفضت أن أدافع عن نفسى بشىء . ولكننى الآن فقط قد بدأت أشعر بالعار .

ـ ولكن لماذا الآن ؟

ـ ان السبب قد شرحته أنت على نحو ما . أنت ، يالك من رجل بسيط ! لقد أنصفت فخذ الدجاجة ، وشرحت السبب شرحا طيبا !

ـ يالك من فتى غريب ! ـ قالها الطبيب مبتسما ، وأردف : أيمكننى أن أسألك الى أين أنت ذاهب الآن ؟

ـ لقد أرسلنى قسم المستخدمين الى السفينة الآلية ديربنت ، فهم يعتقدون أن التغيير يساعدنى على الاقلاع عن الشرب . وقد وعدت بذلك . ماذا أصنع ..؟

ـ يجب عليك أن تكف نهائيا ـ قالها الطبيب وهو يزدرد ريقه ، وأردف : يجب عليك أن تتحكم فى نفسك .

ـ حسبك هذا ، فقد كانت طريقة شرحك للمسألة الآن لطيفة ، ولا يمكن أن تكون أحسن من ذلك ـ حسبك .

وأضاء النور فوقهما ، ووقف حسين فى وسط الديوان ويداه خلف ظهره . وكان حزينا ، وكان يبدو كأنه مستغرق فى شىء .

وتساءل : أين ذهبت زينيا ؟ أما زالت مع ذلك الرجل الأهيف ؟

وسأله الطبيب فى رفق : أأنت تحبها ؟

ولم يجب حسين ، وأحنى رأسه ، وخرج الى الممر .

وكان القطار يقترب من المحطة ، وكانت الأنوار على عيارات الزيت تتلألأ فى السماء الحالكة كأنها نجوم صفراء هائلة . وأسرعت

زينيا عبر الممر وهى تصلح من شعرها · وحين رأت حسينا توقفت والتفتت الى نافذة مفتوحة · ورآها تمسح عينيها بمنديلها ، فذهب اليها ووقف بجانبها ·

وقال فى خشونة : دعينا ننظر اليك يا زينيا · هل حدث لك شىء ؟

ـ دعنى وحدى ·.قالتها فى صوت منخفض ، وأردفت : اننى على ما يرام ، ولست أريد أحدا أن يلاحظ ···

وأمسك حسين بيدها ·

فقال : « لن يراك أحد ، فالمكان هنا مظلم · هل تجاوز الحدود ؟ أجيبى ·

ـ لا شىء ـ قالتها وهى تطوح بأنفها فى قســـوة · وأردفت : ياله من مخادع ! ولكن أرجوك ألا تقول شيئا ·

ـ لقد ناديتك من قبل ولكنك لم تقبلى · قالها فى لهجة تأنيب ، وأردف : « وأين هو الآن ؟

ـ عند نهاية الممر · ولكن لا تفكر فى أن تقول له شيئا ·

فقال حسين : لن أقول شيئا · وأخرج قطعة نحاس ذات خمس أصابع (بونية) من جيبه وجعلها فى كفه · أتعرفين دورك ؟ أن تعودى الى ديوانك كما لو أن شيئا لم يحدث · أتفهمين ؟

وحملقت فيه

ـ علام أنت مقدم ···؟

فقال فى صوت منخفض مغيظ : سأضربه ضربة قاضية تطرحه كالفطيرة · هذا كل ما فى الامر ·

ـ انك أحمق ·

ـ كلا ، مطلقا ·

وتعلقت بكمه ، وهمست فى يأس : اياك ، اياك أن تفعل ؛ أرجوك ، سوف أصرخ اذا أنت ...

وسألها حسين فى اندهاش : ماذا يثيرك ؟ اذا كنت تريدين ألا أمسه فلن أمسه . ولكن لن يكون فى الأمر أى سوء .

ـ كلا ، كلا ، أتوسل اليك ألا تفعل مهما يكن عمله حيوانيا ، فقد كدت أضربه أنا بنفسى . وهزت كتفيها هزة استهجان .

ـ من المؤسف أنك لم تضربيه .

ـ كلا ، اننى الآن سعيدة لأننى احتفظت بهدوئى . لقد خلصت نفسى ومضيت الى هنا . واقتربت منه وقالت فى لهجة اطمئنان : لقد كنت الآن خائفة منك أكثر منه ، فلكم كنتَ تبدو همجيا . ولكن لا تذهب ، فربما جاء .

ونظر اليها حسين من زاوية عينه نظرة طويلة وجعل قطعة النحاس ذات الأصابع الخمسة فى يده دون وعى منه . ووقفت تراقبه .

وأخيرا قالت : ما حاجتك الى هذه النحاسة ؟

ـ هذه ؟ . وفتح حسين يده ، ثم ضم قبضته على الفور ، ودسها فى جيبه . وأردف : انها مجرد (بونية) عادية .

ـ أدرك هذا . قالتها زينيا فى ضحكة فاترة .

وأخذ يشرح لها فى تردد فقال : ان لكزتك بها تكون أقوى

وحملقت الفتاة فى دهشة ، وانفجرت فجأة فى الضحك . والتفتت نحو الشباك وغطت وجهها بيديها . وعندما انتهى ضحكها تنهدت وعضت شفتها .

ـ معذرة . قالتها هامسة ، محاولة أن تكتم ابتهاجها . وأردفت : ولكن يالك من منشار لا أمل فيه !

واستعادت حديثها فى الحال وقالت فى حرارة :

على كل حال فأنا شـاكرة لك ، فأنت شخص لطيف ، وسوف نخرج الآن معا ، وتستطيع أن تساعدني في حمل أمتعتي . ما أبدع أن يعرف الواحد منا الآخر ! ومن الممكن أن نلتقي في مكان ما خلال بضعة أيام . أتوافق ؟

– أجل . بهذا تمتم حسين . وأطلق يده في حرص والتفت حوله. وأردف : هناك شخص يقبل .

وجاء كازاتسكي عبر الممر وهو يصفر في رقة . وبدا في الضوء الكهربي أصغر من سنه وأكثر رشاقة . ومر يدق بكعبه في خطوات متزنة في احكام ، وكتفاه منتصبتان . وحين مر بحسين صوب الى عينيه نظرة بريئة تنبيء عن سـلامة النية وكأنه يقول : انني لم أنجح . وأنت تحاول الآن ، فلا تضيع وقتك أيها الفتى !

– ان له فما وقحا خبيثا – قالها حسـين وهو يتبعه بعينيه ، وأردف : « ترى أي نوع من الرجال هو ؟ »

وأسرع القطار بين صفوف طويلة من عربات البضاعة ، وعجـلاته تقصف فوق التحويلات . ولاحت من النوافذ خيوط من الضوء ، ومداخن معامل التكرير وقد انعقد الدخان حـول قممها . وجلس كازاتسكي فوق حقيبة سفره الصغيرة عند باب العربة .

– مدرجات ، وحرارة ، ودخان . كان هذا ما قاله للكمساري . وأردف : « أين جنتكم المزهرة ؟ يكفي أن تنظر الى هذه المدينـة المليئة بالدخان . الغربة ! يا لهذا من غش مفضوح !

ويبدو أن صمت الكمساري الكئيب قد سره ، فقد راح يحدج المارة بنظرات طروب .

ونظرت اليه زينيا خلسة وهمست الى حسين :

– ان الرجل لا يحس بأدنى قدر من الخجل ، فقد اكتفى بأن نظر الى وابتسم . انني – كما ترى – خائفة منه ..

وفى الليل ، عندما ألقت ناقلة البترول الجديدة ديربنت مراسيها للمرة الأولى فى ميناء البترول ، وحيث نام قبطانها الجديد ايفجينى استفانوفتش كوتازوف للمرة الأخيرة فى بيته ، خرج بازوف كبير المهندسين الذى عين حديثا على الديربنت يتجول دون هـدف على ساحل البحر حتى الفجر .

وكان يبدو من مظهره أنه أسوأ من يفسده الشراب ، كما أنه كان كئيب المزاج . وهو أحيانا ربما ذهب الى الماء وأشعل سيجارة ، وأحيانا أخرى يجلس على مقعد ويحملق مدة طويلة فى النجـــوم المتلألئة بين فروع شجر الأكاسيا .

وقبل بزوغ النهار عندما اختفت الأنوار فى الرصيف ، وغرق القمر فى البحر ، استند الى حاجز البحر ، وبصق من بين أسنانه على الأمواج المصطفة .

ـ ان حياتى هباء . قالها فى صوت منخفض . وأردف : انها فاشلة ، وأنا نفسى فاشل .

وبحث فى ذاكرته كيما يعيد الى الحاضر أجزاء من الماضى باحثـا فى جد عن سبب تعاسته . وتفكر فى النـــاس الذين كانت له أهمية عندهم ، والذين هجروه جميعا . وكان من الصعب عليه أن يوافق على فكرة أنهم جميعا يعيشون فى مكان ما بتلك المدينة ، ومع

ذلك فلم يكن هناك مكان يذهب اليه ، وكان مضطرا لأن يقتل الليل فى النزهة .

هناك مثلا جاكوب نيومان المهندس . وما أكثر ما كان يبتسم خلال الأيام الأولى لتعارفهما فى معامل التكرير . لقد كان مرحا عندئذ ، مورد الوجنتين ، طلق اللسان ، وكان صوته يرن كالناقوس فى مراسى السفن .

ولقد تصادقا خلال فترة الترميمات الشتوية ، وكان الموقف فى معامل التكرير فى ذلك الشتاء مفزعا ، فقد كانت السفن تأتى للترميم زرافات ، وتشغل المراسى ، وكانت ورش الترميم تعمل ثلاث نوبات فى اليوم . وكان يمكنك أن ترى هنا وهناك على الأرصفة والطرق المؤدية اليها قباطنة وضباطا بحريين ومهندسى سفن ، وهم يقدمون للمهندسين المجهدين السجاير ، ويحرضونهم على أن يقدموا دورهم فى الترتيب .

وكانت فرقة بازوف قد أسند اليها مهمة اصلاح آلات ناقلة بترول ضخمة ، وعندما انطلقت الصفارة اجتمعت الفرقة على سطح السفينة ، ينتظرون مهندس معامل البترول نيومان الذى كان قد تأخر . وكان مهندس ناقلة البترول يذرع السفينة ذهابا وجيئة ، وكان نظره يقع عرضا على المرسى . وكان فى استطاعة بازوف أن يرى أنه كان حانقا على نيومان لاضطرار ناقلة البترول للبقاء عاطلة ، وكان على استعداد لأن ينقل حنقه اليه ، أى الى بازوف .

كان ذلك قبل أن يظهر نيومان على السفينة بساعتين . وقد صعد السقالة فى خور وجلس على أحد العمدان التى تربط منها السفينة .

وانحنى بازوف وحملق فى وجهه

ـ انك مريض ، ولست تقدر على العمل ـ قالها فى نغمة قلق ،

وأردف : أجل ، ان شفتيك شاحبتان تماما • وليس لدى رجالى ما يصنعونه ، فماذا نصنع ؟

وأنصت الى تنفس نيومان العميق • وقد كان مشوقا لأن يتحمل المسئولية ، لو أنه استطاع أن يبدأ العمل فى الحال •

وقال فى عجل : « سأقوم بتنفيذ الأمر ، وسيكون كل شىء على ما يرام • انك لا تحتاج الى عبقرية من أجل هذه المهمة » •

وعبثا حاول المهندس أن يفتح جفنيه الملتهبين •

ـ أحقا ستفعل ؟ ودون أن تستغرق وقتا طويلا ، أيهـــا الفتى البارع ؟ ونظر الى بازوف الذى كان يقف أمامه نظرة مبهمة وقــد تنازعه الشك والأمل • وأردف : انك كما تعلم لم تقض فى هذه المهنة وقتـــا طويلا • وبعد فترة صمت كان من الواضح أنه لم يستطيع خلالها أن يجد طريقة أخرى قال : « حسن ، لا بأس » ثم مضى :

ونزلت الفرقة الى عنبر المحـــركات • وبينما كان القائمـــون بالاصـــلاح ينزعون الأجزاء الفاسدة وجــد بازوف وقتا كافيا لأن يسرع الى رفاس يقف فى حالة اصلاح فى المرسى المجاور • وهناك وجد برونيكوف كذلك ينتظر نيومان •

فقال له : « ان نيومان مريض • ألديك تقرير عن عطب ؟ اذن فاكشف عن المحرك ، فسوف نحاول نحن أنفسنا القيام بالاصلاحات

وحملق فيه برونيكوف فى دهشة •

وقال : « لا بد أنك قد فقدت صوابك ! أأنا آخذ مكان المهندس ؟ كيف تنتظر منى مطلقا ان أصنع هذا ؟ »

ـ ولكن الاصلاحات يجب ألا تتوقف • قالها بازوف فى ضجر •

وأردف : يا بليمى ، فكر فى الأمر ، ولا تكن جبانا هكذا يا برونى !

وفيما هو فى طريقه عائدا الى الديربنت استطاع أن يرى برونيكوف وهو يطوف بالميناء ليجمع البرادين . وقد أدرك أنه كان عليه أن يصدر الأمر هو بنفسه ، ولكنه خشى أن يقع برونيكوف فى حيرة ، لأنه كان يبدو خائفا ، ولأن ما كان لديه من الرجال قليل .

وبعد أن نزعت الأجزاء التالفة ذهب بازوف الى القسم الفنى . ولكن تصادف أن كان كل الرسامين منهمكين فى الشغل ، ولم يكن هناك من يضع التصميمات .

ـ كلا ، ليس لدى أحد . قالها رئيس القسم بايماءة العاجز ، وأردف : « هذا كل ما لدى ، ولا فائدة من الطلب » . وحاول أن يترك بازوف ولكن هذا الأخير لم يدعه يمر .

ونظر بازوف الى وجهه المحتقن وهز كتفيه .

ـ اعطنى بعض الورق ، فسوف أضع التصميمات بنفسى ، قالها فى حزم ، وأردف : « يجب ألا تتوقف الترميمات ! »

وعاد الى ناقلة الزيت ومعه لفافة ورق ، واستقر فى قمرة خالية . وجاء برونيكوف من الرفاس مهرولا ، وكان فى حالة الانسان المنفعل الذى لا يضبط نفسه، والذى يترك نفسه يثرثر فى شيء ما .

وتساءل فى خشونة : « ماذا سأصنع بهذه الكومة من الأجزاء ؟ والقسم الفنى لا يصنع التصميمات » .

ـ سوف نضعها نحن بأنفسنا . قالها بازوف وهو يثبت الورقة بدبوس على لوحة الرسم .

وراقب برونيكوف دون ان يلاحظه الأخير ، وحاول ان يبدو غير مكترث ، والحقيقة انه كان غير ذلك .

ـ لقد فقدت رشدك . قالها برونيكوف فى لهجة معيبة ، وأردف : وسوف نقع فى مأزق قبل ان نعرف ذلك !

فأجابه بازوف فى هدوء : انك ستستخدم أدوات القياس .

وظلوا يعملون فى الليل بنجـــاح ، وهدأت ثائرة برونيكوف ، وذهب ليحضر أقيسة التفصيلات ، وأسرع الى الدكان ليتناول شيئا من الطعام .

وعنـــدما فرغوا من عملهم وتركوا القمرة كانت نجوم الشـــتاء المضيئة تسطع فى السماء الحالكة . ومن نوافذ ورش معمل التكرير تصاعد ضجيج يشقق الفضاء فى قوة . وكانت الأشعة الخضراء تضوى من آلة اللحام مرة هنا ومرة هناك على الأسطح العالية المعتمة للسفن .

ـ اننا لا نستطيع أن نرتاح بدون نيومان . قالها برونيكوف فى صــوت احتجاج وهو يمسك بيد بازوف . وأردف : « وســوف تصادفنا متاعب ، فدع هذا يا أخى ! »

وكان قد تجاوز مرحلة الانفعال والضيق بنفسه ، ولـكنه كان خائفا من امكان حدوث متاعب . ولف بازوف ذراعه حول خصره .

وقال فى تهكم : « انك قد نسيت رسومنا ونحن طلبة ، فنحن لم نكن نخشى تقديمها لكونها رســومات غير صالحة . ولـكن هل تقصد أن تقول اننا لم نتعلم أى شىء ؟

وسلما التصميمات فى الورشة وخرجا متجهين الى مداخل ميدان العمل .

وعاد نيومان فى اليوم الذى سلم فيه قسم العمل قطع الغيار الى الفرق . وكان ما يزال شاحبا ، وكان يحك يديه كما لو انه كان قد تجمد من البرد ، ويحاول أن يجعل وجهه مقابلا للشمس .

وقال فى ابتهاج : « لقد حاولت أن أتغلب على هذه الحال • كيف الحال فى ناقلة الزيت ؟ »

فأجاب بازوف : « لقد كان القسم الفنى مزدحما ، فنفذنا الأمر بأنفسنا » •

ـ عظيم ! سنلقى عليها نظرة سريعة ثم نسلمها •

ـ لقد سلمتها فى نفس اليوم ، وهم سيسلموننا قطع الغيـار اليوم •

وأطلق نيومان صفيرا ونظر الى بازوف شزرا • كان هنـاك شىء خادع فيه يجعله يشبه برنيكوف عندما يكون منزعجا •

وسأله فى صـــوت هادىء : « يحتمل أنهم لم يكن لديهم الوقت الكافى لتقدير كل التفصيلات ، أليس كذلك ؟ » وفهم بازوف ان هذا التساؤل الحريص كان يعنى : أأنت واثق مما تقول ؟ ربما كان فى استطاعتنا أن نستعيدها • وماذا يكون الأمر لو انك كنت قد حدثت خطأ ؟

فأجابه بازوف : « قلت لك انها ستكون معدة اليوم » وأردف : لقد وعدوا بتسليمها فى تمام الساعة الثانية » •

وكان جوابه يعنى : « لا تتدخل أنت ، فأنا أعرف ما أصنع ، على استعداد للمخاطرة » •

وفهم نيومان ، وربت على كتفه ، وأشرق وجهه

وقال : « ان لدى عملا كثيرا فى القيادة ، وتستطيع أن تحضر الى الاجتماع بمفردك • أموافق ؟ »

وسلمت الورشة قطع الغيار وقت الغداء ، وبدأت فرق البحارة تتجمع حولها ، وظل بازوف يباشر العمل • وكان يفكر فى أنه من

الممكن توزيع الرجال على نحو آخر . وكان بعض عمال برونيكوف لم يحضروا ، فأرسل اليه بازوف بعض عماله . وهكذا لم يزدحم بهم عنبر المحركات .

ورفع المكبس الأول وعلق بالسلاسل ، وصار الجهاز مثبتا وأمر بازوف بانزال المكبس على الشباك ، وتسلق العوارض الحديدية ونظف الأجهزة بزيت البارافين . وفحص بنفسه كل جزئية ، حتى صار مغطى بالزيت والعرق . ومع ذلك فقد استمر فى هدوء يباشر كل شيء حتى لم يبد عليه أدنى تسرع .

وكشر البرادون ولكنهم أطاعوا الأوامر فى صمت . وعندما رفع المكبس الأول نظر بازوف فى ساعته . وكان هناك ثلاثة منهم يعملون فى الرافعة . يبدو عليهم الضيق ، فى حين كان الرجال على الآلة يحدثون ضجيجا . وكان من الواضح انهم غير كافين للعمل .

وأنزلوا المكبس الى مكانه وأداروا عليه الغطاء . ونادى بازوف واحدا ممن على الرافعة وأرسله الى أسفل لكى يساعد على المحافظة على سلامة الذراع الواصلة . وكشر البرادون ، فقد كان الموقف أشبه بالاصلاح منه بالتركيب .

ورفع المكبس الثانى ، وانزلقت عربة الرافعة سريعا على كمرات الحديد . وكان البرادون يعملون فى سرعة ، وكان التوقف يثيرهم ، وهم يخشون ان تخفض أجورهم . وحسب بازوف الوقت الذى استغرقته عملية تأمين الذراع الواصلة بأسرها ، فوجد أنها استغرقت عشر دقائق .

وانتهوا من العمود الثالث فى ثمانى دقائق . وكان البرادون يعملون فى صمت وبتركيز لم يعتادوه من قبل .

وجاء نيومان الى عنبر المحركات ، ووقف يراقب العمل ، ولكنه لم يطلب بازوف . وركبوا (الكامشافت) وعددا أخرى تحتاج الى

عناية فى التركيب • ووزع بازوف الرجال على نحو ما زال مغايرا • ولم يقم هو بعمل أى شىء بنفسه حتى يستطيع ملاحظة المجموعة وتوجيهها • ثم رأى نيومان وصعد اليه •

وسأله فى نشوة انتصار : « أرأيت كيف وزعتهم ؟ »

ونظر اليه نيومان نظرة حنونا •

وقال : « الواقع أنه ليست هناك حاجة الى هنا ـ لقد قال (أريونيكيدز) ان أحسن نظام هو ذلك الذى يكون فيه لكل شخص دوره ولا يمكن الاستغناء عنه • وقد كان على صواب » •

وتأثر بازوف بهذا الثناء ، ولكنه تحقق من ان نيومان كان قد أخطأ الشىء الرئيسى ، وهو أن المجموعة كانت قد دفعت الى ان تعمل أسرع من المعتاد •

وأراد أن يخبره بالتجربة ، ولكن نيومان كان معجلا •

وقال : « يجب ان تذهب الى برونيكوف على الرفاس ، فهم هناك قد توقفوا عن العمل » •

وكان مدرس الطبيعة لباوزف فى مدرسة الصنايع قد اعتاد ان يقول له : « انك صافى الذهن ، ولكن ميلك عملى للغاية »

ولم يقل بازوف شيئا ، فهو نفسه كان يشعر انه ينقصه شىء ••• ربما كان الصبر ••• فقد كان يضيق بالمحاضرات التى تتناول موضوعات مجردة ، وكان يحس بكل كيانه ان الدقائق تمر به دون أن يفيد شيئا • وعلى العكس فى المحاضرات التى تتناول الهندسة الحرارية أو أجزاء الآلات ، فانه كان يتلقف كل كلمة • وهذا بالضبط هو ما كان ينقصه بوصفه أحد السواقين بالسفن قبل ان يذهب الى مدرسة الصنايع • لقد جعل ذلك الآلة أقل رهبة ، وبسيطة ، وأسهل على الفهم •

وفى معامل التكرير سحرته تقسيمات العمل ، وكان يهتم بتسلسل عمليات انتاج قطع الغيار ، وغالبا ما كان يقضى وقتا طويلا فى الورش .

ولاحظ أطواق المكبس وهى تدار فى المخرطة ، وخطر له ان العملية من الممكن انجازها على نحو أسرع مع ادخار المادة الخام اذا جعل فى المخرطة مقطعان . وكذلك عندما كان البرادون يملئون صندوق السلك كان بازوف يفكر فى أنه لا بد أن تكون هناك طريقة أبسط وأسرع لعمل ذلك .

ومع ذلك فأحيانا كان الشىء الذى يبدو بسيطا وعرضيا يدل على انه أمكن الوصول اليه من أبسط الطرق . لقد أجريت العمليات عدة سنوات واصطدمت كل محاولة لتغييرها بالعقبات . وكان يوجه الأسئلة الى رؤساء العمال ، ولكنهم كانوا يتغامزون من ورائه ، وسموه غرا . وكان ربما أذعن برهة ، يعود بعدها للتفكير من جديد محاولا ان يصل الى طريقة تختصر الوقت .

وكانّ بازوف كثيرا ما يفكر فى أن الشخص الذى يعمل فى المرسى يستطيع فى سهولة أن يحسن عمله اذا هو عرف نظرية القطع ، وأى الأجزاء الخاصة فى الآلة التى يعملها هو فى حاجة اليه ، فكثير من الناس يحب أن يحمل الكتب ، ويقلب فيها ، وفى نفسه الحسد العاجز الذى يخامر نفس الفقير حين يقف أمام نافذة دكان ملىء بالبضائع الثمينة . وقد بدا البعض فى الدراسة ، وتركوا العمل ولم يعودوا قط . وفقدت الورشة بعضا من أحسن عمالها الذين استبدل بهم عمال غير أكفاء . وكان أحسن شىء - فيما رأى بازوف - هو تعليم الناس .

وذات يوم ذهب الى مكتب نيومان ووجد المهندس مشتغلا على نحو خاص بشىء ما . ونحى نيومان رسوماته جانبا ، وطلب من بازوف ان يجلس .

فقال له : « انني قادم لتوى من جلسة عامة للجنة الحزب الفرعيه، وقد قرروا ان يدخلوا التعليم الى كل بيوت العمل . ان أمامنا مهمة كبيرة » .

وكان يذرع الحجرة جيئة وذهابا ، وصـــوته العميق يدوى فى السقف .

ـ لقد قلت لهم : أيها الرفاق ، هذا ما يحدث ، يذهب الشيوعيون الصغار فى الورش الى السفن خلال فترة الغـــداء ليروا ما يصنع بأجزاء المحرك الذى يصنعونه ، ولكن المهندســين يطردونهم لأن وقتهم لا يتسع للشرح . واذا أخطأ القسم الفنى فى حســابه فان الورشة لا يمكن الا أن تنتج حسب هـــذا الخطأ . عندئذ يلعن البرادون الرسام والورشة ، ويمضون يلوون قطعة الغيـــار عند التركيب دون هوادة ، ويضغطون عليهـــا حتى تلائم الموضع على نحو ما . فى مثل هذه الحالات لا تكون لطرق القياس المكتسبة عن طريق التعليم أية قيمة . هكذا قلت . اننا فى حاجة الى الكفاءة لا الى عبارات الزجر والتوبيخ . فيجب علينا ان نعلم ...

وأخذ نفسا ثم انتهى فى هدوء :

ـ باختصار ، نحن فى طريقنا الى تعليمهم !

وكان بازوف على وشك أن يقول انه فكر فى ذلك من قبل ولكنه لم يصنع ، فالذى كان يهمه هو كيف يدبرون تنظيم التدريب المهنى فى المصانع ، فقد كان فى بعض العمال قابلية ، وكان بعضهم بليدا ، كان بعضهم قد نال حظا من التعليم ، والبعض الآخـــر أميا ، ولا يمكن أن تتخيل ان تجعلهم جميعا فى مجموعة واحدة . وبعد بضعة أيام اقترحوا عليه أن ينظم تدريب البرادين فوافق . واذا كانت اللجنة الفرعية قد رأت ان التدريب ممكن فلماذا لا يمضى هو ـ أى بازوف ـ فى القيام بمهمته ؟

وفى المساء جلست لجنة الامتحان على المنصة فى النادى . ونادى جاكوب نيومان البرادين واحدا بعد الآخر ، فجاءوا من نهـــاية القاعة ووقفوا أمام المنضـــدة ووجوههم تتوهج حماسا وانفعالا . وكانت الاجابة غير الصحيحة تثير فى الحجـــرة همهمة . وكان من الممكن سماع همسات التلقين من الصفوف الأمامية ، فكان نيومان يدق على حافة الدورق بالسدادة للمحافظة على النظام .

ها هم أولاء يجتازون امتحانهم الفنى الأصغر ، الأمر الذى ملأ نفس بازوف بالبهجة والثقة .

وفيما هو جالس بجانب نيومان راح يحملق فى توتر فى وجه كل شخص وهو يجيب عن الأسئلة ، مليئا بالخوف من أن يخجلوا أو ينقطع حبل تفكيرهم . ولكن البرادين كانوا يجيبون فى حذق ، ولم يظهر عليهم أية رغبة فى العودة سريعا الى أماكنهم، كما لو انهم كانوا يتوقعون مزيدا من الأسئلة . وقضى بازوف أمسيات كثيرة جالسا على تلك المنضدة الحمراء ، ولكنه لم يتعب قط من النظر الى وجوه العمال الأليفة التى أشرقت بالانفعال ، كأن نورا داخليا قد أضاءها .

وسرعان ما دار الحديث فى المصـــــانع عن اقتراح قدمه زكريا أيبات . وكان بازوف قد تعرف عليه من قبل .

ولم يكن هذا الأذربيجانى الصغير الا مجرد صبى ، وكان نحيلا أسود اللون ، ويميل شعره الى التجعيد . وقد اعتاد ان يحضر الى فصول البرادين ، وكثيرا ما كان يوجه الأسئلة الى بازوف ، وأحيانا كان يتناقش معه . وكان من أوائل الذين اجتازوا الامتحان بامتياز . وبعد أن فرغ من امتحانه ذهب الى الديربنت .

وقال فى لهجة جادة : « ان لدى شيئا أريد أن أخبرك به . ان المسألة ... »

وكان بادى الانفعال ، وكانت عيناه تلمعان · ودس بازوف ذراعه تحت ذراعه ، وقال في لهجة ودية : « هيا بنا نتمشى · ما خطبك يا زكريا ؟ »

فقال زكريا فى انفعال : « انظر ، لقد زدت بالأمس من سرعة العمل على مخرطتى ، فقد قطعت قطعا أعمق ، وكانت النتيجة طيبة، ولكن رئيس العمال رآنى وثار قائلا : (أنت تحاول أن تحصل على مرتب أكبر ، أليس كذلك ؟ انك سوف تفسد المخرطة !) » ·

فقال بازوف : هدىء من روعك يا زكريا ، فسوف نقرر أن ···

ـ وقد فكرت فى طريقة لادارة المكابس كذلك · فالمألوف اننا نشد المكبس فى الكامة بحيث نثبت رأسه فى وسط ملف المخرطة الخلفى ، وهذا يجعل من الصعب العمل فى الوجه حسب النموذج · أما أنا فلم أثبت الرأس ، وتركت كل شىء كما هو ، وثبت المكبس على نحو أكثر احكاما · ونجح ذلك ، وعندئذ لم يكن أمامى أية صعوبة فى أن أقعر الوجه حسب النموذج · أرأيت ؟ لقد كنت من قبل أمضى ست ساعات فى المكبس الواحد ، أما الآن فلا أحتاج لأكثر من ساعتين ونصف ساعة · ولا بأس بهذا مالم يلاحظوا · يبدو أنك لا تريد أن تقول شيئا بصدد هذا ·

ـ ولم لا ؟

ـ حسن ، انك لا تعرف ورشتنا ! سوف يقولون اننى أتلف المخرطة مرة أخرى ، وسوف تحدث ضجة صاخبة ·

وتجهم وجه بازوف ، وطوح بسيجارته من فوق سطح السفينة·

وقال فى سخط : « أنت تتكلم كما لو انك قد سرقت بعض الناس · ان رئيس عمالك وغد ! عليك أن تنتظر ، وسوف أتحدث الى نيومان ·

وذهب بازوف ليقابل نيومان قرب المساء . وكان فى المكتب حشد من النـاس كان برونيكوف يخبرهم بشىء وهو يقهقه طوال الوقت . وكانت صرخات الضحك من نيومان تدوى فى المكان .

وجلس بازوف .

وقال فى لهجة غاضبة : « ان ما يحدث فى الصيانة لشىء مشين. فرئيس العمال (لحنوف) يثير الشغب مع الرجال لأنهم يرفعون نسبة انتاج العمل . انظروا » .

وتحدث فى بطء محاولا ان يتـذكر كل تفصيلات حديثـه مع ايباب . وظل نيومان يبتسم فى عطف ، ولكن خيم على الحجـره الصمت ، وكان الآخرون ينصتون للدفاع على نحو ما .

وقال بازوف : « أجل ، ان الفتى على صواب فى تقديره . فأنت حين لا تثبت الرأس تستطيع أن تقعره تبعا للنموذج . وهذه الطريقة يجب ان تستخدم فى كل مكان . أما رئيس العمال فيحتاج الى تهذيب يخلصه من وضاعته » .

وقاطعه نيومان قائلا : « لحظة من فضلك ! » وكان قد كف عن ابتسامه ، وكان وجهه قد ارتسم عليه التعبير الرسمى الحريص الذى يبدو عليه عندما ينصت الى شكاوى الأشخاص . وأردف قائلا : « لقد سمعت عن ذلك . أما فيما يختص بكلامك » ـ ونظر نظرة قاسية الى بازوف ـ « فليس رئيس العمال لحنوف وضيعا ، ولكنه يعلم الرجال النظام . فمخترعك هذا ربما حطم مخرطته . أو كنت تحب أن يذهب اليه رئيس العمال ويتلقى الدروس على يديه ؟ فراجع نفسك » ـ والتفت الى برونيكوف وقال : « يبدو أننا قد ذهبنا الى طرف النقيض بهذا التدريب المهنى ، فهم الآن على استـعداد لأن يخبطوا كيفما اتفق لكى يزيدوا من دخلهم . وهناك من يدافعـون عنهم » . وأومأ الى بازوف .

ـ يا للهراء ـ قالها بازوف ، وأنفه يرتجف . وأردف : « لقد أصاب الادارة الذعر لأن الرجال بدأوا يستخدمون عقولهم . انني أقول على كره مني ان هذا ليس سوى جهالة وجبن ... »

وتطلع حوله يتلمس من يتعاطف معه ، ولكنه لم يجد أحدا ، بل ان كثيرا من الوجوه بدا عليها نوع من الحيرة المتصنعة كأن بازوف كان قد ارتكب بعض الخطأ .

فقال برونيكوف متلطفا : « ان هؤلاء الذين يسوغون الأعمال لا يجلبون لنا سوى المتاعب ، فهم يريدون ان يخترعوا بارودا » . والتفت الى بازوف وقال : « أما فيما يختص بتشغيل المكابس ففي الكتب تعليمات عن ذلك ، فارجع اليها » . وأردف : « وليست هذه أول سنة لنا في هذا العمل على أي حال . أما عن الغاء العقل فمن ذا الذي يستطيع ان يصنع ذلك ؟

ونظر نيومان من النافذة ودق على المنضدة . واستدار فجأة ، وكان وجهه قرمزيا .

وفي اندفاعة حماس قال بصوت عاصف : « ليس لك الحق في اتهامي بالجبن ! عليك أولا أن تقوم بما أقوم به من عمل » .

فقال بازوف في لهجة ضعيفة : « انني لا أتهمك ، ولكن كلامك كله يبدو سخيفا » .

ونهض واتجه نحو الباب ، ولم يستطع أن يفهم معنى الصمت العدائي من خلفه ، وأحس كما لو انه كان قد ضرب برأسه حائطا صخريا .

وكان مهندسو المصانع والفنيون فيهـا يقيمون حفلة ســاهرة .
ووصل بازوف الى بيته متأخرا ، ولم يكن لديه وقت لتغيير ملابسه ، فعقد رباط العنق الناصع الذى كان قد أسرع بشرائه لتوه على شكل فيونكة . وأحس بأنه لم يكن لطيفا على الاطلاق ، ولكن ذلك كان يستوى عنده . وحين مر بالفندق توقف لحظة أمام مرآة . وخامره شـــعور بالحرج ، فقد كانت بزته تبدو مضحكة ، وتدل عـلى سقم الذوق . فطلب لنفسه زجاجة جعة فى مقعد قريب ، أشاعت فى نفسه البهجة . واشترى زهرة ضخمة من شارع مورسكايا وعلقها فى فتحة صداره .

وفى الطريق قابل برونيكوف الذى حملق فيه فى دهشة ولم يقل شيئا . وكان برونيكوف يرتدى بزة رياضية وحذاء برقبـــــة ، وانتصبت رقبته النحيلة الفتية فى ياقته البيضاء .

كانت الحجرات تعج بالناس، تنطلقمنها رائحة العطر والمأكولات.
وكان نيومان يجلس الى احدى الموائد ينقر لحيته على نحو يعبر عن الضيق . ورأى بازوف انه من الخير ان ينتهز الفرصة ليعيد الحديث عن اقتراح ايبات .

وكانت هناك فتاة فى زى أبيض تعد المائدة . وفيما هى تنصب جسمها طوحت بشعرها الى الوراء بحركة من رأسها . وبدا وجهها مألوفا لبازوف ، فذهب اليها ومد اليها يده فقدمت اليه نفســها

قائلة : بلتسكايا . فتحقق من انه لم يسبق له ان رآها من قبل

ونسى على نحو ما ، ما كان بشأن نيومان واقتراح ايباب، وجلس بالقرب من الحائط كيما يستطيع النظر من جانب الى الفتـــــاة . واندفعت يده آليا الى رباط عنقه ، فانتزعه دفعة واحدة .

وقد حدث ذات مرة ، حين كان يعمل على محرك السفينة قبل ان يذهب الى مدرسة الصنايع ، أن ألصق داخـــل غطاء حافظة نقوده صورة فوتوغرافية صغيرة قطعها من احدى الصحف ، لا بد أنهـــا كانت صورة لممثلة أو نجمة سينمائية . وقد كتب بعض زملائه من البحارة عبارات قبيحة تحت الصورة ، وأدخل هو فى روعهم ان بينه وبين الفتاة غراما . ثم حدث ان ابتلت الصورة نتيجة لعاصفة فاضطر الى ان يلقى بها .

وعندما أحنت الفتاة ذات الرداء الأبيض رأسها ذكرته بتلك التى كانت فى الصورة . ومع ذلك فقد كان التشابه بينهما من صنع خياله أكثر مما هو من وحى ملامحها . ولم يستطع ان يحول عينيه عنها . وحدث انها ألقت نظرة فى اتجاهه ، واختلج حاجبـــــاها الهادئان . ووصل برونيكوف الى المائدة وأخذ بيدها ، فجذبتها منه وضحكت . وعندما تحدث اليها نيومان ناداها باسم موزيا ، فأحس بازوف بنوع من العداء ازاء برونيكوف ونيومان .

وعندما نهض الجميع وذهبوا الى المائدة أخذ بازوف يتتبع بصورة آلية رداءها الأبيض . ولكن نيومان جلس على يمينها وبرونيكوف على يسارها . وصب نيومان لنفسه بعض الفودكا استجابة لاختلاجات شفتيه ، ومال برونيكوف على موزيا وهمس بشىء . وأحدث حذاؤه ذو الرقبة صريرا تحت المائدة .

وكانت الحفلة عادية . ودارت المناقشات أول الأمر بصـــــوت منخفض حتى انه كان من الممكن سماع طرقات الأكواب والأطباق .

ثم بدأت الأصوات ترتفع، وبدا ان الجميع يتحدثون ولا أحد ينصت ورفضت السيدات ان تحتسين الخمر ، وحاول الرجال اغراءهن .

وشرب نيومان كأسه بطيئا ، وأسند ذقنه الى يده العريضة . وكان ينظر فى عطف أخوى الى من يتكلم . كائنـــا من كان . أما برونيكوف فوضع ذراعه خلف مقعد موزيا كما لو كان يحتضنها . أما هى فكانت تنظر حولها فى استغراب دون أن تعير برونيكوف أى انتباه . ثم فجأة التفتت اليه باسمة ، وكان واضحا انها تعتذر عن عدم انتباهها . وخطر لبازوف انهما يجلسان ملتصقين جدا ، وأنه لا بد ان ركبتيهما كانتا تتلامسان تحت المائدة . وشرب كثيرا دون وعى منه ، وسرعان ما لعبت الخمر قليلا . وكانت عيناه مثبتتين على موزيا طوال الوقت . وحدث مرة أنها حدجته بنظرة جادة كأنهـــا تطلب منه أن يكف عن النظر اليها ، وأن يلتفت بعيدا ، فصـــنع ذلك .

ثم نهض الجميع وتقارعت الكؤوس . وأسرع بازوف الى حجـــرة أخرى حيث كان الجو مظلما . وحين أمسك بعقدة رباط عنقه جذبها فمزقها فى نشوة عارمة . وتطاير زر ، وتدحرج على الأرض . وانتزع الزهرة من ثقب سترته واعتصرها فى يده . وكان رأســه يدور ، وفى فمه مرارة متجددة . وحاول أن يهدىء من نفسه بأنه بعد ست ساعات سيعود الى الورش . وكان عليه أن يذهب الى اللجنة الفرعية بخصوص اقتراح ايبات ، ولكن هذه الفكرة التى قهر ذهنه عليها تطايرت دون أن تجلب له أية راحة . فقد كانت فى الحجرة المجاورة فتاة تدعى موزيا ، لها عينان جميلتان قاسيتان ، وبشرة بيضاء ، وكتفان مكتنزتان ، وكان برونيكوف يميل نحوها . ان مجرد التفكير فى ذلك يؤذى نفسه .

وعندما عاد بازوف الى الحجـــرة كان نيومان يجلس بمفرده الى المائدة ، فقد كان الراقصون يدورون مثنى مثنى . وكان المصممان

(بيزاش وميد فيديف) قد أخذتهما النشوة ، فكانا يصيحان صيحات عالية . وقد كانا يراقصان كل شخص بصورة أخوية بعض الوقت ، وكان توددهما غاية فى الدلالة . وقد وضعت موزيا يديها فى هدوء على كتفيهما ، وقبلاها ونظرت هى الى بازوف وابتسمت ، فلم يكن من ذلك مفر ، بل كانت هذه هى العادة . ودار حول الحجرة حتى يكون قريبا من ذات الرداء الأبيض ، وبعد ذلك وجدا نفسيهما – على نحو ما – متجاورين قرب النافذة . وأشرقت عينا موزيا بالضياء من خلال أهدابهما .

فقالت له فى صوت خفيض : « هكذا أنت اذن يا بازوف . لقد حدثنى جاكوب نيومان عنك ، وهو قليلا ما يثنى على انسان . لقد قال انك عامل ممتاز ، ولكننى لم أتصورك على هذا النحو قط » .

فقال بازوف فى توتر : « لست أدرى ماذا يعنى نيومان . فأنا مجرد ميكانيكى عادى – مثل برونيكوف »

وهزت موزيا رأسها .

– أجل ، ان جاكوب يعرف ذلك ، وهو غاية فى الخشونة ، أعنى جاكوب نيومان ، ولكننا صديقان . لماذا كنت تنظر الى هكذا خلال العشاء ؟ لقد أشعرتنى بالحرج .

وكان الجو حارا ، وهى ربما كانت قد أكثرت من الشراب، وكانت تتكلم فى بطء كأنها مجهدة .

– اننى أعمل فى المحطة اللاسلكية للخط الملاحى . والحق أننا هناك بحارة كذلك ، ولكن بالمراسلات . ويقال انه سيقرر لنا الزى البحرى ، فهل تعتقد ان هذا الزى يناسبنى ؟! .. والآن حدثنى عن نفسك .

فقال بازوف : لست أدرى عن أى شىء أحدثك . اننى مجرد رجل

عادي . ولكننا لدينا أشـــخاص ممتازون مثل زكريا ايبـــات الاذربيجاني ...

ووجد انه من المسلي ان يتحدث اليها بأشياء .

وكانت هي تصغي اليه ورأسها يميل الى الجانب قليلا . وفجأة صفقت بيديها كالطفل .

-.ان قميصك ممزق ، وقد تطاير زر منه ! آه - ها ، يا لك ! ولمست يداها رقبته ، وكانتا جافتين دافئتين ، فلم يتحرك خوفا من انها قد تسحبهما ، فقد بدا له أن هذه الالفة منها يحتمل ان تكون عن غير وعي .

فقال وكأنه يهمس : لقد كنت أنظر اليك طوال الليلة ، ولكنني كنت أخشى أن أتحدث اليك . ان هذه أول مرة أسمع فيها كلمه تكريم .

- أحقا ؟ وأنا كنت أقول لنفسي : المؤكد انه سوف يحادثني وقد جلست هنا بمفردي بقصد ان تصنع هذا .

وجذب الستارة دونها حتى لا يلحظهما أحد . فهمست موزيا « انهم سيروننا » . وصارا بمفردهما في شبه الظلام ، وأرسلت مصابيح الشارع ومضات صفراء خـلال النافذة ، فقبلها في شفتيها ولكنها ابتعدت عنه على عجل .

وقالت : « ان نيومان كان يحدثني عن أشـــياء كثيرة تتصل بالعمل . وقد تصـــورتك فتى جادا لا يفكر الا في عمـله ، ولكن مانتذا - تقبل فتاة من شفتيها مباشرة ! »

وعرض عليها ان يصحبها الى بيتها ، ولكنها هزت رأسها .

وقالت : « لا ، تستطيع ان تراني في المحطة اللاسلكية غدا ،فأنا افرغ من عملي في منتصف الليل » .

وهبط قلبه دقيقة · انها لم تكن الفتاة التى تفقد صوابها · وحتى عندما التصقت به لم تنس ان تنظم رداءها حتى لا يتثنى · وكفت عن التفكير فيه بمجرد ان خرجت من خلف الستائر · وسرعان ما أحاط بها المصممون فى الممر، وهم جميعا يتنافسون على مساعدتها فى اعداد أمتعتها · ولم تلتفت لمجرد توديعه ·

وظل بازوف يتجول على ساحل البحر حتى الصباح · وكانت ريح قارسة البرودة تهب من البحر ، ولكن وجهه كان يطفر حرارة · ان بلتسكايا هذه ليست الفتاة الصالحة ، فكل ما فى الأمر أنها قضت معه وقتا مسليا ، ثم ينتهى كل شىء · ومع ذلك فقد كان قلبه يذوب من التفكير فيها ، فقد كانت طبيعية ، وكانت تقابل كل شخص ببساطة الزمالة · وكان هناك كثير من الفتيان يتعلقون بها · وربما عادوا فيما بعد ليقولوا أشياء سخيفة عنها وعن مظهرها · وقد اعتزل فى اليوم التالى كل من كانوا بالحفلة خوفا من ان يتحدث اليه أحد عنها ·

وحاول أن يصل الى المحطة اللاسلكية بعد التجول طويلا فى الأماكن المهجورة وكانت صوارى اللاسلكى مختفية فى السماء الحالكة ، ومصابيحها الصفراء تتلألأ على ارتفاع كأنها نجوم · وخرج حارس من مرقبه وخشخش بمزلاج بندقيته · فوقف بازوف عند السور وظهره للريح · ومضى نصف ساعة وهو واقف بلا حراك ، وقد تصلبت يداه من البرد ·

وظهرت موزيا فى المدخل المضىء ، فتوقفت ضربات قلبه ، اذ من المحتمل ان تكون قد نسيت كل ما كان من أمره · وتقابلا فى الطريق كما يتقابل المارة عن طريق الصدفة ، وعندما تقابلا لم يقولا شيئا · وكان المكان خاليا من أية نأمة ،والحارس قد دس رأسه فى معطفه المصنوع من الفرو · ووضعت موزيا ذراعها حول رقبة بازوف وأنزلت ياقته · وحين توقفا فى الساحة بالقرب من السلك الشائك تعانقا كأنهما راحلان الى الأبد ·

- لقد أقنعت نفسى بأنك لن تأتى . قالتها موزيا وهى تخطو الى الوراء ، وتلهث قليلا . وأردفت : « اننى أصنع ذلك دائما عندما أريد أن يتحقق شيء ، ومن هنا لا أتأذى كثيرا فيما بعد » .

وأخذت بيده وجذبتـــه نحوها . وانعقدت الأنوار حولهما فى حلقة ، وانبعث من البحر صفير الرفاسات المجلجل .

فسألها بازوف : « ولماذا ظننت الأمر كذلك ؟ اننى أحبك . حقا . ألا ترين ؟ »

- بعد يوم واحـــــد يا ساشا ؟ - قالتها فى ضحكة تبكيت . وأردفت : « لا ، ان هذا لا يحدث »

- عندما أقول ذلك يكون معناه أنه يحدث بالتأكيد . هانحن أولاء الآن سويا ، واننى لأشعر بالسعادة . انصتى . أعتقد أننا لا بد أن نتزوج .

وضحكت موزيا .

- يا لك من قائد حقيقى ! الى اليسار ! الى الأمام نحو مكتب التسجيل ! وان كنا حتى الآن لم نتحدث سويا حديثا واقعيا .

وتلمست طريقها الى الظلام مستندة الى ذراعه حتى تكون أقرب اليه . ولكنه لم يهتم بالطريق ، وظل يعوقها بمحاولته ان يمسك يدها فى يده .

وقال : « لقد كنت فى المصانع اليوم كالرجل المريض بسببك ويقال ان هذا لا يحدث فى العمر الا مرة واحدة » .

وتوقفا عند السور الحجرى على ســاحل البحر . وكانت فروع شجر الاكاسيا العارية من الورق ترتجف من الريح ، والأمواج تقبل مسرعة من الخليج وترتطم بالآجر المبطن لحوض الاستحمام .

وأسفل ذلك كانت المياه المظلمة تئز فى غضب وهى تندفع فـوق الحائط الحجرى · وعدلت موزيا قبعتهـــا فوق عينيها البراقتين فانتهز الفرصة حين رفعت يديها وعانقها ، ولكنها خلصت نفسها منه وجذبته نحو مقعد · وكان مفاجأة منها له أن بدأت تتحدث عن لورش ·

قالت : « انك رجل فى غاية القدرة يا ساشا ، ورأى نيومان فيك طيب ، ولكننى أعلم انه غير راض عنك تماما الآن · فهو يقول أنك ترى الشىء الخطأ فى كل مكان فتأخذ على عاتقك أن تجعله صوابا · وهذا من شأنه أن يثير سخط الناس ، و ··· فأنت تعاضد ايبات فى اقتراحه الذى يدل على غباء ضد كل شخص آخر · ربما كانت معلوماتى مختلطة قليـلا ، ولكنه يضايقنى منك ـ رغم صراحتـك المتناهية وأمانتك ـ انك غالبا ما تجعل الآخرين يفهمونك على انك دساس تدبر المكائد · وقد قال نيومان ··· »

فقال بازوف محزونا : « لنترك هذا الموضوع يا موزيا · ان الأمر خلاف ذلك تماما · وأنت لا تعرفين يا موزيا » ·

فأحنت رأسها دون ان تجيب ، ودقت فى الرمل بكعبها · وفى خـلال الصمت الذى تلا ذلك بدا كأن سـحابة تزحف بينهما ، وتضاءلت سعادته ·

وقالت موزيا فى بساطة : « ربما كان من الأفضل لك ان تعمل فى هدوء كالآخرين · وأنت تستطيع أن تستحوذ على العالم ، واننى لصالحة كأى شخص آخر ، ولكننى لا أنتقل من مكانى ، وربما ذلك لأننى لست طموحة · ولكننى أستطيع ان أتمنى لك أشياء كثيرة · وعليك ان تعمل مثل الآخرين ، على ان تصنع خيرا مما يصنعون » ·

وربت بازوف على يدها وهو يصغى اليها ، فقد كان كلامها يبدو غريبا عليه ، ولم يكد يتبين معناه · وسحبت يدها وهى تحاول ان

تجعله يركز اهتمامه على كلماتها . وفجأة تملكه الضجر ، فقال بعد قليل من التفكير :

ـ سوف أبذل جهدى فى أن أضع الأمور فى نصابها ، فلا تشغلى أنت بالك بذلك . اننى أحبك .

وتهللت موزيا وجعلته يقبلها .

ـ « عزيزى » ، ـ قالتها فى لهجة ملاطفة ، وأضافت : « دعنا نتحدث عن حياتنا سويا فى المستقبل » .

* * *

كانت تقام فى الورش من وقت لآخر حفلات عرس ، وكان بازوف يعـزف على الاكوردیون الذى يملـكه ويلاحظ الزوجين الجـديدين اللذين كان يبدو أنهما يتكلفان المشاق عن عمد كيما تقضى المجموعه وقتا سعيدا . وكان يحدث أحيانا بعد ان يتم الزواج أن يضيق أحد الشبان بكل شيء ويختفى بمجرد ان تنطلق الصفارة . وكان هـذا فوق الاحتمال . ولم يكن بازوف آسفا لأن الأمر معه كان يختلف عن ذلك اختلافا واضحا .

وبعد الفراغ من العمل جاءت اليه موزيا وقد أحضرت معها حقيبة سفر صغيرة ضمن أمتعتها وربطة كبيرة من الثياب . وكانت غاية فى الاتزان والهدوء . وعندما نظر اليها بازوف أحست بالدهشة للسرعة والبساطة التى كان كل شيء قد أعد بهما . وبدأت موزيا بأن تكنس الأرض . وقـد شمرت ثوبها تماما كما يصنع خدم التنظيف فى الورش ، وكنست أعقاب السجاير التى كانت تحت المنضدة ، وأزالت بيوت العنكبوت من السقف ، وعلقت الستائر على النافذة .

ونظر بازوف الى قدميها العاريتين اللتين كانتا صغيرتين وقويتين تماما كيديها . وكان الانتظار فى الليالى العاصفة عند البحر قد جعله

شخصا ذلولا ، كما انه كان قد صار خجولا · ونظر اليها وفي عينيه امتنان · وظل على هـذا النحو طوال أيامهما الأولى التى قضـياها سويا · أما موزيا فكانت راضية عنه ·

وقد اعتادت ان تقول له : « انك رفيق لطيف أيها القائد · انني أحس كما لو انني أعرفك منذ طفولتي » ·

وكان بازوف يبذل جهده في ان يصل الى البيت مبكرا ، وهما قد يخرجان للنزهة سويا · وعندما كانا يذهبان الى السينما لم يكن ينظر الى العرض ، بل كان يجد المتعةفي النظر الى صورتها الجانبية أما هي فكانت تجلس في اعتدال ، وعيناها الواسعتان المفتوحتان تنعكس عليهما الأشعة المتراقصة على ستارة العرض · وكان يحدث نفسه بأن تلك المرأة اللطيفة الطروب أعز عنده من أى انسان آخر على وجه الأرض · ومع ذلك فلم يكن يستطيع ان يتحدث اليها عن متاعبه الأبدية ، أو عن ملاحظاته في الورش · والسبب في ذلك أنهـا كانت تريد ان تعيش كما يعيش الآخرون ، وكان لهـا ايمان لا يتزعزع بالسلطة · ومع ذلك فقد كانت الحياة معها جميلة ، ولم يعد يشعر معها بالملال ·

وفي بعض الأحيـان كان يأتي اليهم بعض الزوار من العمال أو معارف موزيا من الفنـدق · وعندئذ كانت موزيا ترتدى ثوبهـا الأبيض ، ويبدو عليها التغير على نحو ما ، كأنها قد اغتسلت بعطر الجمال ، فيختلس هو اليها النظرات ، ويتفطر قلبه ·

وربما همست في أذنه : « انني أحس بالشؤم اليوم ، فحاول أن تكون رفيقا معي ·

وكان (استومين) وهو مهندس اتصال ، قد اعتاد أن يكون بين الضيوف · وكانت تنبعث منه رائحة العطر ، وتنعكس على شـعره الناعم المسوى أقباس من الضـوء · وكان فتى مزهوا ، لا يتكلم الا

عندما يسكت كل شخص آخر • وكانت موزيا ربما غمزت بعينيها للفتيات وحاولت ان تتعثر فى قدمه وهى تمر به •

وعندئذ تقول له : « افسح فليس هناك مكان للمرور • لا تجلس فى الطريق » •

وكانت تطلق عليه اسم جورج ، ولم تكن تعيره أى التفات وهو يهز كتفيه فى غضب • أما بازوف فكان يشرب الشاى ويصنع حلقات من دخان السجاير •

وعندئذ ربما قال بروح طيبة : « يا موزيا ، لماذا تجرحين مشاعر الرفيق ؟ »

وكان يحس بالارتياح عندما كان يجد كل انسان حوله مبتهجا ، فهذا جدير بأن يضيع الانسان ليلة من أجله • وهو ربما رغب فى أن يعزف على الاكورديون الذى يملكه ، ولكن موزيا لم تكن ترتاح لهذه الآلة • وكان من عادتهـا ان تطلق عليها عبارة « موسـيقى بهلوانية » • ومن جهة أخـرى كان استومين عازف جيتار ماهرا ، فهو يستطيع ان ينقر الأوتار فى رشاقة، واصبعه الوردية الصغيرة مرتفع • وهو ربما حرك سيجارته فجعلها فى زاوية فمه وحملق فى موزيا • أما الفتيات فكن يغنين فى مصاحبته • وقد اعتادت ليزا زفونيكوف - وهى فتاة أقرب الى السذاجة قليلا - ان تهمس فى أذن موزيا قائلة : « انظرى ، لقد سحرت فؤاده فأخرجته عن طوره جملة • انه يغمز كالساحر • انتظرى ، فسوف أخبر ساشا » •

وعندئذ تبدأ فى ضحك مكتوم ، وتختفى خلف موزيا •

فتقول موزيا : « يا للسخافة ! لا تكونى سخيفة هكذا ! »

ويرتشف استومين الشاى وينظر محملقا فى هدوء الى الفتيات • كان يبدو من نظرته أنه يقول : « ان الصدفة وحدها هى التى جاءت

ى الى هنا . وسوف أمضى فى أى لحظة » . وينتظر الصمت فى صمت .

وقال فى لهجة مؤثرة : « ان فى الحياة لحظات غريبة ، فقد كنت مر فى الطريق اليوم ، فرأيت أمامى امرأة على بعد عشر خطوات منى تقريبا ، نحيلة البدن ، تخطو فى خفة . فخطر لى ... حسن ، بل كنت متأكدا انها شخص كنت أفكر فيه فى نفس اللحظة . فناديتها، فالتفتت ـ تصوروا ـ لقد كانت شخصا غريبا على الاطلاق » .

وكانت الفتيات يصغين مشدوهات . أما موزيا فقد ابتسمت دون ن يستخفها الحديث .

وقالت : «انك قد اخترعت كل هذه الحكاية لتوك ، أليس كذلك؟»

أما بازوف فكان ينصت الى الحوار ، ويدرس شخصية استومين . وتذكر ان موزيا قالت له ذات يوم عن استومين : « ان ما أحبه فى هذا الفتى هو استقلاله ، فهو يحس بقيمته ، وانه لا يمكن العبث به » .

وحاول بازوف أن يستنتج ما يمكن ان تحبه فيه موزيا . ودهش عندما قال استومين : « اننى لا أثق فى النساء قط ، فهن متقلبات الهوى . والذى يثق فيهن لا بد أن يكون مجنونا » .

ـ يا لشناعة ما يعنى ! ويا للفظاظة ! من الأفضل له أن يعزف على جيتاره .

وعندما انفرد بموزيا بعد الحفلة أراد ان يزيل ما كان من اثر سيىء . وكانت هى تمشط شعرها أمام المرآة التى بدا له فيهـــ وجهها شاحبا مجهدا قد تلاشت منه حيويته التى كانت فيه مؤخرا .

ـ لا شىء سوى الثرثرة واللمز . قالها فى لهجة مهدئة ، وأردف

« ان كلام ذلك الفتى عادى . والواقع أنه لا يتكلم باللغة التى نتكلم بها . أهو لا يبعث فى نفسك الضجر ؟ »

واستطال مرأى موزيا فى المرآة وتثاءبت فى هناءة :

ـ لقد كان يتحدث بلغة روسية بسيطة يا ساشا ، فهل تتحدث أنت بلغة أخرى فى ورشك ؟ وتنهدت ، وخلعت ثوبها ، وأردفت ماذا تستطيع أن تصنع فى هذا ؟ انه يجلب المرح ، وأنا أريد قليلا من المزاح ، ولست تستطيع أن تهذبه من جديد !

وفى يناير وصلت عشر ناقلات زيت للاصلاح فى يوم واحد . وازدحمت الورش ، وشاع ان هذا الجانب من العمل قد يترك لبحارة السفن . وكانت العبارة المريحة التى تقول « بحيل البحارة » والتى تتردد من وقت لآخر على لسان بعض الناس ـ كانت تسمع هنا وهناك فى الورش ، وكانت تقال بابتسامة ربما كان لها دلالتها على النخوة أو الحيرة ، كما يصنع أناس مضطرون للاعتراف بعجزهم .

وفى اجتماع الانتاج أعلن نيومان فجأة أنه سيلزم نقل نصف السفن الى أحواض أخرى . ولم يكن من المستطاع ان يأخذ الناس بالعمل أكثر من الزمن المحدد ، فالعمل الاضافى لم يكن مخرجا . وتبادل المهندسون النظرات كأنهم يقولون : لقد انتهى الأمر . وحملق المدير فى السقف وعلى وجهه تعبير مغتصب كما لو كان ذلك هو كل ما فى مقدوره ان يصنعه لكى يتمالك نفسه ويستمع الى نيومان . ثم انفجر .

ـ اننى أستطيع أن ادرك الشعور الذى لا بد أن يسود فى الورش عندما يتحدث كبير المهندسين هكذا ! يجب علينا ان نضع حدا لهذا النوع من السخافة .

ووضع نيومان يديه على شفتيه ، وقطب جبينه فى صورة وحشية قاسية .

وقال فى صوت هادر : « سوف أضع تقريرا ، وعندى من

يساندني . ان من السهل على الانسان ان يتكلم ، في حين يعمل الآخرون » .

وكانت الطريقة التي يصيحون بها تدل على أن هؤلاء الأشخاص يكره الواحد منهم الآخر . ولكن بازوف عرف أنهم بعد قليل لا بد أن يصلوا الى التفاهم وان يذهبوا ليدخنوا السجاير معا في الممر . وفكر في موزيا ، فربما كانت تنتظره طوال الليل ، تنصت الى وقع أقدامه بالخارج . فانتظر حتى كانت فترة سكون . ثم اندفع خارجا في صوت مرتفع حتى ان الجميع التفتوا :

- أعتقد انه يتحتم علينا ان نعمل تحت الضغط ، ان نساهم جميعا في القيام بالعمل . هـذا كل ما في الأمر ، فما الداعي لكل هـذا الكلام ؟

وكف نيومان عن النظر من طرف عينـه الى النور وجلس في هدوء .

وبدأ المهندسون يتكلمون جميعا في وقت واحد . أما (فورون) . وهو قائد فرقة كان قـد حوكم عندما انفجر أحد المراجل ، فقـد استدار على كرسيه في عناء وابتسم الى بازوف . وبعد الاجتماع أوقف نيومان بازوف عند الباب .

وقال في أدب مبالغ فيه : تستطيع أن تقضي الليلة في مكتبي . فهناك أريكتان .

وأومأ بازوف برأسه ومضى ، فقد كانت رغبته في العودة الى البيت شديدة . وعلى أرصفة الميناء ، وخلال الضـوء المتراقص ، كانت تنتقل أشـباح أزعجها صـفير عـربات البضـائع .. وعنـدما نزل بازوف الى عنبر المحركات في الديربنت رأى وجـوه البرادين المغضبة تنظر اليه من أسفل . وناداه قائد الفرقة قائلا

- أعلينا أن نمكث هنا طويلا ؟

ووضع شفتيه على قدر معلق، وشرب بعض الماء فى صوت مرتفع وحين ترك القدر مشى بيده على وجهه المتصبب عرقا ، واختلس النظر الى بازوف الذى أجاب بقوله :

أجل ، علينا أن نصنع هذا ٠

وقرب الصباح ذهب الى مكتب نيومان ٠ وكان الجو هناك باردا وكانت فروع شجرة أكاسيا ترتطم بزجاج النـــافذة ٠ ورقد على الأريكة الجلدية وفكر فى موزيا لحظة قبل أن ينام ٠ وكانت الرياح تئز فى المداخن ، وقطارات الترام قد بدأت تسير ٠ لا بد انها لم تنم كثيرا فى تلك الليلة ٠٠٠

وفى الليلة التالية رأى موزيا عندما عادت من العمل ٠ وقد عقدت يديها خلف رقبته ، وجعلت ذقنه تخز وجهها ، وبدأت تضحك ولم يظهر من الموقف انها كانت غاضبة منه ٠

وقالت : « لقد طلبت نيومان بالتليفون مساء أمس ٠ فعلمت انك تقضى الليلة هناك ٠ وقد أهاجنى نيومان » ٠ وحملقت فى يديه اللتين كانت أظافرهما مسودة من قذارة الزيت، ثم عقدت حاجبيها وراحت مستغرقة فى التفكير ٠

- لقد سألته عن مدى استبقائه لك . فلم يكن منه الا أن ضحك وقال :

- انه سيبقى هنا ما دامت هناك حاجة ! فألقيت بالسماعة فى وجهه ، وكان من الممكن أن أوبخه !

وعلت وجهها قتامة حين تصاعد الدم فيه وصار كئيبا جامدا ٠

واســـتمرت فى كلامها تقول : « انه لا يحبك ٠ ولا أحد منهم

يحبك ، لسبب ما ، والا فهم خائفون منك ، فلست أستطيع ان
أرجع جانبا . ولست أعتقد انك ستحرز أى نجاح قط يا ساشا .
واما أنك ستكون سعيدا فهذا شيء آخر ، وربما كنت سعيدا الآن .
انهم يستغلونك فى سد الثغرات ، ولكنك تقول انه عمل ضرورى .
وترضى نفسك به ، رغم انه شيء مؤسف ، مؤسف للغاية .
لا تغضب ... »

والواقع ان الدموع كانت تتصاعد الى عينيها ، فى حين اعتصرت
يده حتى آلمته . ولم يجد فى دهشته ما يجيب به . وبدا له كلامها
- كما كان الشأن غالبا - غريبا لا معنى له .

فصاح وهو يحمل نفسه على ان يبدو مبتهجا : «موزيا يا حبيبتى
كفى عن هذا الهلع . من ذا الذى يوجه الى أية اساءة ؟ وأنت تعلمين
ان فى استطاعتى أنا كذلك ان أهاجم » .

وجذبها نحوه ، ومسح بيده على شعرها ، ولكنها تخلصت منه
فى اصرار .

وقالت : « يبدو انك تعيش على هامش الحياة يا ساشا . أما
الآخرون فيعيشون على نحو آخر . أريدك ان تندمج فى الحياة » .

ولم يرجع الى البيت فى الليلة التالية ولا فى الليلة التى بعدها .
وبعد ذلك جاء دور عمل موزيا ليلا ، فكان عليها ان تخرج هى عندما
يعود هو الى البيت . وبدا انها اعتادت ذلك ، دون ان تهتم بغيابه

وربما قالت له مازحة : « ان عملك الضرورى يستغرق وقتا
طويلا . الى متى تظن ان حياتنا ستمتد ؟ اننى سرعان ما أصبح
عجوزا أيها القائد » .

وفى نهاية شهر يناير تركت ناقلات البترول أحواض الترميم .
وألقى نيومان خطبة فى اجتماع العمال ، فتكلم عن ليالى السهر .

ورداءة المؤن ، وقوة الهدف • وكانت خطبته منفعلة وحماسية فلقى تصفيقا كثيرا • وكان بازوف يجلس بجانب ايبات •

فقال له : « لقد جرى بينى وبين نيومان وجلادكى رئيس عمال الورشة حديث ، وهما ما زالا ضد الفكرة • وسوف نرى ما يقوله العمال » •

وبدا ايبات أسيفا •

وقال : « دع ذلك يا ساشا ، فسوف أكون كما يقول نيومان تماما • ماذا أكون أنا ؟ لا شيء سوى براد جاهل » •

ـ « أأنت خائف ؟ » قالها بازوف فى خشونة وهو يشد يد الآخر فى عنف • وأردف : « ان فيك جانبا ضعيفا يا زكريا » •

وتطلع حوله فى الحجرة ليتبين من يمكن ان يعاضده من الحاضرين• وعندئذ جاء قائد الفرقة فورون يظلع فى الممر،ويتنفس فى صعوبة • وكان يجر بدنه الكسيح فى وقار وزهو كالعلم المثقب • وقال بازوف فى نفسه : « انه سيكون فى جانبنا »

وتحدث المدير عن تجربة الاصلاحات الشتوية وأهمية موسم الملاحة القادم • ثم جاء دور بازوف •

وحاول بازوف ان يوجز ، فالمصانع يمكن أن تقتصد فى الوقت وفى موارد الثروة • وقد سمع الجميع باقتراح ايبات ، ولكنه كان قد بدأ يتعفن فى حقيبة كبير المهندسين ، وكان من اللازم اخراجه من هناك (وهو لم تكن لديه أى نية لاتهام نيومان ، ولكن كان من الواضح انه ممتلىء بالغيظ والسخط) • كان هناك عدد لا بأس به من العمال والآلات الجديدة فى المصانع • فاذا ما تعلم الرجال كيف يقتصدون الثوانى فلن يكون هناك استدعاء لمهمات اضطرارية •

وأنصت رؤساء العمال وعلى وجوههم ابتسامات جامدة • أما

المصممون فقد همس بعضهم الى بعض · وتجهم برونيكوف ، وهو يحرك شفتيه كأنه على أهبة ان يتكلم · وجلس بازوف · وفجـأة شعر فى وضـــوح تام كيف ان كلامه لم يكن له وقع حسن فى النفوس ، فقد كان كل شخص يريد ان يتحدث عن العقبات التى تغلب عليها ، وعما أنجزه من عمل ، فاذا به فجأة يعلن انه من الممكن انجاز هذه الأشياء بتكاليف أقل ، وعلى نحو أسرع ·

وضجت الحجرة · ونهض فورون فى عناء وصاح قائلا :

ـ انه يتكلم عن العمل ، فيجب ان نعرف لماذا هم لا · · ·

ولكن نيومان مال نحو فورون وهمس له بشىء · ونهض برونيكوف ليتكلم ، وسرعان ما أصبح الجو أكثر ابتهاجا ·

قال : « ان الميكانيكى بازوف يطالب بادخار الثوانى وبعد ذلك يلزمنا ان نمضى الأسابيع فى اصلاح المخارط · أما فيما يختص بالاقتراح الذى تحدث عنه فهو غير عملى ، بل انه خطر · فما هذا الذى يقوله عن (الكامات) التى تحمل المكبس ؟ ان رؤساء العمل سيصعقون عندما تصل مثل هذه الاقتراحات الى الورش » ·

وانحنى بازوف ، وعلت وجهه قتامة · فلم يعد هناك شك فى ان الاجتماع كان للمزاح · وكانت الأسارير قد بدأت تنفرج بعد ان زال توترها ، وكان الحـــاضرون قد ازدادوا ضجيجا · وأبدى أحد المصممين ملاحظة فى لهجة مازحة فقال :

ـ لقد أرادوا ان يحرمونا من المكافأة · دعهم وما شاءوا يا بروتى

وشهق بازوف وقام

وقال : « ألا تريد ان تترك للعامل ان يقول ما يرى ؟ ان هذا لن ينفع ، وسوف تتحقق أفكارنا ·

ورأى بين الوجوه الضجرة المندهشة التى التفتت الى صيحته ـ

رأى بعضا من الأشخاص يعلن فى وضوح عن موقفه العدائى منه بالنظر اليه فى جذل خبيث غير خاف .

فقال فى صوت هادر : « انكم لا تتكلفون عناء ، بل تتوارون خلف سخافات مطبوعة . وما الذى يدعونا اذن لتعليم العمال ؟ »

ثم جلس فى الحال وقد هدأت نفسه ، وحل الجمود محل الانفعال . وأحس بالخجل فى ثورته . وعندما توجه الى البـــاب سمع نيومان يقول :

ـ ان هذا أشبه بأعمال الفتوات ، فمن الواجب عليه ان يعرف حدوده .

وعاد بازوف الى بيته ، وجلس الى المائدة ، وألقى برأسه فـوق ذراعيه . وأحس بنفسه وحيدا لأول مرة . ولم يكن لديه شك فى ان كل أولئك العمال والميكانيكيين ورؤساء العمال فى الورش وعلى رأسهم نيومان كانوا يؤدون أعمالهم فى جـد وبضمير حى ، ولكنهم جميعا كانوا لسبب ما يتمسكون فى اصرار بالطريقة القديمة الفظيعة فى انجاز العمل بالورش ، بما تستدعيه من أعمال اضافية ، وبما فيه من اختلاط وتكرار لنفس الأخطاء القديمة . وأحس بازوف كأنه قد جرى شوطا بعيدا الى أمام ، وحين نظر فجأة الى الوراء وجد نفسه وحيدا .

ورأت موزيا انه ليس على ما يرام ، فجلست بجانبه ونظرت فى عينيه ، وسألته : « هل حدث شىء ؟ لماذا لا تتكلم ؟ »

وأفاق بازوف ، وأخبرها بما حـــدث . وأصغت هى اليـــه فى صمت ، فلم تسأله أى سؤال ، كما لم تظهر أى سخط ، بل حملقت فيه بكل جوارحهـــا كما لو كانت تتفحص قسماته لأول مرة . وعندما أخبرها كيف ان ايبات حاول ان يقنعه بألا يتكلم لم تستطع أن تتمالك نفسها ، وضمت يديها فى يأس وغضب .

وسألته : « أحاول هو نفسه أن يقنعك ؟ أحاول ؟ الواقع اننى لم أر من قبل انسانا مثلك ! »

وكانت تضحك ، ولكن شفتيها كانتا ترتعشان . ثم أخذت يده بين يديها وانفرجت أسارير وجهها ، وارتسمت عليه الضراعة . فكان متوسلا ومستعطفا ومتوعدا . ولم يرها بازوف قط على هذا النحو من قبل .

- عزيزى ساشا ، دع هذا كله . ألا تستطيع ان تعمل كما يعمل كل شخص آخر ، دون ان تحـــاول ان تكون مبتكرا ، ودون ان تحدث ضجة ؟ انك تعمل بالليل ومع ذلك فانهم لم يقـــدروا لك هذا . ألا يحصل الآخرون على مكافآت ؟ انك لا تريد ان تحصـــل على ما يحق لك الحصول عليه ، ولا تستطيع ان تندمج فى الناس ، ثم تأتى الآن وتحاول أن تقفز بهذا الاقتراح . لقد جعلت الرؤساء جميعا ضدك ، وتستطيع أن تتأكد من انهم سيردونك . لماذا تجلب لنفسك الأذى ؟ الواقع أنك غريب ، وغاية فى الغرابة ، وذو أفكار غريبة .

وأنصت اليه مجهدا وفى ضيق ، وهو منهمك فى أفكاره الخاصة . ان اقناع الانسان للناس بصحة ما يقول يحتـــاج منه الى مثابرة واقتناع وعدم مبالاة بمصيره . وها هو ذا الضيق فى نفس زوجته ، فقد كان ملولا متسرعا . ولكن هل تراه أراد أن تتوتر علاقاته مع رفاقه فى الورش ؟ انه لا يستطيع أن يسمى الحقيقة التى تلبسته . لقد درس طرق العمل وانتهى الى ان الآلة لا تستخدم الاستخدام الصحيح ، وأن العمل من الممكن انجازه على نحو أفضل . هذا كل ما فى الأمر .

وسألها فى تفكر : « أأنت غاضبة منى ؟ »

- اننى قلقة ، فلست على أى نحو واثقة مطلقا من مستقبلنا . انك لغريب ...

وقبل افتتاح موسم الملاحة وصلت الى أحواض الاصلاح ناقلات بترول جديدة ، هى مجموعة ضخمة البناء لحمل الزيت الثقيل . وقد قامت مصانع (سوموفو) بتركيب الآلات التى تعمل بالديزل ، والتى صممت بحيث يبلغ حد قوتها الأقصى ١٤٠٠ حصان . ولكن عندما أجريت الاختبارات على الناقلة الأولى ـ وهى الديربنت ـ لم يحاول قسم الاختبار ان يصل بها الى أكثر من قوة ألف حصان ، وتوقف الأمر عند هذا الحد .

وقدم برونيكوف فى أحـد الاجتماعات تقريرا ، صـــور فيه بالتفصيل قصة كل عيوب المحركات ، وكان من رأيه ان القـــوة المقررة بحسب التصميم لا يمكن انجازها بحال من الأحـوال . ثم فتح الكتيب الذى ألفه (نيميروفسكى) وقرأ :

« ان أعلى قوة للمحرك أثناء الملاحة هى بنسبة عامة بين سبعين وخمسة وسبعين فى المائة من القوة المقررة بحسب التصميم » . واذا كان هذا هو رأى نيميروفسكى الخبير ، اذن ...

وسرعان ما لقى رأى برونيكوف قبولا على نحو ما ، وعندما ظهر ان قوة ناقلة البترول الثانية ألف حصان اقتنع كل شخص ، فقد كا من الواضح أنه لا يمكن الحصول منهما على قوة أكبر .

ثم حدث ـ على عكس المتوقع ـ ان وصلت قوة الناقلة الثا (اجماليا) الى ألف وثلاثمائة وثمانين حصانا ، وهى تقري لمقـــررة بحسب التصميم . وقد نقل بازوف الذى كان

ضبط هذه الناقلة هذه الحقيقة فى صورة تذكير الى كبير المهندسين. وطلب مهلة يومين حتى يصل الى القـــوة المقررة بحسب التصميم تماما ، واقترح ان يجرى عمل اضافى على السفينتين اللتين كانتا قد أخذتا للعمل .

واستدعى برونيكوف الى الادارة ، وكان قلقا لأنه توقع قضـــاء نصف ساعة ثقيل على نفسه . وكانت الأجاماليا تقف فى مرساها، وتتصاعد من مدخنتها الضخمة نفثات من الدخان تصل الى الصارى. لقد كان بازوف يحاول أن يصل بها الى القوة المقررة لها بحسب التصميم ، ويهدد باصراره هدوء برونيكوف واقتناعه . وكان من الواضح ـ كما ظن برونيكوف ـ ان بازوف كان يريد الحصول على ترقية ومرتب كبير . ومهما يكن من شيء فقد كرهه برونيكوف فى تلك اللحظة .

وفى حجرة الطعام استوقف المصمم بايزاس برونيكوف .

« هل سمعت الأخبار ؟ » ـ قالها بايزاس الذى كان فى وسع برونيكوف أن يقرأ فى عينيه حب الاستطلاع وتوقع معـــــركة . وأردف : « لقد حاولوا أن يصلوا الى القوة المقررة لمحركات الاجاماليا بحسب التصميم . ومعنى هذا اننا خدعنا الخط الملاحى . اننـــا فى مأزق » .

وعندما قدم برونيكوف نفسه الى المدير كان هذا الأخير يتناقش مع نيومان . وكان يقول له فى انفعال : « لا تحـــــاول أن تبرىء نفسك، وأخبرنى بالحقيقة . هل خدعنا الخط الملاحى ؟ ومن المخطىء، مصانع سورموفو أم نحن ؟ »

فقاطعه نيومان مشيرا الى برونيكوف : « اسأله . لقد سبق ان اخبرتك بما أراه »

وفى الطريق وجـد برونيكوف وقتا كافيا للتفكير فى الموقف واعداد دفاعه • واستعاد كل العيوب التى كان قد عثر عليهـا فى أثناء ضبطه لآلات الديربنت ، فقد كان محرك الميناء قد أعطى مائة دورة وخمس دورات فى حالة الحيطة ، فى حين أعطى محرك جانب السفينة مائة دورة وثلاث دورات •

وقال فى تحفظ : « كيف يمكن ان تتحدث عن الخداع ؟ لقـد أخرجت المصانع هذه الناقلات فى تسرع ، وأنت نفسك تعرف كيف اضطلعنا بها • فليس هناك ما يدهش فى أن تكون للمحركات قدرات مختلفة » •

« ولكن ها هو ذا بازوف ، انه يحاول ان يحصل منها على القوة المقررة بحسب التصميم » ـ قالها المدير فجأة ، تحفزه رغبة شريرة • وأردف : « اذن من الممكن الحصـول منها على ذلك • أقول لكم من الممكن » • وضرب المدير فجأة على المكتب ، وثبت عينيه المستديرتين الموحيتين بالرعب على برونيكوف قائلا : « انظر ، انه يكتب انه ليس هناك ضغط كاف فى الأعمدة • فلماذا لا يوجد ضغط كامل؟»

وتدلى رأس برونيكوف ، الذى حاول أن يضبط نفسه • وقال نيومان فى صوت خفيض كأنه يقول سرا : « ان ما خفى أكثر مما يتراءى للعيون يا ايفان دانيلوفتش • وقد كان لنا شأن مع بازوف هذا يا ايفان دانيلوفتش ، كان جدلا سمجا » •

وهدأت نفس المدير بنفس السرعة التى كان قد ثار بها • وأخذ يفكر لحظة ، وبدا كأنه قد نسى أن يرفع عينيه عن برونيكوف •

وقال فى عناء : « دع كل شىء كما هو • واذا كان لا بد من عمل شىء ، فان بحارة الديربنت يمكنهم ان يضبطوها ، فنحن لا نستطيع ان نعيد ناقلة البترول ثانية الى الحوض » • وأخذ يجول بنظره نحو الباب فى ارتياح •

وفجأة تذكر المدير شيئا فقال : « آه ، ما يزال هناك سؤال آخر، فان الخط فى حاجة الى مهندس لهذه الديربنت السيئة الحظ ٠ وقد اقترحوا ان نختار واحدا من عندنا ، ليقوم برحلة واحدة ـ كما يقولون ـ ولكنكم تدركون هدفهم ٠ ومع ذلك فلسنا نستطيع ان نصنع شيئا ، فنحن نضطلع بأمر أسطول جديد ٠ فمن تقترحون اذن ؟ »

وأسف برونيكوف لأنه لم يستطع أن يفلت ٠ ومهما يكن الامر فقد كان المدير ينظر الى نيومان ـ ترى أحقا يقترح نيومان ارساله ؟ ربما ، فقد كان برونيكوف هو الذى ضبط آلات الديربنت ، وأحدث حولها مشكلة ، وسيكون فى موقف حرج اذا هو رفض الآن ٠ فأخذ يفكر فى أسباب يتعلل بها ، كنقص فى الخبرة العملية ، أو اصابته بدرن بسيط اكتشف فى رئتيه منذ عامين ، أو أمه العجوز المريضة ، أو الاجهاد العصبى ٠٠

« اننا نشرف على مصنع وليس على مدرسة فنية » ـ قالها نيومان فى غضب ، وأضاف : « من نستطيع أن نرسل ؟ » ـ قالها فى تنهد وهو ينظر الى برونيكوف ٠ وبعد فترة صمت أضاف : « انه يجب أن يكون عضوا فى الحزب ٠ سوف نرسل بازوف » ٠

وتسلل برونيكوف فى هدوء نحو الباب ، وفتحه نصف فتحة ، محاولا الا يحدث ضجة ٠ ووقف هناك فى الخارج برهة ، شاحب الوجه من الاضطراب ٠ وبدا له أن المدير لم يكن لديه أى اعتراض ٠

وتهلل وجهه وأسرع الى الورشة ٠ ولقد بلغ به الفرح أن غفر لبازوف تلك السخافات التى سببها له ٠ لقد كان من الصعب تقرير كيف كان الامر ينتهى بالنسبة لبرونيكوف لو لم يكن هناك ذلك الجسور ٠

* * *

وبذل بازوف وسعه فى أن يبدو راضى النفس ٠ وقد عادت اليه

حالة الهدوء والبهجة الدائمة بمجرد أن كان فى استطاعته تماما أن يتحقق من ضرورة نقله . فقد كان من اللازم ارسال شخص للعمل فى البحر ، وكان أن اختاروه . وربما لم يكن من الممكن أن يحدث هذا لولا ما كان بينه وبين كبير المهندسين من اصطدام ، فعندئذ كان من الممكن ارسال شخص آخر ، ليكن برونيكوف مثلا . وطبيعى أن بازوف لم يكن ساخطا أو آسفا من أجل برونيكوف .

وانصتت اليه موزيا دون أن تقاطعه . وثنت يديها على ركبتيها ونظرت اليه من جنب . وعندما توقف عن الكلام هزت رأسها كما لو كانت تنفض عن نفسها عبئا .

وقالت وهى تتحكم فى نفسها : « يا لسوء حظ ما انتهينا اليه انك سىء الحظ » .

وانتظر منها عبارات اللوم ، وشرحا مؤلما ، ولكن لم يكن شىء من ذلك . وفتحت موزيا صوان الثياب ، وانزلت بعض الملابس المعلقة على الحائط .

وقالت : « يجب عليك أن تستعد . هيا ننظر فيما يجب علينا أن نصنعه » .

ولم تبد عليها الدهشة على الاطلاق ، ولم تتحدث اليه ، بل لم تعره اقل انتباه . وسخنت بعض الماء فى المطبخ ، وأعدت الدلو للغسيل . ووقف بازوف الى جانبها ، يراقب رغوة الصابون المتلألئة تحت ذراعيها العاريتين . وفى تلك اللحظة أحس بحق انها عنده أهم من أى انسان على الارض . لقد دخل فترة غريبة من حياته ، حيث يحمل اليه كل عمل ارهاصات بمزيد من الفشل . فقد وصل بمحرك ناقلة البترول الذى يعمل بالديزل الى القوة المقررة له بحسب التصميم ، فكان نتيجة ذلك انه اضطر الى ترك الورش . وقد أصبح نيومان وبرونيكوف وكثيرون غيرهما بعيدين

عنه . ان العاجزين البلداء من الناس يفكرون فيما وراء حدود ما يمكن انجازه كيما يخفوا عجزهم . انهم يستفيدون من القواعد القديمة البالية والعلم الكاذب . انهم يجتمعون ويثيرون ضجة حول اخطار خيالية ، ويدافعون فى عناد عما يريحهم .

وعادت موزيا الى الحجرة ، وجلست قرب النافذة دون أن تضيء النور . ولفت نفسها فى شال كثير الوبر ، وأحنت كتفيها كما لو كانت تحس بقشعريرة . وأراد بازوف أن يسليها ويدخل عليها البهجة . والواقع انه لم يكن هناك سبب لكونهما مغتمين . وما أكثر القباطنة المشهورين والمهندسين والملاحين فى الاسطول ! وقد ارادت له موزيا أن يحصل على ترقية . حسن ، فها هم أولاء قد أعطوه عنبر المحركات فى الديربنت . وكان الشيء الرئيسى هو فهم الضرورة فى ذلك ، فقد كان لابد من ذهاب شخص ما الى البحر ، واذا لم يكن هو ذلك الشخص فسيكون شخص آخر . فما الذى يدعوهما للشقاق ؟

وقال فى مرح : « هذه نهاية الكسل فى حياتى ، فلم أعد رجلا قعدة . وسوف انزل الى أسفل وأثير الاشباح . اننى – بصراحة – سعيد جدا يا موزيا . أيجب على الانسان أن يرفض عمل شيء لأنه صعب ؟ انك سوف تتلقين نداءاتنا فى المحطة اللاسلكية ، وسوف يرى الواحد منا الآخر مرة كل خمسة أيام . أجل ، كل خمسة أيام ... » .

وأومأت موزيا ولكنها لم تقل شيئا . ولم يستطع أن يرى وجهها فى الظلام . وفكر فيما يمكن أن يصنعه كيما يدخل عليها البهجة للوداع . وكان الجو معتدلا ، وكانت تنبعث من أشجار الاكاسيا رائحة طيبة ، وكان الهواء فوق الخليج أزرق . وفى نادى عمال النقل البحرى كان البحارة يرقصون على أنغام (تانجو) مع طلبة من المعهد الصناعى بمصاحبة جوقة موسيقية ، فأراد أن يأخذ موزيا

الى هناك · ودار القمـــر فوق السقف المسطح للمنزل المقـابل ، وزحفت الظلال الخفيفة للسحب على الحيطان ·

وناداها فى مودة : « عزيزتى ! انظرى ! ما أبدع القمر ! » ·

ورفعت موزيا رأسها فى بطء ، فسقطت من فوق وجنتيها قطرات دموع كبيرة متلألئة ، بللت جانبى فمها ، وسقطت على صدرها · وعضت موزيا على شفتيها وجففت عينيها بطرف شالها ·

وقالت فى لهجة اقتناع : « انك لم تحبنى قط ، ولم يكن لـــك عندى أى تقدير على الاطلاق ·

وكان جو الحجرة هادئا حتى انه استطاع أن يســـمع انفاسها المرتعشة وحفيف ثوبها · وتقدم ليلمس كتفها ولكنها ابتعدت ·

ـ « ولكن ليس هذا ما ابكي عليه ، فلا تحاول أن تفهم المسألة على هذا النحو ، وأنا آسفة من أجلك لانك ذلك الشخص الفاشل · لماذا تحاول أن تبدو مبتهجا ، ولماذا تخدع نفسك وتخدع الآخرين؟ لقد كنت دائما فى نظرك شيئا ثانويا ، وقد جعلت من حياتنا رحلة خاطفة ، فعشت أنت فى تعب كمـــا لو أنك تقيم اقامة وقتيـــة ، فهناك العمل الاضافى ، والاستعداد لحلقـات الدرس والاجتماعات ، ثم النوم · اننا لم نتمتع بالحياة قط كما يتمتع بها الناس · ولكن هذا كله لا يهم ، ولم أتنفس بكلمة واحدة اليك بهذا الصدد · لقد كنت تعمل كثيرا ، ولكن هل حقـــا كنت تعمل ؟ لقـد جعلت من الورشة كلها عدوا لك ، فكل شخص يزور منك ، وليس هـــــذا موقفهم من الاشخاص ذوى الاهمية · ويؤسفنى أن أقول ذلـــك ، ولكنك فى رأيى رجل فاشل ، ضعيف ، مثير للضحك · لقد ابعدوك عن الورش ، وهذه اهانة ، ولكنك راض بذلك · ولو انك ابديت أقل قدر ممكن من الممانعة ، أو ثار غضبك ، لهان الامر عنـدى ·

عندئذ سيأتي فتى آخر بدلا منك ، فتى مخادع عديم النفع ، وسوف يحصل على مرتب طيب ... » .

وكانت دموعها قد جفت ، ولكن صوتها كان فيه نشيج وارتعاش . لقد كانت تسرع في أن تفرغ أمامه كل العبء الذى حمله قلبها . وبدت له في الظلام انها ليست هي موزيا التي كانت أمامه ، بل امرأة غريبة غبية باردة جافة الطبع . فصاح بأعلى صوته في عنف قائلا : « كفى ! » .

ونظرت اليه في خوف ، وحمت وجهها بيديها كأنها حسبت انه سيضربها . وفي الوقت نفسه نظرت اليه بنوع من الامل الغريب . أما هو فتحكم في نفسه ، ورفع الى شفتيها كوبا من الماء ، فشربت قليلا ، ثم دفعت يده جانبا وهي تستشعر خيبة الامل .

ـ « تصوري قولك هذه الاشياء » ـ قالها في حزن ، ثم أردف : « انهم يزورون عني ، هذه حقيقة ، ولكنها كافية تماما لأن يعيش الانسان ، فهم لا يصنعون ذلك الا لانني لم أتركهم قط في سلام . انهم يسيئون العمل في بعض الورش ، وأنا أرى أنه في وسعهم أن يحسنوا ويحسنوا عملهم . وأعتقد أن كل عامل سيتحقق من ذلك وشيكا ، وان كانوا في الوقت الحاضر ما زالوا يستخدمون القواعد العتيقة . وقد وضع قوم هذه القواعد يوما ما ، ولكن كل شيء قد تغير منذ ذلك الحين . وانا ... » .

ونظرت اليه موزيا في انتباه ، وفي عينيها حزن ، كما ينظر الناس الى قريب مريض .. وقد توقف في منتصف الكلمة كما لو أنه كان قد اصطدم بجدار . ترى ألم يكن حقا لاحدهما عند الآخر أهمية قط ؟

وقالت : « كفى ، يا عزيزي ساشا ، فهذه آخر أمسية لنا كما تعرف . وهناك شيء آخر أريد أن أقوله لك . ان اسطول الزيت ـ

أجل ، حتى البحارة يهجرونه ، وهم يخفون مؤهلاتهم ، ويسرقون الاوراق • أظنك لا تعرف ذلك • ومن المفزع اننا سنلتقى قليلا » •

ثم صمتت ، وعلى شفتيها ابتسامة المذنب الفزع •

ـ « أتدرى ما الحقيقة ؟ اننى فى حاجة اليـك يا عزيزى ، ولكن ماذا أستطيع أن أصنع وأنت على النحو الذى أنت فيه ؟ اننى أريد شيئا من الحياة حقا ، أؤكد لك ، فلا تغضب » •

وفجأة استولى عليه جمود غريب • وكانت أصابع موزيا تمسح على شعره وتداعب وجهه • وأحس بلمسة شفتيها لوجنته • ونهض سريعا •

وقال فى عدم اكتراث : « حسن ، اننا ـ آخر الأمر ـ لم يرتبط أحدنا بالآخر ، وتستطيعين أن تصنعى ما تشائين » •

وترك المنـــزل ، وقضى تلـــك الليلة ، وهى آخر ليلة له عـلى شاطىء ، قضاها يتجول فى المدينة •





الأوغـــاد

- ١ -

كانت المياه الخضراء تحدث حفيفا غير منقطع على جانبى السفينة ، وكانت قطع الزبد الابيض تتساقط جانبا فى بلادة ، وتنتشر فقاعات لا حصر لها على الامواج وتنفجر دون أن تحدث ضجة .

« كانت هناك فتاة فرنسية تدعى نيلى »

« تبيع طاقات من زهر الكاميليا »

وكان سطح السفينة المصنوع من الصلب يحترق تحت أشـعة الشمس . والشمس الساطعة تتلألأ فى الامواج ، وتتوهج عـلى (الدرابزين) المصقول المصنوع من النحاس ، ولم يكن أحد يدرى ماذا كانت الاغنية تعنى ، فقد ساقتهم الريح من مكان لا يعـــرفه أحد ، وتلاصقوا كالحلوى اللزجة على شفتى حسين الذى كان يبدأ

في الغناء لهم بمجرد أن ينتابه الكسل • وهو يقعي بجانب باب أرضي ويحملق في الفضاء • وعندما تحترق سيجارته الملفوفة باليد وتصبح رمادا يكون ذلك ايذانا بالنزول الى عنبر المحركات مرة أخرى •

وكان تيار الهواء في أسطوانة التهوية يدوي ، والامواج تتلاحق وتتلاحق ، وهكذا كان الحال بالامس ، وهكذا سيكون غدا •

« وكان صبي انجليزي من أصل طيب »

« يحلم بعينيها الزرقاوين الصافيتين »

ولم يفكر حسين في كلمات الاغنية ، بل كان يبحث فيما اذا كانت هناك طريقة لترك الديربنت قبل نهاية الموسم • أيتظاهر بالمرض ؟ أيحدث مشاجرة في الميناء ؟ كلا ، فليس هذا مقبولا • ولا أمل في الذهاب حتى وان كانت الاسباب مقبولة • ومع ذلك فليس على السفينة رجل تستطيع بحق أن تنشيء معه صداقة • وقد حاول في الرحلات الاولى أن يعرف كل البحارة ، ويدعوهم الى التدخين ، ويقترح عليهم أدوارا في الدومينو • ودفعه ثقل الحياة الى كل ركن في السفينة حيث تكون ضجة الاصوات او الحركة • وذوت جاذبية الطرافة بعد الرحلات القليلة الاولى ، وأصبح الاحساس بثقل الحياة حادا •

وكان دوجايلو ، رئيس ملاحي السفينة ، ينطلق على سطح السفينة طوال اليوم ، وعيناه كعيني العجوز القلق ، تبحثان دائما عن شيء يحتاج الى تنظيم • وهو دائما متعجل ، ولا يجيب مطلقا عن أي سؤال •

وحاول حسين أن ينشيء صداقة مع أليافدين ، الوكيل الثـانى لقبطان السفينة • فبـدأ يخبره كيف أنه طـرد من الخط الملاحى (ى • س) لادمانه شرب الخمر • ولكن فيرا رئيسة الخـدم مرت مسرعة على سطح السفينة ، فهمس أليافدين اليه : « سوف نتدبر هذا » ، وغمز بعينه ، وانفجر ضاحكا ، ومسـح يديه ، ولم يتم حسين قصته •

وقد حاول أن يتودد الى فتيان الخط الملاحى (ى • س) فكانوا فيما بينهم على ما يرام ، ولكنهم كانوا ينطوون على أنفسهم كثيرا • وهناك خمسة منهم : ثلاثة كهربائيون ، وسائق ، ومساعد المهندس كانوا من رجال الاسطول الاحمر المسرحين ، وقد أكسبتهم خدمتهم فى الاسطول حب النظام ، وأناقة ملحوظة فى ملبسهم ، وذلـك التركيز الحازم الذى يشبه التركيز فى العمل ، والذى هـو طابع الناس الذين اعتادوا تحمـل المسئولية • وكان حسين يضمر لهؤلاء الفتية حبا عظيما ، وربما تجاوز حدوده قليلا لكى يتودد اليهم • وقد سأله واحد منهم هو الكهربائى كاتلنيكوف عـن كل تفصيلات مرحه المشئوم ، وأصغى اليه بنظرة يتقاسـمها الهدوء والاشـمئزاز ، كما لو كان ذلك شيئا من الممـكن أن يلوثه • وقد زال فضوله عنـد السؤال الاخير •



- « اثبت من عملك انك ذو قيمة » - قالها فى لهجـة نصح ،

وأردف : « وان كنت لا أظن أن هذا سيثمر كثيرا . إنه لا يكفى أن تدخل الخط الملاحى (ى . س) وتخرج منه هكذا » .

ونظر حوله يلتمس تفسيرا يضع حدا للمناقشة . ولو استطاع حسين لاختفى فى جحر فأر . وتحاشى منذ ذاك الشبان الشيوعيين . ان الآخرين لا يهتمون بقصته ، حسن ، وهو كذلك لن يهتم بهم . ولماذا يهتم بهم ؟ » .

ان الرحلة الى استراخان تستغرق ثمانيا وثلاثين ساعة ، وتستغرق العودة - حيث تكون السفينة خفيفة - ثلاثين ساعة . والبحر دائما محيط من كل جانب ، والسماء الزرقاء فوق الرءوس ، والرياح العاتية . وكان القبطان كوتازوف يقرأ كتبا سميكة فى قمرته ، ويلف رقبته الحمراء بمنديله ، ويتنهد فى عصبية طوال الوقت . أما كازاتسكى ، الضابط البحرى ، فينزل حصيرة الشباك ، ويحكم اغلاق الباب . انه دائما تفوح منه رائحة الفودكا . ولكنه لا يتعثر قط ، ولا يرتفع له صوت مطلقا . وهو كذلك لم يتعطف قط على حسين بنظرة . وأما اليافدين ، الضابط البحرى المساعد ، فيدير الجراموفون فى قمرته ، فتتنق آلة السكسفون ، وتنوح الكمنجة ، وتدق الصنج . وفى الممر الضيق بين السرير وخزانة الملابس يمضى اليافدين يدق الارض برجليه ، ويتعلم خطوات آخر الرقصات الاوربية .

ولم يكن حسين يقرأ كتبا ولا يشترى آخر تسجيلات الجراموفون أو ربطات عنق بلون التبن . ولم يكن يجرؤ على شرب الفودكا . وحين تنتهى فترة مراقبته يروح يضيع عن قصد وقتا طويلا تحت (الدش) لمجرد ان يقتل الوقت . وتصنع رغوة الصابون فقاعات ، وتخز كتفيه انبثاقات الماء الخفيفة ، فان ماء البحر مر . وكانت أنوار الصارى تضوى كالنجوم ، وتأتى من البحر ظلمة باردة

رطبة · وكان يجلس على احد الابواب الارضية ، ويهمهم باغنية حمقاء بطيئة اللحن ·

- « ان كل ما يفكر فيه هؤلاء الاوغاد هو كيف يصلون الى البر · ومن المحتمل أن يهرب قدر منهم قبل أن ينتهى الموسم · ثم يأتى فتية جدد ، ويكون فى استطاعتى أن انشىء صداقة معهم · انهم سيشتركون فى كل شىء على السواء ، وسيكونون معا فى المراقبة السمجة ، لا ينفصلون فى العمل ، وسوء الحظ ، والمشاجرات · انه من اللطيف أن يخرج الانسان فى جولة مع صديق على ساحل البحر ، وأن يوقع على الجيتار (يابلوخكو) (١) ، وأن يرقص فى ضوء القمر ، وأن يقوم بالمراقبة فى الجو السىء ، والبحر هائج ، والبرد شديد ، من أجل زميل ، وان يثرثر بما فى قلبه ، ويمشى وذراعه حول كتف الآخر ، وان يضغط على يد للتوديع والوعد بالمحافظة على الصداقة حتى الموت · ولكن هذا كله ليس سوى حلم فى هذا الوقت ، فعلى الديربنت خمسة واربعون ، بين بحار وسائق وملاح ، ولكن ليست هناك صداقة حقة » ·

وكان كازاتسكى يرافق القبطان على سطح الصوارى ، ويده تحت كوع القبطان ، وعلى وجهه ابتسامة ساذجة مذهلة · وقد كان كازاتسكى ، الوكيل الاول للقبطان ، هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يبتسم هكذا · أجل ، فهكذا كان يبتسم عندما ضغط على الفتاة فوق المصد بين العربتين بالقطار ·

- « اوه ، لا تهتم بهذا يا افجينى استفانوفتش ! » · لقد كان كازاتسكى يحاول أن يقنع الرجل العجوز · وأردف : « انهم يثيرون شغبا فى الادارة لاننا تأخرنا قليلا · لقد آن الاوان لان تتعود

(١) اى التفاحة وهى اغنية شعبية روسية ذائعة بين البحارة - المترجم

ذلك . وبجانب هـــذا فانت مذكور عندهم فى القائمـــة البيضاء يا صديقى العزيز » .

يا لهما من صديقين ، ذلك القبطان ووكيله الاول . ولكن بعـد مضى ساعة عاد كازاتسكى الى ســطح الصوارى ، وكان يصطحب هذه المرة أليافدين .

ـ « ان الرجل العجوز قد أصابه سهم عن طريق اللاسلكى » ـ قالها كازاتسكى وهو يشكل وجهه بحسب ابتسامته الرســمية . وأردف : « انه رجل مهذب لطيف .. ولكن فيه جبنا وضعف ارادة، واذا حدث خطأ فى شىء فانه سيوجه اللوم كله الينا . وســوف ترى » .

وفيما هما يمران بحسين كانا على وشك ان يصطدما به .

ان اليافدين ، الوكيل الثانى للقبطان ، ربما همس الى شخص آخر فى ايجـــاز . أجل ، لم تكن على الديربنت فى الواقـــع أى صداقة ، وكل ما هنالك عرض مصطنع لها ، كالسير مع تشـــابك الأذرع ، وعبارات الثناء المؤدبة ، والوخز الحذر بالعبارات الحصيفة السامية تحت ستار من الابتسامة المذهلة . لا فائدة لديه من هذه الصداقة .

ولكن أسوأ ما فى حظ حسين هو أن رئيسه المبـــاشر لم يكن بطاق . ولو كان له الخيار لاختار كازاتسكى او اليافدين . لقـــد كان بازوف ، كبير المهندسين أسوأ من كليهما ، بل أسـوأ من أى شخص آخر من الخمسة والأربعين رجلا على الديربنت .

كان بازوف ينزل الى عنبر المحركات خلال كل فترة من فترات المراقبة . وكان يشبه رجلا يعانى على الدوام من ألم الاســـنان ، وكانت عينـــاه ملتهبتين . وهو يقف فى انحناء قليـــل ، وكوعاه بعيدان عن جسمه كأنه عريق فى طلاء الصلب . وينتشر الميكانيكيون

والبرادون والسواقون فى كل اتجاه حول هـــذا الشخص الذى لا يتحرك • لقد وقف تحت ضوء المصابيح الخافت ، يحمل على كتفيه كل مسئولية آلات الديربنت ذات الاسطوانات السبع التى تهدر فى عنف •

وظهر على الرصيف العـلوى سائق متأخر • وانزلقت يداه على درابزين السلم المشحم ، وكانت رجلاه ، وهما ما زالتا متوقفتين من أثر النوم، تنثنيان تحته • وعندما وصل الى القاع والتفت حوله خفف كبير المهندسين من ضغطه المحكم على شفتيه ، وقال :

« أنمت نوما طيبا ؟ اذا لم تكن فانك تستطيع أن تعود ، وسوف نعمل بدونك » •

وتلاشت رنات صوته الضعيفة فى الطنين ، ولكنك كنت تستطيع أن تحدس كلماته من حركات شفتيه • لقـــد كان كبير المهندسين نفسه ذات يوم سائقا من الدهماء • هكذا قال البحارة • فكان من الممكن أن يمنح العمال قليلا من الرحمة • ويحتمل أن يكون عـــدم النوم الذى جعل عينيه حمراوين قد جعل قلبه جامدا كذلك •

وكان حسين يقول وهو ينظر الى ظهره العريض نظرة كراهية « ابن العاهرة ! وعضو فى الحزب كذلك ! سفاك الدماء ! » •

ولم يتأخر حسين نفسه قط عن نوبة مراقبته ، ولم يوجه اليـه كبير المهندسين قط كلمة فظة ، ولكنهما كانا يتحاشى الواحد منهما الآخر ، ويعد كل منهما الآخر عدوا له • ولا شك ان ذلك سيصل بهما الى التصادم يوما ما •

وذهب بازوف قرب انتهاء فترة المراقبة الى الطوار العلوى حيث المحركات الكهربائية وكان الجو هنـــاك هادئا ، ودافئا ، ورطبا نسبيا • وكانت مولدات الكهرباء تهمهم فى لطف خلف اللوحات • وانحنى بازوف على الدرابزين وأصغى الى ضربة الآلات • وحـدث

شيء غريب ، فقد تجمع الميكانيكيون والسواقون والكهربائيون من كل أركان عنبر المحركات ، دون أن يطلبهم الرئيس • وصعدوا فى السلم ، نصف عراة ، يلبسون سراويل قصيرة ، وصدارى بغير أكمام ، قد لوثت بالشحم • وكانت انهار من العرق المتسخ تنحدر على وجوههم التى وردتها الحرارة • اما الذين سبقوا الى هناك فقد استندوا الى الدرابزين بجانب بازوف ، وأما الباقون فقد تجمعوا فى المؤخرة •

وقال بازوف : « ان محرك البوابة يحدث مائة دورة وثلاث دورات ، ومحرك الجانب الايمن يحدث مائة دورة وخمس دورات • وأنا متأكد اننا نستطيع أن نحصل من كلتيهما على مائة دورة وعشر دورات » •

ووكز الرجال بعضهم بعضا وصعروا وجوههم • فالسفينة كانت قد نفدت منها المؤن • أما حسين فقد أثار فيه هذا الزهو غضبا •

وسأل فى غيظ : « أيها الرفيق يا كبير المهندسين ، لماذا اذن لا تحاول أنت ؟ ليس فى الأمر شيء ، فهيا انزل الى العمل وافحصه! »

ونظر الى رفاقه ينتظر منهم الموافقة على كلامه •

فقال بازوف فى هدوء : « لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل بنفسى • ثم انه ليس عملا بسيطا كذلك • ولكننا ، أنا وأنت ، سوف نفحصه سويا على خير وجه » •

وانتعش ورفع رأسه •

ـ « ان السواقين يعرفون مثلى العيب • فالمحاقن أولا تتلوث • وهذا معناه أن يكون انتقال الوقود الى الاسطوانات غير منتظم • وأطواق المكبس ثانيا ليست صالحة • وهذا هو السبب فى أن الضغط غير كاف • ان مهندسى التفتيش يعيشون فوق البر ، اما هنا على السفينة فيعيش البحارة » •

وتزحزح حسين الى أمام ، وأسند كوعيه دون وعى منه عـلى آكتاف من كانوا بجـواره . ومرت ظلال قاتمـة فوق وجه كبير المهندسين الذى خفض رأسه فى بطء كأنه يستعد للاندفاع لمواجهة عقبة غير منظورة .

- « ان بعض السواقين يخشون أن يمسوا محركا ضبط عـلى البحر . وليس هنا مكان لاشباههم . والاولى لهم أن يبحروا عـلى الصنادل . انهم ليسوا بحارة . لابد أن تضبطوا آلتكم بأنفسكم مرة بعد مرة ، وعندئذ ستكشف لكم عما بها ، وتضرب بقـرار موافقتها عرض الفضاء . أمصيب انا أم لا ؟ » .

وألقى نظرة على الرجال الواقفين فى صمت حوله ، وتلاشى الضوء من عينيه . ومسـح على جبينه بيـده وداس برجله عـلى عقب سيجارته . وتوجه السواقون والكهربائيون والبرادون صفا نحـو الباب . أما حسين فكان يأبى الذهاب . وكان أمامه ظهـر بازوف بعظامه الغارقة فى العرق . ولو انه التفت لوجد حسين الشجاعة لأن يتحدث اليه ، ولكن بازوف أسرع الى عنبر المحـركات ، وكان آخر ما رآه حسين هو ظهر رأسه المتجمع على شكل قمع .

وفيما هو متجمد فى مكانه استعاد بقوة العادة موقفه الدفاعى من العالم المتعثر ، فقال : « يحاول أن يكسب سلطة ، أف له من نتن ! » .

ولم يكن هناك شخص يستطيع حسين ان يتحدث اليه ، ولهذا فانه كان ينصت فى شـغف الى الآخرين . وقـد عرف ان كبير المهندسين لم يكن محبوبا على السفينة .

وقال القبطان وهو يتنهد : « لقد مضوا وجعلوا على رئيسـا . وقد أخبر مساعدى السياسى اليوم انه من الممكن انجاز الشحن على نحو أسرع . وهو ربما جاء غدا يراجعنى فى كل ما أعرف » .

وكانت عينا القبطان ممتلئتين بخوف عظيم يرجع الى الشيخوخة ، ولكن ابتسامة كازاتسكى المذهلة كانت معينة له .

ـ « ايفجينى استفانوفتش ، يا صديقى العـزيز ، ان مهندسنا المحترم ليس على صـواب تماما » ـ وتحركت اصبعه الى جبهته ، واستأنف : « هل يستحق الامر الفزع ؟ » .

وطابت نفس حسين حين رأى انه لم يكن البائس الوحيد ، فقد كان هناك رجل آخر بالقرب منه ، محـوطا بنفس حائط العـداء الصريح . ولكن يبدو ان بازوف لم يكن يلاحظ ذلك . وقـد ظل أثناء الشحن ينظر فى ساعته . وحاول ان يتدخل ـ انه فتى بائس مضحك ، لا يتفق مـع الآخرين ، ذو عينين حمراوين ملتهبتين . وماذا تستطيع ان تصنع مع اوغاد كهؤلاء ؟ لقد صادفت فتية افضل منهم على سفن الشحن ، حيث كان العمل اسهل ، وفترات الراحة على البر أطول ، والمكافأة اكثر انتظاما . ولكنك هنـا تجد كل من تصادف أنه كان عاطلا على البر عندما انزلت الديربنت الى المـاء . كان قدر كبير منهم مخمورين معتلى الصـحة ، لا يصلحون لشىء . انهم يدخنون على ظهور الحمولة مخالفين الاوامر ، وينتقلون هنـا وهناك فى بطء وبلادة كالذباب النائم . لقد كان كوزوف ، وهـو سواق ، يفتش فى ذلك اليوم مضخة التشحيم . وما ان رفع الغطاء قليلا ، وتلوثت أصابعه بالشحم حتى نظر الى حسين ، ولفت وجهه بعيدا فى تقطيبة مضحكة . وقد ابتعد عنه حسين . ألم يكن الامر عنده على حد سواء ؟ فليعمل المهندس بنفسه ، وليرتح السواقون ، وليدخن البحارة على ظهر السفينة ، وليعقـد مديرو الخط الملاحى (ى . س) الاجتماعات ، فان الديربنت لم تكن تنفذ الخطة المرسومة لها ، وكانت فى نهاية القائمة هذا الموسم . وماذا يهم !

- ٢ -

ووصلوا الى الطرق متأخرين مرة أخرى . وكانت ريح ربيعيه شمالية قارسة البرد تصفر فى شظايا الزبد فوق رؤوس الأمواج وتقذف بها على سطح السفينة . وقد دفعت فى السماء من عند الأفق ستارا من السحب حجبت نصف السماء ، وانسابت فوق الرءوس ممطرة رذاذا .

وفى قمرة اللاسلكى كان لدى فولوديا ماكاروف عمل يقتضيه السهر ، فظل يحك عينيه بقبضتيه ، وينثر ماء البحر عن وجهه ، وجلس الى جهازه وتنهد فى الميكروفون .

وانطلق صوته يقول : « استراخان ، خطوط استراخان ، لماذا تؤخرون صنادلنا ؟ » .

وظهرت الشمس فى الشرق ، فكانت قرصا قاتم اللون ، تحيط به سحب ممطرة متراكمة كالموج . وعلى سطح الصوارى كان غطاء القماش لاحد قوارب السفينة قد اتسع عنه قليلا بفعل الرياح ، فكان يرفرف محدثا ضجة صاخبة .

وقال فولوديا : « استراخان ، لقد أبلغنا بطريق الراديو عن وصولنا فى الوقت المناسب ، فأين الصنادل ؟ » .

وابتعد عن الميكروفون وبدأ يسب ويلعن والضيق يأخذ بأنفاسه، ونظر كوتلنيكوف كبير الكهربائيين خلال نافذة قمرة اللاسلكى .

— « اتصلت بهم يا فولوديا ؟ » .

وأومأ عامل اللاسلكي دون أن يتكلم ، وتناول سماعة الرأس ، وحول الجهاز للاستقبال ، وبدأ يكتب .

وفجأة قال كوتلنيكوف : « لو خلي بيني وبينهم لطردتهم جميعا ، القبطان ووكيلا القبطان وكل أولئك الاوغاد على البر . يجب أن يطردوا وأن يعين غيرهم ! » .

وكان عامل اللاسلكي يكتب ، منحنيا على ورقته ، وطرف لسانه بارز من فمه .

وشرح الموقف فقال : « يقولون ان خطأ قد حدث ، فقد أخذت حاملة البترول « آجاماليا » صنادلنا . فمن تراك اذن تطرد أيها الرفيق ؟ » .

- « اطردوهم جميعا . أو تسميهم قادة ؟ انهم سقيمون لم يبق فيهم عقل . اننا سنصير أضحوكة ، فقد وفرت خدعة الصنادل هذه أربع ساعات للأجماليا . لقد مرت بنا في البحر ، وهي الآن في طريقها لأن تفوقنا في البدء بست ساعات . ولكن ليس هناك من يهتم بذلك . انهم يسخرون منا في مكتب (التشهيلات) ، وعلى السفن ، وفي مكتب الضرائب . اننا لم نحصل على مليم واحد مكافأة . انها حقيقة ! » .

ورسم فولوديا في هامش دفتر التسجيلات شراعا ذا ثلاثة أركان ، ورأسا مدبب الأنف يحيط به دخان . ثم ثنى رأسه جانبا وراح يتأمل رسمه وهو يمص قلمه .

وقال في تقطيب : « هأنذا أنبح في جهاز الارسال نصف ساعة. وكان من الممكن أن أصيح بالمثل في اسطوانة التهوية . عليهم اللعنة ! ومن ذا الذي يقدر عملي هنا ؟ لقد قطعنا في شهر واحد ما لا يقل عن نصف مليون طن ميلي . وماذا بوسعي أن أصنع في هذا ؟ » .

- « انها حقيقة » .

- « لقد بدأوا بالأمس ينقلـــون الزيت الى الخـزانات دون أنه يسحبوا منها المياه المثقلة لها . وارتجف القبطان كالمرأة العجـوز عندما أخبره بذلك . ثم سمعت كازاتسكى يقص القصة على موظف حكومى - كان يبدو أن المضخات هى الملومة على ذلك » .

- « انها ورطة يا فولوديا » .

- « ولا يمكن أن يكون هناك أدهى منها » .

فقال كوتلنيكوف : « ان المساعد السياسى رجل لطيف . وهـو قد يحمل الشحنة على كتفيه اذا لزم الأمر ، ولكنه لا يعرف شيئا عن الملاحة ، ويخشى أن يتدخل فى أوامر القبطان . والى جانب ذلــك فانه مريض بالسل ، ولا أظن أنه سيمكث طويلا .

وفى نفس الوقت كان فولوديا يرسم غواصـــا بملابس الغوص كاملة ، وقد ابتسم ابتسامة رضى عن نجاحه فى رسمه .

- أتدرى يا (ستيبا) ؟

- ماذا ؟

فخفض عامل اللاسلكى صوته ومر بلسانه على شفتيه الموردتين وقال : « هيا بنا نهجر هـذه السفينة . اننى أعرف أين أذهب . سأذهب الى (ابرون) ، فهم الآن يرفعـون السفن التى غرقت فى (بريوخاياكوزا) ، فهناك عمل !

- انهم لن يسمحوا لنا بالذهاب . هكذا تمتم كوتلنيوكوف وهو يلتفت حوله . وأضاف : « كيف نستطيع ان نترك حاملة البترول ؟ وسوف يعنى هذا أننا قد صرنا من الصفر أسرع ممن ليسو أعضاء فى الحزب . لا ، دعك من هذه الفكرة ... »

فمضى فولوديا يقول : « ان هناك عملا لك أيضا ، فقد عرفت ذلك . وربما لا نجد مشقة بخصوص الأوراق . ولكن لا ، فمن المحتمل انهم سيسحبون بطاقاتنا الخاصة بالخط الملاحى (ى. س.) » .

- « لا تقل هراء ! » قالها كوتلنيكوف وتحرك كأنه يريد أن يذهب . ولكنه ظل بقرب النافذة . وكان بادى الارتباك والاهتمام، فقد كان لاقتراح فولوديا أثر المغناطيس عليه .

وقال فى شك : «هل نحاول ذلك عن طريق لجنة الحزب الفرعية؟» ولكن لا ، فهم لن يسمحوا لنا » .

- هذا هراء ! اننا لسنا عبيدا لأننا ببساطة ننفذ الأوامر . وكم بودى ان أراهم يبقوننى هنا ضد ارادتى ! »

فقال كوتلنيكوف فى حزم وان لم يبد عليه أى حماس : « أجل ، ليس ترك السفينة هو المطلوب » . ثم أضاف : « ربما استطعنا فيما بعد ان نرتب الأمور . والى جانب ذلك فاننى رئيس لجنة الاتحاد التجارى لسفينتنا . ومع ذلك حاول أن تعرف رأى ابرون، لمجرد التأكد » . وابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول كلماته الأخيرة .

ودقت خطوات دقات جوفاء غير مسنوية على سطح الصوارى وضاعت مع الهواء .

وهمس فولوديا : «هذا بازوف ، انه لم يسمعنا ، أليس كذلك ؟»

- « لست أدرى » ، قالها كوتلنيكوف واستدار بعيدا عن النافذة . وأضاف : « حسن ، يكفى هذا الحديث المروع ، فليس هذا من عمل صغار الشيوعيين . هذه هى الصنادل مقبلة على الفور ! » .

- ٣ -

كانت الأمواج الخضراء الشاحبـــة المختلطة ببقع الزيت البنى اللون تزحف فوق المرسى كالحيوان المروع سريع العدو · وكانت الصنادل تحييها بصريرها وبميل حريص من جوانبها الصـــــدئة العمودية · وألقى الرفاس الأسود الذى يشبه اللعبة سلبة القطر فى الماء ، وأطلق صــفارة تصم الآذان ، وانطلق يشق الأمواج ، تاركا خلفه جرة زبدية تدور كالدوامة ·

وعملت مضخات الديربنت ، واهتز سطح السفينة قليـــلا ، وارتفع تدريجيا فوق سطح الماء · وكان بازوف يقف على القنطرة قرب الدرابزين ، وقد ضغط بكوعيه على جانبيه ليحتفظ بدفئه ·

ـ « ان هذا البحر لم يأخذ الشكل الصحيح » · قالها دوجايلو ، رئيس الملاحين ، الذى كان يقف بجوار بازوف ، وأضاف : « بل أستطيع ان أقول ان هذا الكاسبيان قد استقر على نحو أخرق » ·

وضرب الى أمام بمقدم حذائه الضخم ذى الرقبة ، الذى كان يبدو كأنه سبك من الحديد الخام مع الرجل نفسها ·

ـ « ان بحرنا يجف ، ويزيد من رقعـــــة التربة · هل تعرف دافشيا باشنيا(١) فى باكو ؟ انها على بعد دقيقتين من البحر الآن · وهناك أسطورة تقول ان الأمراء اللئام سجنوا فيها فتاة بائسة ،

(١) اى قلعة العذراء ـ المترجم

وانها ماتت كمدا . وكانت القلعة عندئذ تقع فى الماء . ثم انحسر البحر ، تاركا الصخور عارية . وهـذا تماما ما يحدث فى مراسى استراخان ، فقد كان من المعتاد أن يكون الماء هنا عميقا ، أما الآن فمن الخطر على السفينة التى يزيد غاطسها على عشرين قدما ان تقترب الى ما بعد جرف تايلن . ان المـاء يحيط بالمكان على مدى البصر ، ولكنه غير صالح للملاحة » :

وكان صوت رئيس الملاحين مرتفعا ولينا ومنغما . ونظر بازوف فى دهشة الى تفاحة آدم رئيس الملاحين التى بدت كأنها تنبثق من ياقة معطف النوتية الذى يلبسه ، وقال فى لهجة تأكيد :

ـ اننا سوف نطهره وشيكا ، وعندئذ ستستطيع ناقلات البترول أن تذهب مباشرة الى استراخان دون الحاجة الى الملاحة التوصيلية .

فضحك دوجايلو ضحكة هادئة ، ونظر الى بازوف نظرة شفقة وديعة ، وخلع قبعته فى بطء ، فأطار الهواء شعره الكث المبعثر على رأسه الذى كان على شكل البيضة .

ـ ليس هناك صعب بالنسبة لك ، فأنت تستطيع أن تصنع أى شىء . ولكننى أظن أن الناس قد كدوا أذهانهم فى ذلك قبل ان تتعلم أنت ، ثم صرفوا أنظارهم . والسبب هنـا هو طرح البحر والتيارات الغادرة . انها سوف تدمر عملك وتسد قنواتك بالرمال . أجل ، انك لن تستطيع تنفيذ ما تريد ! ونطق الكلمات الأخيرة فى نغمة انتصار ، وقد صوب الى بازوف نظرة تحمل عدم الموافقة . أما بازوف فلم يكن لديه ميل للمناقشـة ، فراح يتمشى بعيدا على القنطرة .

وعندما فرغ الكلام والعمل تذكر بازوف رجاله فى المصـانع . كأولئك البرادين ، وفورون قائد الفرقة ، وايبات الخراط الصغير . لقد كان فى الديربنت أقسام كثيرة ، وغرف وآلات . وكان عليهـ

كثير من الناس يؤدون أعمالا مختلفة ، ولكن لم يكن لبازوف صديق من بينهم . فقد كان ينظر الى أولئك الذين حـــوله ، ولكن ما ان تتقابل عيناه وعيونهم حتى تتجهم الوجوه ، وتضيق حدقات العين، وتختفى بين أهداب الجفون . لقـــد كان الرجال ينتشرون أمامه ، وكلهم كسالى متشابهون بصورة غير مفهومة . وكان نشاطهم يبدو متكلفا ، وجديتهم غير معقولة . كانوا يمشون فى صمت ، كأنهم فى حلم ، فى الممرات الضيقة بعنبر المحركات ، ويبتلعون الهـــواء الساخن ويجلسون حيثما اتفق . وكانوا يديرون اطارات الآلة فى صمت وقد نتأت عضلاتهم من ظهورهم المبتلة . وقبل تغيير مناوبة المراقبـــة يتجمعون على الرصيف العلوى ويصغون الى شروحه ، ويحملقون فيه كأنه اعجوبة من بلاد أخرى . وفى بعض الأحيـــان كان يظهر دون أن يلحظه أحد ، فيرى حسين السواق يقعى ويتمايل وهو يهمهم لنفسه بأغنيـــة تافهة ، أو يرى سائقين آخرين همـــا كوزوف وجازاريان يحدقان فى الضوء فى عناء ، وحـــول عيونهم انعقدت حلقات سوداء من الدخان .

وقد يقول واحد منهم : « أتسميهم بحارة ؟ انهم يجب ان يعودوا من حيث أتوا ، وأن يحشد غيرهم بدلا منهم » .

ـ آه يا صديقى العزيز ! أتسميهم بحارة ؟

ويتفق الاثنان أحدهمـــا مع الآخر فى اغتباط كأنهما وحـــدهما البحاران الحقيقيان على السفينة ، وان الديربنت تحتاج الى كثيرين أمثالهما . والواقع انهما كانا يكذبان الواحد منهما على الآخـــر ، وكان الواحد منهما يكذب على نفسه . وفى الحق لقد كفا منذ أمد بعيد عن بذل أى اهتمام بالأطنان الميلية ، أو عدد لفات الآلات .

وانسابت على الأسطح فيضانات من الماء من الصنابير المفتوحة ، وجرت أنهارا فى كل جانب ، وقد غطيت بطبقة من التراب . وكان البحارة يمشون على السطح الصلب المبتل الزلق ، وكل منهم يدفع



فى عنـاء ممسحته الملفوفة فى قمـاش يمتص المـاء · وكان دوجايلو يحـدث بينهم ضجة وهـو يروح ويجىء كالمكوك · وتسلق أحـد البحارة ، وهـو خـروليف ذو الذقن الحليق النظيف ، فوق مؤخر السفينة ومعـه جيتاره ، وسيجارته خلف أذنه · وحـين طـوح بخصلة شـعره الشـقراء المتموجة من فوق جبينه راح يداعب الأوتار :

« يسألنى الطبيب : أين الألم ؟ »

« ان بقلبى هيام سبعة عشاق »

« يالها من امرأة ! »

ومضى بازوف نحو سطح مؤخر السفينة · وتتبعت نظرته بصورة آلية نورسا يدوم فوق الأمواج · وهبط الطائر ككرة بيضاء مشربة بحمرة ، وهفهف الماء بجناحه · ووقع خروليف نغمة نواح أخيرة على الأوتار ، وتثاءب ، ونظر الى بازوف فى غير مبالاة ·

وعند مدخل عنبر المحـركات ، وفى طنين الآلات الممل ، راح بازوف يصور لنفسه ذلك العالم الصغير الذى يحيطه خط الافق الأزرق ، فتصـوره حقيرا حائلا كالعين المتورمة ، يرضى فيـه كل شخص عن تفاهته الخاصـة ولكنه يحتقر الآخرين لتفاهتهم · « يا صديقى العزيز ، أتسميهم بحارة ؟ »

لقد كان بازوف يعد فى الورش منظما ناجحا ، ولكن الورش وجدت قبل ان يأتى هو ، ويمكن ان تستمر قائمة بعد ان غادرها

أما هنا فان كل شيء لا بد ان يبدأ من احتكاك · وكيف ؟ لقــد ضايقه عجزه ومجهوداته غير المجدية لتحسين الأشياء ، ولكنه لم يكن من طبعه عدم الاكتراث ، وأخــذ الأمور باستهانة ، وحبس نفسه في قمرته · وقد ظل عقـــله المتزن ـ رغم ان التعب أضناه وأعياه ـ ظل يؤرقه ويدفعه ، فكان عليه أن يعمل ، وان يبدأ كل شيء من جديد ، وان يحتفظ بالرجال عندما ترسو السفينة ، وان يفحص الآلات لترميمها ، وان يزيد من الدورات ···

ووقف ايفجينى اســتفانوفتش كوتازوف بجوار نافــذة قمرته وراقب زوجته وهى تضع أمتعتها على المائدة · وكانت لفـــة من الصحف ، وزجاجة نبيذ ، وبعض القهوة ·

وسطعت أنوار المدينة خلال النوافذ نصف المفتوحة · وقد كانت فى بعض الأحيان تكتسى بلون أسود قاتم نتيجة للدخان الكثيف ، فتبــدو كأن السحب قد هوت الى الأرض ، وراحت تزحف فى الشوارع ·

وقالت ناتاليا نيوكولايفنا : « ان آل (زلنتزيف) قد طلبوا الى أن أذكرك بهم ، وكذلك (دينيك) و (سيموخا) وزوجها · أتسمع لى يا افجينى ؟ »

وجاءت من المرفأ صيحات مع صليل سلاسل الرافع · وزحفت عبر النافذة ظلال ممتدة كثيفة تشبه أرجل العنكبوت ·أ ما الأسماء التى ذكرتهـــا زوجته فكانت أســـماء زملائه القدامى فى قسم التسجيلات ·

ـ « هذا غاية الكرم منهم » · قالها ايفجينى اســـتفانوفتش · وأضاف : « ألك أن تعطيهم ··· »

وأقبل شخص ما مسرعا فى الممر وطرق الباب ·

فقال ايفجينى استفانوفتش مستفسرا : « من بالبــاب ؟ وماذا تريد ؟ »

- ان كل شىء على استعداد للشحن يا افجينى استفانوفتش ، فهل لنا أن نبدأ فى عملية الشحن ؟ »

- أجل . وتردد ايفجينى استفانوفتش لحظة عند الباب ، واصبعه على المزلاج . واقتربت الخطوات من نهـــاية الممر . وفجأة فتح ايفجينى استفانوفتش الباب فى قوة وصاح اليه :

- مهلا يا رفيقى . اســـأل كازاتسكى ، فالآن نوبته ، وهو الشخص المسئول .

وجاءه الجواب : « أجل ، أجل ، أيها القبطان ! اسأل كازاتسكى»

ولاحظت ناتاليا نيوكولايفنا زوجها فى انتباه . وبعد فترة صمت قصيرة سألته :

- ومن كازاتسكى يا ايفجينى ؟

- « حسن ، انه ... » وتوقف ايفجينى اســـتفانوفتش عن التفكير . ثم أضاف « انه الوكيل الأول للقبطان ، وهو يكن لى عظيم الاحترام ، ونحن متفاهمان . والذى يعجبنى فيه لباقتـه الغريزية وثقافته العظيمة . انه يبدو انسانا يمكن الاعتماد عليه . ولهـــذا نحاول معا ان نتعاون فى مستشفى المجانين هذا » .

فقالت ناتاليا نيوكولايفنا : « ان السبب فى اننى سألتك هو اننى أشعر ان هنا شيئا فاسدا . وهناك كلام كثير يدور فى الادارة عن الديربنت . ألست تبعد فى ثقتك برجالك يا افجينى ؟ »

والتفت كوتازوف نحو الباب ثم نحو النافذة . وتغير وجهه فى لحظة ، واحتلت ابتسامة ضيق مضطربة مكان وقار الشيخوخة ، فى حين تثنى جانبا فمه بأسى ممض .

- « اننى أنا نفسى منزعج قليلا يا عزيزتى » . قالها وهو يخفض صوته كأنه يلقى بسر . وأضاف : اننى أشعر أحيانا ان هناك شيئا

يحدث حقا من حولى . ان هؤلاء الرجال مثلا حين أراهم يقفون أمامى وينصتون الى ، فاننى لا أعتقد انهم يمكن أن يخدعونى ، ولـكننى عندما أخلو الى نفسى ... »

- لا تنفعل . عندما تخلو الى نفسك ماذا يحدث ؟

- يبدو ان كل شىء خلاف ما أرى . اننى لست كبير الثقة كما أبدو ، فقد حدث بالأمس ان تأخرنا تأخرا مذهلا ، وبعثنا برسالة عن طريق الراديو نبين فيها كيف ان الطقس كان معاكسا . والواقع انه لم يكن هناك طقس ردىء يمكن الحديث عنه ، بل كانت الرياح معتدلة . ولكن كازاتسكى خبير فى فن الاقناع ، وهو يأخـذ على عاتقه دائما كتابة برقيـات كهذه ، ولكنها فى هذه المرة كانت فى الواقع خلاف الحقيقة .

وفارت ناتاليا نيوكولايفنا غضبا .

وقالت : « اذن فلماذا جننت ووافقت ؟ ألا ترى ان هذا ليس من الصواب ، وانه عمل دنىء . لماذا استسلمت له ؟

- صه ! لا ترفعى صوتك ، أرجوك . لقد استسلمت لأننا كنا فى الحقيقة فى مأزق حرج . وهذا الشيطان يعرف سبب تأخرنا فالأمر ما تركونا ننتظر الصنادل فى المراسى . ثم ان المضخات كانت سيئة ، وهذه ليست مسئوليتى . ان كل شىء هنا غاية فى البطء . كأن نوعا من التلف العـام قد حل بالمـكان . وقد تسرعت ادارة المستخدمين كثيرا فى جمع البحارة . وهذا عمل غير موفق اطلاقا » .

وانتهى الى صمت كئيب ، وراح يحك بقعة فوق كمه بظفره .

ثم قال : « لقـد ضاق ذرعى يا ناتاشا . وأسـوأ ما فى الأمر الفزع الدائم . ان السفينة قد جهزت بالأوغاد الرعاع المنحطين . ثم انها سفينة جديدة ، ودولاب أجهزتها معقد مذهل ، وفى خزاناتها

شحنة قابلة للاحتراق. وأعتقد انه لو قد صرخ شخص ما «الحريق!» اذن لانفجر قلبى . أما المساعد السياسى فرجل مريض ، وأما كازاتسكى فيروغ من كل شىء . ثم ان بازوف ـ كبير المهندسين ـ يحاول ان يستثير السواقين . ولكن الغريب أن هذا الفتى يكرهنى ولست أدرى السبب . انه يبدو لى اننى أعاملهم جميعا معاملة لطيفة ، ولا أوجه الى كل منهم الا الكلمة الطيبة ، ولكنه ينظر الى وفى عينيه بغض ، ويكاد لا يجيب على أسئلتى . ويقول عنه كازاتسكى انه شاذ ، ولكن ليس هذا صحيحا وهو ربما كان يرصدنى ... ألم تقولى ان هناك نوعا من الشائعات ؟ »

وفى المرآة المقابلة رأى ايفجينى استفانوفتش وجهه العجوز الحزين ، فتحسر على نفسه حتى انه كاد يبكى . ألم يكونوا جميعا رجالا خداعين يدبرون له المكائد الوضيعة وينشرون عنه الاشاعات ؟ ومع ذلك فانه لم يطلب شيئا ولم يتمن أى أذى لواحد منهم . أكانت غلطته أنه لا يعرف شيئا عن آلات الديزل والمضخات ؟ أكانت غلطته انه حساس ولا يمكن أن يقسو على الرجال ؟

وأحس ايفجينى استفانوفتش بحالة رقة القلب تزحف الى نفسه. وهى حالة لا تستولى عليه الا فى حضور زوجته ، وتنتهى دائما باتهامه لنفسه اتهاما هادئا ، وتقديم الاحتجاجات من جانب زوجته .

وقال فى لهجة أسيفة : «اننى لا أستطيع أن أقهر ارادة أى شخص آخر يا ناتاشا ، فالمنازعات تؤذى نفسى ، وتكون نفسى راضية عندما أستسلم للآخرين . ولكن لسوء الحظ ليس هذا ما تتطلبه الحياة» .

وتوقع اعتراضات تتفق وطبعه ، وتخفف عنه شعور عدم الرضا عن نفسه ، وعندئذ يطيب خاطره ، كالطفل الذى أجهش بالبكاء على صدر أمه . ولكن ناتاليا نيوكولايفنا بدت فجأة معجلة .

وقالت وهى تنهض : « آه ، لقـــد نسيت · انه منديل نظيف يا افجينى · لقد أمسكته بيدى طوال هذا الوقت · هاك ، خذه » ·

ومسحت على شعره وقبلته ، ثم انطلقت مسرعة كأنها خشيت أن يعود الى الكلام ·

- « انك سوف تتغلب على كل شيء ، على نحو ما » · قالتها فى تلطف ، وأضافت : « أرجوك ألا تنسى ان تلبس معطفك الفرو أثناء نوبة الليل ، فالليالى ما زالت باردة جدا · حسن ، لقد حان الوقت ، وأظن أنه ينبغى عليك يا افجينى أن تذهب الى القنطرة الآن » ·

وقبل الغروب خـرج بريديس ، المســاعد السياسى ، على ظهر السفينة • وكانت شفتاه ، وقد لوحتهما الحمى والمرض ، تشبهان جروحا قاتمة نصف مندملة • وكانت الأجزاء الحمراء الملتهبـــة المستديرة فى وجنتيه الشاحبتين تنبىء عن أثر خادع للصحة • ونفخ فى يديه الباردتين ونظر حوله •

وفى نهاية البحر كان شريط أصفر من الساحل غارقا فى أشـعة الشمس الغاربة ، والبحر يسطع فى صفاء مذهل ، وكانت السماء زرقاء شفافة • وكانت طيور السنار تلمع سوداء وهى تدوم فـوق الصوارى • وعلى ظهر الســـفينة كان دوجايلو يتجول بالقرب من الرافعة •

ولم يستطع بريديس أن يقف على قدميه • كما كان اشـــعاع البحر خاطفا للأنظار ، وكم كانت رائحة الزيت الثقيل قوية ، وكم كان الطرق على الحديد مثيرا ! وحاول ان يتذكر اسم رئيس البحارة الغريب ، ولكن الاسم كان قد أفلت من ذاكرته • عجبا له من موقف مربك ! فهو لم يستطع ان يتذكر أسماء الناس ، ولم يعرف ما كان يحدثعلى ظهر السفينة ، وكان يقف على شفا اليـأس ، ولم يكن مرضه عذرا • فقد كان عمله بوصفه مساعدا سياسيا هو ان يتحقق من تنفيذ الخطة ــ ولم يكن هناك سبب لكونها لا تنفذ • وكان هــذا الواجب غاية فى البساطة والتحدد ، ومع ذلك فقد كان فى الوقت نفسه صعب التنفيذ ••• ولم يجد فى خبرته الطويلة فى الزعامة ، ومعرفته بالناس ، ومهارته فى الاقناع ، أى معين فى ظروف كهذه

جديدة عليه . لقد كان نقص المؤهل لدى البحـــارة الذين جمعوا كيفما إتفق ، ونظام الآلات الغريب ، والخدمة السيئة من جانب رجال البر ، وأخيرا مرضه الذى أقعده فى قمرته ــ كل هذه الأشياء بدت متواطئة ضده فى تلك الفترة الحاسمة من حياته . وكان يحس بقوته تتضاءل ، ولم يدر ماذا يصنع .

وخرج كبير المهندسين من عنبر المحركات ، ونظر ناحية الغرب ، ثم رفع عينيه الى السماء الصافية . وقد صنع ذلك متعمدا ، كما لو كان يستمتع بالفضاء الفسيح الممتد أمامه . وقد ناداه بريديس حين خشى أن يعود .

ــ « أأنت هنا ؟ » . قالها بازوف مستفسرا فى دهشة ، وأضاف: « وماذا تصنع ؟ انك محموم يا بريديس » .

وسار نحوه ومد يده الملوثة بالشحم .

ــ « لقد كنت أبحث عنك » . قالها بريديس فى حيوية ، فقــد بدا له ان كبير المهندسين هو الرجل المناسب الذى يمكن الحديث اليه بشأن الموقف فى السفينة . وأضاف : « يا ليتك تعرف كم أنا ضجر من قمرتى ! »

وبدأ على التو يتحدث ، كشخص تعذبه فكرة محددة ، عن الأعمال المتأخرة على الديربنت . فقد قدر ان السفينة كانت قد نقلت أقل مما كان ينبغى لها بما يزيد على عشرين ألف طن .

فقد ارتطمت ناقلة البترول بالأرض عند تعبئتها فى المرفأ رقم ٨٠ ، وذلك لأنه لم يكن لديهم متسع من الوقت . وقد مرت ساعة قبل ان تصل الرفاسات ، كما ان السفينة استنفدت ساعة من الزمن حتى خرجت من المناطق الضحلة .

ودهش بريديس لكثرة الأسباب وتنوعها . ولم يبد ان هناك شخصا ملوما ، فلم يكن هناك شخص تستطيع أن تحمل عليه ، أو

تتهمه باهماله فى عمله . ان القبطان قد جزع حتى ان شكله نفسه قد جعلك ترثى له . ولكن التوانى كان يزداد ، وكل الأسباب غير الهامة قد أحدثت فجوة سيكون من الصعب ملؤها .

— « ومن الملوم على ذلك ؟ ؟ . قالها بريديس وهو يتغلب على نوبة من السعال . وأضاف : « اننا نحن أعضاء الحزب . اننى ملوم، فما كان ينبغى لى ان أكون راقدا فى وقت كهذا ، بل كان ينبغى ان ألاحظ كل شىء . أجل ، لا شك اننى ملوم ، وكذلك أنت ، وكذلك الشيوعيون الآخرون . وكان ينبغى ان نقاوم ذلك ! »

فأجاب بازوف وهو يضحك : « ليس بيننا شيوعيون كثيرون ، فأنت وأنا ثم خمسة من أعضاء الخط الملاحى (ى. س.) . وهـذا معناه أننا ، أنت وأنا ، المذنبان الرئيسيان » .

وابتسم فى اكتئاب ووحشية ، وطرفا فمه يختلجان . وربما بدا لك أنه كان فى طريقه لأن يصر على أسنانه ويمضى يسب ويلعن فى لهجة شريرة ، أو يقوم بشىء ما عنيف . أما بريديس فقـــد أحس بالضيق .

وقال فى رقة : « أعتقـــد انك أنهكت نفسك حتى أشرفت على الهلاك » . ثم أضاف : « لست أقصدك ، حقا ... »

وشرع بازوف يبتعد عنه .

— « لا تكن متسرعا هكذا فى اتهام نفسك ، أيها الفتى ، فتقرير ما اذا كنا نستحق اللوم أم لا شىء من عمل أناس آخرين . انهم سيطردوننا من الحزب ، وتكون هذه هى النهاية » قالها بريديس وهو ينظر الى عينى رفيقه فى ابتسامة ينقصها العطف . وأضاف : « سوف يجعلون مكاننا أناسا يمكن الاعتماد عليهم . ولكن ليس هذا ما أفكر فيه الآن . فان لدينا آلات جـديدة ، أليس كذلك ؟

وآلات الشحن منتظمة. ومعنى هذا ان الرجال هم الملومون . ومازال في مقدورنا أن نصلح الأمور قبل نهاية الموسم ، فلن نقتصر على تعويض التأخير ، بل سنحقق الخطة وزيادة » .

فقال بريديس في ملل : « جميل أن أسمع منك هذا ، ولكنني لا أفهم على أى شيء أنت تعتمد . أنترك الأمور تأخذ مجراها ؟ »

فمضى بازوف يقول في أناة : « ان لدينا هنا قدرا مدهشا من الرجال . وهم ـ كما تدرى ـ لا يشعرون بأن عملهم جـــزء من حياتهم . انهم جامدون كالأصنام . ولن يهتموا في كثير أو قليل اذا ما اشتعلت النيران في كل شيء . وربما كان كوتلنيكوف على صواب ، فهم ليسوا سوى أوغاد . أما السفن الأخرى فانها في نفس الظروف تؤدى مهمتها ، وتعمل يوما وترتاح يوما . ولنأخذ الأجماليا مثلا ، فعليها مجموعة من رجال الأسطول الأحمر المسرحين . انهم مجموعة رائعة . وقد اتخذوا من رجالنا مادة للفكاهة منذ وقت غير بعيد ، عندما كانوا يشترون الخبز من الأكشاك على الرصيف . لقد سموهم الكســالى ، والتوابيت العائمة . وقد قال عامل اللاسلكى انهم كانوا على وشك ان يتضاربوا . شيء جميل . ثم هم يحصلون على مكافآت في الأجماليا ، أما نحن فلن نحصل على شيء . شيء جميل . ان رجالنا ـ في اختصار ـ يجب ان يتركوا لكى يفهموا انهم سيئون بالقدر الذى يصفونهم به » .

وابتسم بريديس وهز رأسه ، كالموسيقى حين يملى نغمة خاطئة.

ـ « مهلك أيهـــــا الرجل . ان ما تقوله ليس صحيحا تماما . فبالنسبة اليك لا تخرج المسألة عن أن تكون مسألة طموح ومكاسب، وليس هكذا ينظر الى الأمر . فلقد حاربنا في الجبهة حتى الموت ، يا صديقى العزيز ، ولكننا مع ذلك لم نحصل على أى مرتب . لقد خاطرنا بحياتنا من أجل الحرية ومن أجل قوة السوفييت . ونحن

هنا كأننا فى الجبهة تماما ، وفى نفس الحرب ان شئت . فاذا نحن لم نجلب الزيت لما كان هناك بترول ولا شحوم ، ولما كان هناك شىء نقود به الجرارات والطائرات . أهذا واضح ؟ فعليك أن تضع فى أذهانهم أنهم يجب أن يعملوا لأنهم جميعا لهم قيمتهم . أجل ، ماذا تظن هؤلاء الرجال الذين يعملون على الآلات التى لديك ؟ انهم اخوانك ، انهم عمال ، كادحون ، وليسوا أوغادا .

واذا هم لم يكونوا متعلمين فانهم سوف يفهمون بالغريزة الكلام الثورى . فمن واجبك ان تنمى فيهم وعيهم لا طموحهم » .

وكانت الحمى تهز كيانه ، وكان يرتكز على احدى رجليه بعد الأخرى كيما يتغلب على الألم . أما بازوف فكان ينصت فى جمود .

ـ « أعتقد ان ما تقوله ليس جديدا على ، وليس جديدا عليهم كذلك . ويبدو لى أن نقل الزيت الثقيل يكون أحيانا أشق من المحاربة فى الجبهة . وهم يعلمون ان البلاد تحتاج الى وقود ، ولكنهم مع ذلك لا يشعرون بأى مسئولية فى عملهم ، فهم فى فترة المراقبة يذهبون ليناموا ، وهم يسلكون فى الميناء سلوكا غير مهذب . وقد ترك حيوان منهم فى الرحلة الأخيرة خرقة فى مضخة التشحيم . فلا فائدة من حديثى اليهم عن أهمية شحنات الزيت مالم يشعروا بشىء من الخزى ! »

ـ ماذا ؟ أأنت تحتقرهم ؟

ـ كلا ، لست أحتقرهم ، فهم بطبيعة الحال فى جانبنا ، وان كان الأمر يختلف بالنسبة لأليافدين ، الوكيل الثانى للقبطان . ولكنهم مع ذلك مجموعة متنوعة المشارب ، ومن الصعب التفاهم معهم . وكذلك الأمر مع قوادنا .

ـ « ان هذا صعب فى كل مكان » . قالها بريديس فى تفكير ، موافقا له . وأخرج علبة سجائره ثم راح يبحث عن الثقاب .

وأضاف : « انصت يا بازوف ، ربما كنت على صواب . ولو اننا استطعنا ان ننظم مباراة ... » .

- « اننا سوف نصنع هذا » . قالها بازوف وفى صوته بهجة غير متوقعة . وابتسم وأمسك بيد بريديس وأخذ منه الثقاب . وأضاف : « بهذه المناسبة ، أذكرك أنه من الخطر التدخين على ظهر السفينة ، فمن الممكن ان يؤدى هذا الى نسفك »

- « آه ، تبا لى ! » ، قالها المساعد السياسى وهو محنق من نفسه، وفتت سيجارته ، وعلته حمرة خجل شاملة ، وأضاف : « تصور أننى نسيت ! »

فسأله بازوف ضاحكا : « ان الحياة هنا أسوأ منها فى جبهة القتال . أليس كذلك ؟

- بلى ، ربما كانت كذلك .

وعندما وصلوا الى رصيف الميناء حاول حسين أن يذهب الى المدينة ، وقابل زينيا في المكان المتفق عليه ، واقترح عليها الذهاب الى السينما ثم الى الشاطىء ، فلم يكن تحت تصرفه سوى ثلاث ساعات ، ولكنه أعتقد انهما قد يجدان الوقت للذهاب الى احدى المقاهى ثم الى ناد رياضى حيث كانت تجرى احدى المباريات • أما زينيا فقد فضلت الذهاب الى المعرض الصناعى • وانتهى الأمر بهما الى البقاء فى المنتزه •

وفى تلك الساعة المبكرة لم يكن هناك أناس كثيرون • وكانت الطيور تغرد فى الشجيرات ، وزهور الاكاسيا قد تفتحت أوراقها البيض • وكانت زينيا تبدو جذابة فى بلوزتها الصفراء التى بدت كأنها تتوهج فى الشمس • ولم تترك لحسين لحظة ، بل جعلته يحدثها عن الحياة عن ناقلة البترول • وأشعل منظر شفتيها المتوهجتين الرغبة فى نفسه لتقبيلها •

وسألته : « اذن فذلك الفتى الذى كان فى القطار هو مثلك على نفس الباخرة ؟ وكيف كانت مقابلتكما ؟ هل عرفك ؟ فى استطاعتى أن أتصور كيف كنتما سخيفين كلاكما ! » وضحكت •

ولم يكن من الموفق استرجاع المغامرة التى حدثت فى عربة القطار • وارتبك حسين وأخفى يديه خلف ظهره • لقد كانت فتاة بحق ، طيبة وثقة • وتحدث اليها بطريقة جافة ومباشرة ولكنه لم يجرؤ على ان يلمس يديها • وتحادثا سويا فى مرح ، دون أن يلاحظا الزمن وهو يمر •

وقالت دون أى ارتباك : « لقد فكرت فيك كثيرا منذ ان افترقنا » ثم أضافت : « أظن أن حياتك غاية فى الامتاع ، فقد قرأت عن شحنات الزيت فى الكاسبيا البلشفية(١) ، وعلى هذه الشحنات يعتمد امداد البلاد بالوقود • ويبدو أن الأمور على وجه العموم ليست تماما على ما يرام ، وان كانت بعض السفن تقوم بأكثر من مهمتها • كيف تؤدى عملك يا مصطفى ؟ كم بودى أن أكون مكانك • اننى ما زلت حتى الآن طالبة ، ما زلت أستعد للحياة ، ولكن أناسا آخرين من حولى قد دخلوا فى غمارها • بودى ان أقوم بدور فعال فى الحياة ، ان أعمل مع الناس وأتحمل المسئولية • لقد فكرت فيك كثيرا • انك تبدو حاد الطبع ، متشبثا ، لا تعرف الخوف • وربما كان مقدرا لك ان تكون ملاحا مشهورا ، فهناك عدد لا بأس به من الملاحين فى مياهنا • اننى خيالية يا مصطفى » — قالتها فى لهجة جدية مخلصة ، وأضافت : « يجب ألا تسخر منى » •

ودهش حسين من التحول المفاجىء فى الحديث ، فقد كانت الفتاة مهتمة بشحنات الزيت وبعمله ، بل لقد ودت أن تكون فى مكانه • ثم الخيال • فأين هذا الخيال فى حياتهم ؟ ولم يتمالك نفسه من الضحك •

— « ان هذا الحديث ممل يا زينيا » • قالها كما يصنع اليافع حين يشرح للطفل عبث الحياة • وأضاف : « ان عملنا شاق وقذر ، وأسوأ ما فيه انه لا جدوى منه • فناقلة البترول لا تنفذ خطتها ، لأننا لم نستطع تسيير الآلات على أحسن وجه ، وكل شخص على ظهر السفينة فى خصام مع الباقين • والقواد ليسو على ما يرام والبحارة كذلك أسوأ • انهم من رعاع الميناء ، رعاع » •

— رعاع الميناء ؟

---

(١) اسم جريدة — المترجم

- « أجل ، انها كلمة انجليزية ، وهى فى الانجليزية تعنى الملاح العاطل المشرد . ولما لم يكن لدينا عاطلون فاننا نستخدم الكلمة بمعنى آخر . ورعاع الميناء تعنى العاطلين الأوغاد . أتفهمين الآن ؟ وأنا نفسي - وهذا بينى وبينك - الى حد ما من رعاع الميناء » . قالها فجأة فى صدق وغير اكتراث . وأضاف : « أما فيما يختص بأن أصبح مشهورا - أف لهذا ! انهم يعرفوننى معرفة جيدة فى محطات الجيش المرابط » .

- « انها لجرأة أن تتحدث هكذا » - قالتها وهى تلقى بالكلمات فى وجهه وقد انتابها الكدر . وأضافت : « ينبغى لك أن تستشعر الخجل من نفسك » .

واحمرت وجنتاها خجلا ، وبدا أنها مستاءة . أما حسين فكان آسفا لما قد قال .

فقال فى ارتباك : « أجل ، اننى أتحدث اليك كما أتحدث الى صديق . وقد بالغت قليلا ، ولكننا سننسى كل هذا . اننا الآن متخلفون كثيرا عن المواعيد المقررة ، ولكننا لو تكاتفنا وأعددنا الآلات اعدادا طيبا ... ان آلة الباب التى تعمل بالديزل تعطى مائة ورة واثنتين ، أما آلة الجانب الأيمن للسفينة فتعطى مائة دورة خمسا . وانا على يقين من أن فى استطاعتنا ان نحصل على مائة ورة وعشر دورات كاملة ... »

وتذكر ان كبير المهندسين كان قد استخدم هذه الألفاظ نفسها ، وأنه شعر ازاءها بشعور غير مريح . وقال بخبثه المعتاد : « ليس هذا سوى ادعاء ونفج » . ولكن زينيا رفعت رأسها وابتسمت .

وقالت فى لهجة تلطف : « أنت تدرك أى سخف تقوله عن نفسك . لقد اقشعر بدنى عندما لويت قطعة النقود تلك بقبضة يدك ، واعترانى الهلع وأخذت فى الوقت نفسه . لقد كنت عندئذ

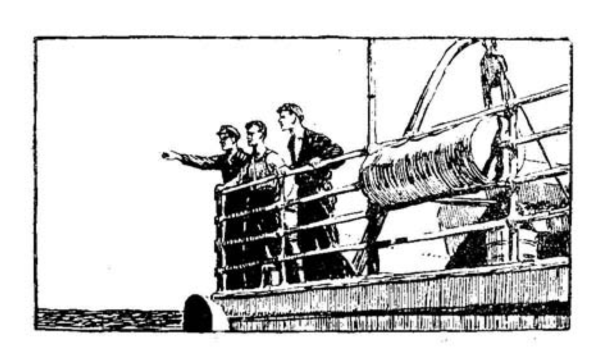
هادئا ، ولكنك الآن تمضى فتفسدها تماما · أنت ، أيها العاطل ! »

ـ « ألا يستطيع الانسان ان يقول نكتة ؟ » · قالها حسين مكشرا فى طيب خاطر · وأضاف : « ولكن لنتحدث عن آلات الديزل · فاذا نحن حاولنا أن نزيد السرعة الى ثلاث عشرة عقدة فاننا سننقل ما هو منوط بنا · ان كبير مهندسينا رجل ذكى ، وان كان جعجاعا قليلا · وطبيعى انه لا يستطيع بمفرده ان يصنع شيئا ، ولكن بالتعاون معنا ، نحن السواقين ، يختلف الأمر · ولكى نعد الآلات اعدادا طيبا علينا ان نعمل جميعا عندما ترسو السفينة ، أعنى ألا نتمتع باجازة البر » ·

فقاطعته زينيا فى شهامة قائلة : « سيكون هذا مؤسفا جدا » · وأضافت : « وماذا لو أنكم فعلتم ؟ »

ـ « هذا هو ما أقوله أنا تماما · اننا سوف ننفذ هذا بالتأكيد ، ولكن الأمر ليس على ما يرام بالنسبة لسواقينا · فبعضهم يخاف من الاقتراب من الآلات لأنها ضبطت على الشاطىء · ومثل هؤلاء لا يصح وجودهم على ناقلة البترول · انهم ليسو بحارة ! (ومرة أخرى ذكرته الفكرة العابرة بعبارة بازوف ، ولكنه قالها بغير خبث هذه المرة) · لا بد من ضبط الآلة مرة بعد مرة ، وعندئذ تبرز لك كل طاقتها · وهذه هى الطريقة الصحيحة يا زينيا · ولكن لتنسى ما كان من حديث رعاع الميناء ، فلم أكن الآن الا مازحا » ·

لقد كانت تجلس بجانبه تلك الفتاة الرقيقة الجميلة التى لم يقابل مثلها قط فى حياته · وعيناها اللتان كانتا منذ دقيقة تلقيان عليه نظرات احتقار حارقة راحتا الآن تنفذان الى صميمه كأنهما تختبران مدى الجدية فى كلماته · أما هو فقد أحس فجأة بأسف بالغ لأن النصر كان قد ألم اليه وتحدث عنه بلهجة تأكيد وقحة من المحتمل ألا يتحقق اطلاقا ·



التحـــدى

- ١ -

ولم يمض كثير حتى تحدث الكهربائيون عند عودتهم من الشاطىء عن مناوشة أخرى مع رجال الأجاماليا • وكان الخــزى باديا فى وجوههم ، ووجناتهم محمرة خجلا •

وقال كوتلنيكوف : « انهم سيغادرون الميناء بعدنا بساعتين • وقد قالوا : ها نحن أولاء نعطيهم ساعتين فى الابتداء • وتستطيعون أن تتوقعونا عند المساء ، فسوف نلحق بكم ثم نقطركم خلفنا » •

ـ لا !

ـ انها عبارتهم بنصها ! لقد قالوا : انكم لن تفقدوا بذلك شيئا ، أما نحن فستكلل رؤوسنا بالغار ! »

وقال فولوديا ماكاروف : « لقد قالوا : السلاحف ذات الاحتراق الداخلى » .

- ومن السلاحف ؟

- انهم يقصدوننا ، وهم يسخرون منا ، أولئك الأوغاد !

- وقال رئيس الملاحين ...

- « أنا لا يهمنى من الذى قال » . قالها حسين ثائرا ، وأضاف :

« ولكن هل حقا أيها الرفاق انهم سيلحقون بنا ؟ »

- ينبغى ألا ...

- « يجب علينا ان نستعد » . قالها خروليف منددا ، وهو يهز جمة شعره المتثنية . وأضاف : « هيا يا رئيس لجنة اتحاد النقل الملاحى ، هيىء البحارة ! »

وفى ذلك اليوم سار كل شىء كالمعتاد : تبودلت فترات المراقبة ، وجاءت التقارير الجـــوية عن طريق اللاسلـــكى ، وحضر الرجال محاضرتهم فى السياسة . كل ما فى الأمر ان البحارة كثيرا ما كانوا يصعدون الى سطح الصـــوارى دون أية حاجة وينظرون خلفهم نحو الجنوب حيث اختفت الأرض خلف خط أزرق . وبعد الساعة الثانية عشرة ظهر فى الأفق بقعة تكاد لا ترى . ثم أخذت تكبر فى بطء فى مكان متوازن بين السماء والبحر كالبقعة على خط الافق الواضح . وكان دوجايلو هو أول من لاحظهـــا عندما كان يبحث حول سطح الصوارى عن شىء يحتاج الى تنظيم . فأطلق صفارة طويلة خافتـــة ونزل ليقرر ما رأى . وعلى سطح السفينة كان الكهربائيون ينظفون مجمع المحرك الكهربى .

- ان الأجماليا قادمة ! » أعلنها دوجايلو فى ابتهاج مصطنع . وأضاف : « لقد ضاع كل شيء ! وسوف تلحق بنا قرب المساء . أؤكد لكم ! »

وجرى الكهربائيون الى سطح الصوارى ، وسار دوجايلو متلكئا خلفهم ، وهو يضحك فى نفسه .

وقال برتسنكو ، وهو أحد الكهربائيين ، مقترحا : « ربما كانت سفينة حربية » .

- لا تقل ذلك ! اذن فأين الدخان ، انهـــا ســـفينة من ذوات المحرك .

وظهر السواقون والبحارة الذين كانوا فى وقت راحتهم واحــدا بعد الآخر على سطح الصوارى . وكانوا يظللون عيونهم بأيديهم لكى ينظروا اليهــا ثم يمضون دون ان يقولوا كلمة . أما دوجايلو فكان يصعد الى سطح السفينة وينزل كالمعتاد ، ولكنه قد ينظر من وقت لآخر الى الأجماليا . وفى مركز ربان السفينة رفع كازاتسكى منظاره المكبر الى عينيه ليرقب السفينة القــادمة . وقد ظلت تكبر كأن ريح الجنوب الرطبــة العنيفة كانت تدفع بهــا قريبا . وأنزل كازاتسكى منظاره المكبر ، وامتد طرفا فمه بابتسامة باردة .

وقد ظل مزيد من البحارة يتوافد على سطح الصوارى ، يبحثون متلهفين فى الأفق عن شـــبح السفينة ، ويقدرون المســـافة بين السفينتين . وجميعهم قد صــنعوا ذلك فى صمت ، دون ان ينظر الواحد منهم الى الآخر ، كما لو كان ذلك يحدث بمحض الصدفة ، وهم يحاولون ان يخفوا ضيقهم .

وقبيل ان تغيب الشمس انحرفت الأجماليا الى اليمين انحرافا كبيرا ، فأظهرت للديربنت هيكلها العلوى الأبيض ، ومدخنتها القصيرة وهي ترسل نفثات خفيفة من الدخان عند مؤخر السفينة . وانتهت نوبة المراقبة ، وجرى البحارة الى مركزى ربان السفينة الأمامى والخلفى ، ووقفوا بالقرب من الدرابزين . وتحلق السواقون فى مجموعة حول حسين ، الذى كان واقفا ويداه الثقيلتان على الدرابزين ، وفى استطاعتك ان ترى الشريان ينبض فى وجهه الأسود الساكن ، فوق الحاجب الأيسر .

وظهر بازوف فى مركز الربان عندما توازت السفينتان . ونقل نظره من حسنين الواقف بلا حراك الى الملاح أليافدين الذى كان يدق الأرض فى عصبية وهياج ، والى وجوه البحارة والسواقين والكهربائيين المتجمعين فى مركز القيادة . ومضى دوجايلو يتجول نحو السلم المؤدى الى مؤخر السفينة .

وقال فى تشدق ساخر : « يجب ان نحيى مثلنا الأعلى ، وأن نخبرها اننا بكل احترام نخلى لها الطريق ونتمنى لها رحلة ملاحية سعيدة ! »

وصعد فى السلم ، وتبعه بعض الرجال حبا للاستطلاع .

وجاء صوت اعتراض ضعيف من أليافدين يقول : « لا ، لا تصنع يا دوجايلو ! » ولكن رئيس الملاحين لم يسمعه . وذهب الى العلم فى مؤخر السفينة وفك العقدة ، وجذب الحبل ثلاث مرات ، وفى طواعية انزلق العلم الأحمر العريض على الصارى بعد أن رف فى الهواء ، وسقط عند قدميه .

ومن مركز الربان كان من السهل رؤية ما كان يحدث على سطح الأجماليا . كان من الممكن رؤية أشخاص صامدين فى مراكز المراقبة ، وآخرين يجرون حبلا سميكا فوق سطح السفينة ، وقد

انتظمت لفاته كأنها لولب . وكان العلم فوق مؤخـــرها ما يزال يتموج في النسيم ، ولم يكن هناك من يبدو عليه أية لهفة لانزاله اجابة للتحية .

ـ « لقد بدأوا المعاكسة » . هكذا لاحظ دوجايلو في هدوء عندما عاد . وأضاف : « انظروا ، انهم يرفعون حبلا ، يريدون ان يقطروا سفينتنا بالتأكيد » .

وبدا رجال الأجماليا على سطحها كأنهم يقومون بتنفيذ عمـــل خطير كان قد دبر من قبل . وألقوا بطرف حبل القطر من فوق سطح السفينة ، فتدلى متموجا فوق الماء وكانت السفينة قد اتجهت الى أمام ، فظهر مؤخرها المستدير . وساد السكون على ظهر السفينة .

ـ « الأوغاد ! » ، قالها دوجايلو وهو يهز رأسه . وأضاف : « هل نظمنا بيننا وبينهم سباقا ؟ اننا لا نملك الآلات التي يملكونها ، وسيخبرهم المهندس بذلك . يالهم من شرذمة أراذل ! »



واتجهت الأنظار اليه ، وبدأ البعض يبتسم . وكان لصوته الرخيم تأثير مطيب لخواطرهم . وصـعد خروليف ، الذى ظل منعزلا بعيدا ، الى حسين وهو يمشي مؤرجحا جسمه ، وربت على كتفيه .

ـ « التقط حبـل القطـــر يا مصطفى »، قالها وهو ينظر حوله كأنما يدعو الآخرين الى المشاركة في المزاح . وأضاف : « ان آلتك لن تصل بنا على أية حال الى أي مكان ، فلا تضيع فرصتك أيها الفتى »

ونهض حسين كالملدوغ ورفع قبضة يده المتجمعة . وكان وجهه قد غضنته الاهانة .

وزأر فى جنون وهو يتقدم نحو البحار قائلا : « اغرب عنى أيها الطفيلى ، والا دققت عنقك ! »

وعاد خروليف وهو يدفع بيديه أمامه .

وقال فى صوت خفيض سريع : « احتفظ لنفسك بشجاعتك ، فأنا لم أقل ذلك الا مازحا . أترون أيها الرفاق ؟ »

وسرعان ما أحاطت بهما حلقة صاخبة من النظارة . ولاح وجه فولوديا ماكاروف المنمش من فوق كتف حسين .

وصاح فى غضب : « لا تبدأ معركة ، أو تسميه رجلا ؟ انك لو بصقت فى وجهه لمسح البصقة ! »

وصاح اليافدين فى لهجة آمرة : « ما هذا الذى يحدث هناك ؟ لا عراك أيها الفتية وصعد بازوف على عجل الى الجمع المصطخب عند مركز ربان السفينة . وكان فى استطاعته أن يسمع صوت فولوديا الصبيانى وهو يصيح :

- لماذا نرسى سفينتنا فى المنطقة الضحلة بالميناء ؟ ولماذا لا نسير الا بسرعة ثمانى عقد ؟ هل يستطيع أحد أن يخبرنى ؟

فقال بازوف وهو يشق طريقه بمرفقيه الى عامل اللاسلكى : « سوف أجيبك يا فولوديا » . وأضاف : « اننا سوف ننتزع منهم الراية فى الرحلة القادمة » .

وفى تلك الأثناء نظروا اليه جميعا . أما هو فظل لحظة وصونه يرتجف من التوتر . ولاحت لذهنه فكرة ، ولكنه يجب ألا يجعل منها مشكلة الآن . وبحث عن المساعد السياسى ، ولكنه لم يكن هناك .

وتساءل بازوف فى خشونة : « لماذا هذا الصياح ؟ » وحين التقت عيناه بعينى حسين الزائغتين ، التفت اليـــه وقال : « طبيعى ألا يعدنا بحارة الأجماليـــــا رجالا ٠ واذا بدا لك ذلك مضحكا » وانعطف سريعا نحو خروليف ، واستمر يقول : « فان ذلك معناه أنك أنت نفسك توافق على ان لا فائدة منك » ٠

فقال فولوديا فى صوت رفيع : « انه ليس الشخص الوحيد » ٠ وأضاف : « انهم لا يعنيهم أمر أى شيء ٠ واذا كنا نعذب أنفسنا بلا جدوى فان ذلك خطأهم » ٠

وانعطف أحد الأشخاص خلف بازوف وأحس الأخير بأنفاسه الحرى على رقبته ٠ وتكلم بازوف فى صوت حازم :

ـ اننا نستطيع أن نأخذ الراية منهم ٠ انهم ربما كانوا الآن فى رأس القائمة ، ويستطيع كل كائن حى فى الميناء ان يصب علينا اللعنات ٠ اننا نستطيع بنفس الطريقة ان نتغلب عليهم ٠ وعلينا أولا ان نصلح من شأن الآلات ، وان نقتصد ـ ثانيا ـ من الوقت فى الميناء ٠٠٠

وقال أحد الاشخاص فى اســـتهزاء : « ومتى نحصل على وقت راحتنا ؟ » ولكن الآخرين أسكتوه فى الحال ٠ أما بازوف فلم يكلف نفسه مجرد الالتفات ٠

ـ نقتصد فى الوقت ، وندخر كل دقيقة ، ويجب أن يرى ضابط المراقبة أثناء الشحن أننا نترك الميناء فى الوقت المحدد حتى لا نغوص فى المناطق الضحلة ٠ ويجب أن نعد الآلات الاحتياطية التى تدار بالديزل للعمل فى البحر ٠ أجل ، سوف تغلى المياه تحتنا اذا نحن أردنا ٠ ٠

وأعلن أليافدين فى حرارة غير متوقعة قائلا : « لن يحدث أى غوص فى المناطق الضحلة أثناء فترة مراقبتى » ٠

وانطلق صوت من الخلف يقول : « ما فائدة الكلام ؟ هيا بنا للعمل » .

- « أحقا اننا سنعمل ؟ » قالها حسين مستفسرا ، وهو ينظر فى شك حوله الى وجوه مجاوريه كما لو انه لم يكن قد صدق بعد أنهم يستطيعون العمل فى الحال بهذه الصورة .

فقال فولوديا وهو يخلع قبعته عن رأسه ويضمها فى قبضته « هيا أيها الفتية ، هلموا الى العمل » .

وكان كوتلنيكوف يقرض أظافر أصابعه .

وقال فى توتر : « ان ما نحتاج اليه هو أن ندخل فى مباراة » .

وقال البعض : « أف ، ان هذه مجازفة كبيرة » وأضاف : « وماذا يكون الحال لو فرضنا أنها لم تنفع ؟ »

فقال بازوف : « سوف ندخل فى مباراة . وأضاف : « سوف نتحداهم عن طريق اللاسلكى . ولكن ليست هذه هى المشكلة الآن . فاذا نحن عقدنا العزم فان بحارة الآلة كلهم سيكون عليهم أن يعملوا عندما نكون فى الميناء » .

ثم كانت فترة صمت قصيرة . ووضع كوزوف يديه فى جيبه وحملق فى سطح البحر الأملس . ورفع جازاريان - وهو أحد السواقين - رأسه وقال : « كيف أمضى دون أن أحصل على اجازة الشاطىء وأمى مريضة ؟ انها عجوز ، ولا أستطيع ... »

- « هذا بداية النكد » . هكذا لاحظ كوتلنيكوف فى حدة بعينين نصف مغمضتين . وأضاف : « أجل ، فلم يكن بها سوء من قبل . هل عرفت ذلك عن طريق اللاسلكى ؟ »

وصاح حسين وهو ينظر نظرة تهديد الى السواق : « اصنع ما بدا لك ، فسوف نقوم بالعمل بدونك » وكان قد استبد به

الغضب حتى ان وجهه ظل يتغير سريعا ، فهو حينا يشرق وحينـاً يتوعد . « ان أى شخص يترك السفينة فى الميناء وغد ! » .

فقال بازوف : « لا تقلق بالك ، فان كل شـــخص سيبقى » . وأضاف : « وليس هناك من يحب أن يبصق عليه . واذا حدث أن واحدا نزل الى البر فسيكون ذلك شيئا تافها » . وأومأ الى حسين وذهب تجاه عنبر المحركات ، ولـكن فولوديا ما كاروف جـرى فى اثره .

ــ يا ألكســندر ايفانوفتش ، ان الرجال ســيعملون فى عنبر المحركات ، فماذا يكون من شأنى ، ان حجرة اللاسلكى التى تخصنى على استعداد .

وكان جـــواب بازوف المتردد عنــه : « ليس لك عمل فى عنبر المحركات ، فأنت لست ميكانيكيا » . ثم أضاف : « على كل حال هذا لا يهم ، فليست المسألة الآن مسألة ميكانيكيين . فلتأت على كل حال » .

- ٢ -

واستيقظ حسين في الظلام . وكانت أعالى الشحنة تهتز نتيجة لدوران الآلات الذى كان منتظما ومتكررا مثل نبضات الدم فى أذنيه . ونهض قليلا من سريره وقفز الى أسفل وخيل اليه انه استيقظ متأخرا ، وان السفينة كانت راسية فى الميناء . ولكن الثقب الذى كان بالباب كان معتما وفارغا ، واستطاع ان يسمع من خلاله حفيف الأمواج وصفير الريح الهادىء . وخرج الى الممر ، وكاد يصدم رجلا كان يمر .

- « اقبل » . قالها بازوف فى قلق ، وأضاف : « لقد كنت أبحث عنك . لقد تجاوزنا جزيرة «زيلوى» لتونا ، وقد آن الأوان للبدء » .

ومرا بمطبخ السفينة بحيطانه الدافئة ، وبصف الكبائن فى طريقهما الى عنبر المحركات . وهناك توقف بازوف .

وقال وهو يضحك : « ان كل البحارة تقريبا قد تجمعوا هناك » . وأضاف : « انها بداية طيبة ، وان كنا لا نحتاج اليهم جميعا لاعداد الآلات » .

- « ولم لا ؟ » هكذا تساءل حسين فى دهشة . وأضاف : « أنت نفسك قلت .. »

- « أجل ، أنا أصر على أن تشترك جميع الأيدى فى العمل ، فمن الأفضل أن يكون النجاح الأول ثمرة مجهود عام . وبعد ذلك

سيكون من حق كل شخص أن يزهو . ولن يكون هناك شخص بالقرب من الآلات لا يجد فيها متعتة » .

ـ « هذا صحيح » . قالها حسين موافقـا . وأحس بالسرور عندما استشاره كبير المهندسين ولم يستشر الآخرين ، مميزا له ـ كما كان الأمر ـ من بين بقية البحارة . وأضاف : « ان فكرتك أصح الفكر ، ولكنني لا أظن انه سيكون هناك عمل لكل شخص . ألا ينبغي علينا ان نستبعد من لا فائدة فيهم ؟ »

فقال بازوف : « انك تحتـاج الى وقت طويل لتخلية سبيلهم ، ولكنني لا أظن أنه من المحتمل ان يكون هناك أى متفرجين » .

وفي عنبر المحركات كان الرجال يقفون جماعات على الأفاريز ، يتحدثون بعضهم الى بعض ، ويحاولون أن تكون أصواتهم مسموعة أعلى من الضجيج . وعندما رأى حسين هذا التجمع غير المعتاد طابت نفسه . وعرف كل رجل من أولئك الرجال ، وعد أكثر من نصفهم غير صالح لشيء . فلم يكن فيهم أقل قدر من وميض البراعة ،وكانوا يحاولون دائما ان ينتهوا من فترة مراقبتهم بأسرع ما يمكن ، ومن اللازم مراقبتهم طوال الوقت . وبمثل هؤلاء الرجال أراد بازوف أن يصلح من شأن الآلات !

وأحس حسين وهو يهبط السلم خلف كبير المهندسين بأن عيني كل شخص قد تسمرتا فيه مما جعله يحس بالحرج كأنه كان يحاول أن يقوم بما لم يكن أهلا له .

وقال له بازوف : « سوف تعيد أطواق المكبس الى مكانها ، فخذ معك خمسة برادين وسـواقين ، وكن حريصا عندما ترفعـون المكابس » .

وزادت نفس حسين طيبا ، فكبير المهندسين له مساعدان ، ومع

ذلك فقد فضل لسبب ما أن يضع فيه ثقته . وكيف لحسين ان « يكون حريصا » وهو نفسه مجرد سواق ولم يسبق له ان يشرف على رجال ؟

وبسط بازوف الرسوم البيانية للمؤشرات . وتجمع البحارة حوله ، ووقف حسين لحظة لا يدرى ماذا يصنع . ولم يستطع ان يسمع صوت كبير المهندسين بسبب ضجة الآلات . وتغلبت عليه شيئا فشيئا الفكرة السوداوية التى تطوف به دائما فى لحظات الهدوء ، فكبير المهندسين سيزيد من عدد دورات الآلة ، ويقدم تقريرا ويحصل على سمعة طيبة من أجل ذلك . فأى عمل ذاك الذى من شأن حسين ؟ كل ما فى الأمر انه جعل نفسه ألعوبة فى اليوم السابق وهو فى مركز ربان السفينة .

وفجأة رأى بازوف يلوح له ، وأحس بنفسه مرة أخرى موضع اهتمام عام ، فأجفل وقوس حاجبيه فى صرامة . وحملق فى غير انشغال فى الرسوم البيانية التى كان بازوف يعرضها عليه .

وقال بازوف وهو يشير على الأوراق باصبعه : « انظر هنا ، هذا هو أول خط فاصل للمكبس . وهنا يحدث نقص الضغط خطا بيانيا مشوها . وهناك رسم بيانى صحيح ، وهو رسم العمود الخامس . أترى الفرق ؟ فأين اذن يجب علينا ان نغير أطواق المكبس ؟ وناول الرسم البيانى لحسين ووضع يده على كتفه .

وأطل زادوروف ، مساعد بازوف ، من جانب ، واستفزه فى ضجر قائلا :

- فى الثالث والرابع بطبيعة الحال .

- « لست فى حاجة لأن تخبرنى » . هكذا انطلق حسين . وأضاف : « يجب أن نغيرهم فى الثالث والرابع يا ألكسندر ايفانوفتش » .

وعلى الافريز العــلوى كان البرادون يعـــدون أطواق مكبس احتياطى • وكان جسم المكبس الاسطوانى الذى يبلغ طوله خمس أقدام ممتدا على الافريز ، يسد الطريق الى الورشة • وكان كوزوف وجازاريان واثنـــان من البرادين يناضلون ليرفعوه كيما يضـعوا القضبان فوقه • وكانت وجوههم قرمزية اللون من الاجهاد ، وكانوا يصيحون بعضهم فى بعض كأنهم على استعداد لأن يتعاركوا •

وقال بازوف مازحا : « ان الرفاق يشقون على أنفسهم فى حين ان الرافعة تتمتع بالراحة » • وأضاف : «ويحتمل أن تكون السلسله مقطوعة • الى أى شىء أنت تنظر ؟ لقد طلب الينا الانتهاء منه بمجرد أن ترسو السفينة ، ونحن نحاول أن ننتهى منه على نحو ما •• »

وابتسم ابتســـامة سمحة • ومسح وجهـــه المنبسط الشفيق بمنديله • لقد كان حسين دائما يحب ذلك الرفيق الصغير الساذج ، ولكنه فى هذه المرة كان شرسا لسبب ما

ـ « على نحو ما ! على كل حال ! » • هكذا زمجر حسين وجذب البكرة فى عصبية ، ولكن السلسلة لم تتحرك •

ـ « لا بد ان يتسلق البعض على القضبان ويثنيها » • هكذا قال ياكوبوف وقد ضايقه صياح حسين • وأضاف : « ولكننى أخشى أن أقع » •

ولم يتحرك الآخرون خطوة واحـــــدة بل اكتفوا بأن ينظروا وينتظروا ما يصنع حسين • ولكنه لم يشعر هو كذلك بميل أكثر الى التسلق لاصلاح السلسلة ، فقد بدا له أن رفع المكبس بالأيدى ربما كان أيسر • ولكنه لاحظ بازوف وهو ينظر اليه ، ومضى مسرعا •

وقال بطريقة المنهمك فى العمل : « أيها الفتية ، شدوا الخطاف جيدا » ، وأضاف : « اننى صاعد » •

وكان الوصول الى القضبان قرب سقف عنبر المحركات يقتضى أن يزحف الشخص اليها من الخارج خلال السطح الزجاجى . وخرج حسين وجرى نحو مؤخر السفينة . وجرت ريح باردة ذيلهـــا فى الظلام من الساحل . وعلى جانبى السفينة كانت أنوار الميناء تنعكس كالثريات الذهبية فى الماء . وانزلق حسين خلال العنبر المفتوح ، وتعلق بيديه وتحسس القضيب بقدميه . وكانت تحيط به حرارة الآلات الشديدة . وفى أســـــفل وقف الرجال مشرئبة أعناقهم ليراقبوه . وزحف حسين على يديه ورجليه جميعا على طول القضيب، وهو يقبض على الحديد بأصابعه ويصفر . وعندما وصل الى عربة الرافعة وضع السلسلة على التروس وصاح الى أسفل ، فرن صوته صاخبا كأنه كان يصرخ فى برميل . قال :

- ابتعدوا من هناك ! هل تسمرتم جميعا ؟ هلموا دفعة !

وكان بازوف يقف أسفل ينظر الى الرسوم البيانية ، وقد سر حسينا انه لم يكن يراقبـــه كأنه كان واثقا من أنه ســيقوم بالمهمة كلها . وانزلق بيديه ورجليه على السلسلة ذاتها ، وعندما وقف على الافريز بدأ يساعد البرادين .

وظهر الكهربائيـــون الشيوعيون الصـــغار من خلف لوحات التوزيع ، فقد كانوا قد فرغوا من اصلاحاتهم المعتـــادة ، حتى ان المولد الكهربائى فى الديربنت قد ظل بفضلهم فى حالة مثالية ، ولكنهم لم يكن لديهم أية نية للخروج .

وتساءل كوتلنيكوف وهو يقرض أظافره قائلا : «ماذا سنصنع؟» وأضاف : « ان هذا الجزء من السفينة هو أكثر الأجزاء حيـوية ولكن يجب ان أعترف انه ليست لدى فكرة عن المحركات التى تدار بالديزل »

فقال فولوديا فى قلق : « يجب أن نكون سباقين ، فنحن مخيرون فى أن نضرب المثال » .

فصاح كوتلنيكوف فى غضب : « انك تريد أن يكون لك الأمر حيثما كنت » . وأضاف : « يكفى أن تساعد الرجال ، فهذا كل ما فى الأمر ، حتى وان كان ذلك بأن تناولهم الأدوات ، فبهذه الطريقة تضرب مثلا لأولئك الذين لا يصنعون شيئاً » .

فقال بروتسنكو وهو يدنو من فولوديا الحائر : « أتظن أنه يعرف ماذا يصنع ؟ » ثم أضاف : « آه ، يالك من سخيف ! »

وكان كوتلنيكوف هو أول من نزل الى بازوف .

وقال : « يا الكسندر ايفانوفتش ، لقد فرغنا من عملنا ، وجئنا لكى نمد اليك يد المعونة » ثم أضاف : « وسوف نعمل ما تأمرنا به، حتى وان كان ذلك مجرد حمل الأشياء فهذا لا يهم » .

وكان البرادون يحدثون ضجة حول المكبس المرفوع وهم يحاولون وضع الأطواق . وخطر لحسين أن العمل يجرى فى بلاده كما يحدث فى العرض البطىء للأفلام . فالأطواق لم تثبت فى أخاديدها ، ثم ان هذه الأخاديد يجب أن تنظف بازميل . وسمع طرقات الآلات الهائلة تهدأ ، والبوق يدوى فوق سطح السفينة . وكان عليه اعداد ثلاثة مكابس ولم يكونوا قد فرغوا من الأول . وأخذ احدى الأدوات من يد ياكوبوف وبدأ فى العمل . وتطايرت من تحت ازميله حبات القذارة .

ـ « اضرب خفيفا يا مصطفى » . هكذا اقترح ياكوبوف فى وداعة . وأضاف : « والا فلن تثبت الأطواق » .

ودحرجوا المكبس الثانى خارج الورشة ، وعندما ثبتوه فى الخطاف رفعوه فى الهواء . وحين فرغ حسين من عمله راح يراقب ما يحدث عند الآلات . كان هناك أناس يحملون مفاتيح ميكانيكيه ويعملون فى الاسطوانات . وكانوا ـ وهم يمسكون فى حرص بالأنابيب الساخنة ـ يحلون أغطية الاسطوانة . ورأى حسين أن

كوتلنيكوف بينهم ، ولكنه قبل ان يستطيع التعبير عن دهشته ظهر فولوديا من مكان ما .

وسأل فى صوت كأنه نشيج : « ألم تفرغوا بعد ؟ » . وأضاف : « لم يعد لدينا سوى ساعتين أيها الرفاق ! »

فانطلق حسين فى غضب يقول : « اذا كنت أنت تستطيع أن تنجز العمل أسرع من ذلك فهلم ، وسنرى » .

وانبعث صوت من المعدن تحت ازميله ، وكانت كتفاه المبللتان بالعرق قد غطيتا بغبار أسود من القذارة . وتحسس ياكوبوف البراد سيجارة فى جيبه . ثم راح فى ايماءة ضيق يعمل فى الطوق الأخير .

وقال وهو يغمز لفولوديا : « لا يهم ، فسوف ندخن فى البحر . ناولنى مطرقة يا صديقى العزيز » .

وعندما فرغوا من المكابس ألقى حسين بازميله الى جهاز تجـديد الهواء . وداعبت لفحة الهواء الباردة ظهـره المبتل بالعرق . وبدأ يحس فى ذراعيه بألم ممض . والآن وقد فرغ من عمله كان يبدو كأن كل شخص قد نسى ما كان من أمره . وكان السواقون ينزعون أغطية الأسطوانة ، ويفحصون المحقن . وكانوا جميعا متسرعين تماما كحسين نفسه ، حتى أولئك الذين عدهم سلاحف لا نفع فيهم .

- « لقد أجهـــدت نفسى وأنجزت العمل ، ولكن هل لحظ أحـد ذلك ؟ » هكذا خطـرت له الفكرة ، ولكنها لم تنغص عليه هذه المرة كما حدث من قبل . كل ما فى الأمر أنها أشعرته بأنه كئيب وكريه الى النفس ، كقشرة الجرح الملتئم التى تريد أن تنزعهـــا بظفرك . واستجمع قواه وذهب الى الآلات .

وتحركت عربة الرافعة فى بطء تحت السقف . وانساب المكبس

الذى كان قد أنجز خلال الهواء مع صليل السلاسل المشـــدودة ، وتحرك الرجال أسفل وهم يشدون الحبل ٠

ووقف المكبس فوق الفتحة ، ودلى ، وانزلق الرأس داخل فتحة الاسطوانة ٠ وضغط حسين على الأطواق بيديه وهى تدخل الفتحة ٠ وعندما استقر الطوق الأخير فى مكانه نصب جسمه ومسح يديه ٠

- « ضعوا الغطاء ! » هكذا أمر الســـواقين ٠ وأضاف : « اننا ننهى المكبس الثالث يا ألكسندر ايفانوفتش » ٠

ونظر بازوف الى وجه حسين المنتعش وابتسم ٠ لقد كان مزهوا بما يدور حوله ، وبصفة خاصة بالتعبير الجديد الذى ارتسم على وجوه الرجال ٠ كان يبدو أن الكسل الوخيم قد اختفى وحل محله تعبير عن لهفة وحب استطلاع جنونى ، كما يحدث لرجل أقحم نفسه فى عمل خطير لأول مرة ٠ ولكنه كانت لديه شكوك ٠ فربما لم يكن فى الأمر شىء سوى حرارة الجدة ، ذلك الشعاع اللامع غير المنتهى الذى ربما تلاشى عند أول فشل ٠

ولم يرد بازوف ان يفكر فى ذلك ٠ ولم يرد أن يصدق أن الحرارة الرائعة يمكن ان تتلاشى من وجه حسين ٠ وعندما انطلق النفير معلنا أن عملية الشحن قد تمت ذهب بازوف فى هدوء الى لوحة الادارة ٠

وتجمع البحارة أمام المشير ٠ وكان حسين يقف بجوار ســـاعة الهواء ويداه على العجلة ٠ وفجأة تلاشت ثقته ، فهل يمكن ان يبين جهاز السرعة مائة دورة تماما كما كان الأمر من قبل ؟ ان البحارة لم يأخذوا عطلة البر ، وكثير منهم كانوا يقومون بنوبة حراســتهم الثانية المتوالية ٠ لقد كان حسين هو أول من دعا الى المباراة ، ودفع بالرفاق الى العمل ٠ فالآن ربما اتخذوا منه مادة للسخرية ٠

وصدرت اشارة من حجرة الخرائط ٠ وأمسك بازوف عجـــلة الحركة ونظر الى جهاز المشير ٠ وتنهد حسين وأغمض عينيه

وقال بازوف : « انتبه يا مصطفى »

وحين سمع حسين الطرقات العالية للضربات الأولى استجمع قواه وذهب الى لوحة المشير ، فدل المؤشر على « بطء عند مؤخر السفينة » ثم « بطء فى المقدمة » . لقد كانت السفينة تستدير ، وتشق طريقها خارج الحوض .

ولم يستطع حسين أن يمسك نفسه . وابتعد عن الساعات الشمسية . وخطر فى ذهنه خاطر جبن . قال : « هل يمكن ان نفشل ؟ حسن . وماذا فى ذلك . اننى سآخذ مع الآخرين فى الضحك ، ولكنه فى نفس اللحظة كان قد نسى كل شىء سوى طرقات الآلات المتضخمة .

وزحف المؤشر سريعا حول الساعة الشمسية . واجتاز المائة دون توقف ، وما زال مستمرا فى المسير .

مائة وخمسة ... مائة وسبعة ... مائة وعشرة ...

وحدثت شهقة اندهاش فى المكان كله . ووقف أولئك الذين كانوا بالخلف على أطراف أصابعهم كيما يستطيعون الرؤية فى مزيد من الوضوح . أما الآلات فكانت تهدر فى كامل سرعتها .

وصاح فولوديا بلهجة انتصار فى أذن حسين : « مائة واثنا عشر ! انظر يا مصطفى ! »

- « أ .. أجل » ، هكذا تغثغ كوزوف وقد ارتسمت مخايل الأهمية على وجهه ، ورعفت أنفه فى سخرية . وقال : « سوف نرى الأجماليا الآن يا ألكسندر ايفانوفتش ! »

وخرج حسين الى سطح السفينة وجلس يستريح . وكانت أنوار الميناء تتقلص فى الظلام . وكانت الريح تطوح بنفثات الدخان التى

كانت تهب قرب سطح السفينة ، وتلتصق بالأبواب الأرضية كقطع من قماش رمادى .

ورأى حسين كبير المهندسين يخرج من عنبر المحركات ويقف فى رقعة الضوء المنبعث من الممر .

وتفكر حسين فى نفسه وهو يستدير : « تراه سيصعد أم لا ؟ » . وفكر فى أنه لو أتى بازوف وتحدث اليه فان شيئا غاية فى الأهمية قد يحدث ، شيئا قد يغير حياته كلها على السفينة . وسمع خلفه وقع خطوات ، وأجفل عندما أحس بيد بازوف على كتفه .

وقال بازوف فى صوته المهموم كالمعتاد : « لقد أعطت اليوم مائة واثنا عشر » . ثم أضاف : « ان الرجال قد أخذتهم لوثة جنون فى حجرة الطعام ، فهم لم يتوقعوا شيئا من ذلك قط . ولكن ليست هذه سوى البداية ولا بد من المحافظة على الآلات فى هذه الحالة . ان هذه غاية فى الصعوبة ، وهذا هو المحال الذى نبذل فيه جهدنا . أعنى ان الأمر يحتاج الى انتباه دائم ، وسيكون علينا ان نقضى أكثر من نوبة عمل فى الميناء فى عنبر المحركات .

وأجاب حسين فى نفس النغمة الجافة الخالية من التعبير : « ان المحاقن كثيرا ما تتلوث » . ثم أضاف : « الجو مظلم الآن ، ولسنا نستطيع أن نرى شكل الدخان . وعلى كل حال فقد ظل لونه أسود ، وكانت كمية هباته كثيرة ، ولكن النفثات تبدو الآن صافية » .

فقال بازوف فى شرود : « ان الدخان ليس سوى دليل » . وأضاف : « لا شىء سوى الدخان » . ثم ضحك وقال : « هل دورك الآن فى المراقبة يا مصطفى ؟ »

فأجاب حسين وهو ينهض : « أجل ، سوف أمضى الآن » . ثم أضاف : « لقد كنت أستريح قليلا » .

ولم يحدث بينهما شيء خاص . فقـــد تبادلا بعض الكلمات عن العمل ، وكانا على وشك الانصراف . وقد كان بازوف ـ ويحتمل أنه كان في غير حالة الذهول ـ أكثر تآلفا معه . ويبدو في وضوح ان هذه الحالة كانت قد تركته ، لأنه كان بصفة عامة على هــذه الحال الا مع الشيوعيين الصغار .

وقال بازوف فجأة : « وأريد أن أشكرك كذلك » . ثم أضاف في بساطة : « فلولا مساعدتك لما استطعت ان أصنع شيئا بمفردى »

فغمغم حسين قائلا : « علام تشكرنى ؟ أكنت أنا الوحيد الذى قام بالعمل ؟ ونظر من زاوية عينه فى وجه كبير المهندسين ، ولكن هذا الأخير لم يكن يتعجل الذهاب ، فمد يده .

وفجأة يحدث الشيء الذى كان حسين يتوقعه فى صورة مبهمة . فأمسك بيد المهندس وضغط عليها بقوة جعلت الأصابع فيهـــا تتفلع .

وقال من أعماق قلبه : « آه ، يا الكسندر ايفانوفتش ! يا صديقى العزيز ! »

وكانت البرقية التى وصلت الى الأجماليا كالآتى :

« اننا نتحداكم فى مباراة اشتراكية لانجاز خطة الشحن · موافقة عن طريق اللاسلكى ·

رئيس لجنة اتحاد التجارة البحرية ·

كوتلنيكوف » ·

وكان كوتلنيكوف نفسه يتململ فى قلق خلف ظهر عامل اللاسلكى أثناء ارساله للبرقية ·

ـ هل يحتمل انهم لا يتكلفون مجرد الحديث الينا ؟ ان موقفنا شاق قليلا كما ترى · أجل ، اننا لم نخلص من الأعمال المتخلفة علينا بعد ·

وأوقف فولوديا جهاز الارسال واستدار فى كرسيه ·

ـ وفى هذه الحالة سوف نلحق بهم بصورة غير رسمية ، وسيضطرون الى الاعتراف بذلك · أليس هذا نفس الشىء ؟ اننا نلقى اليهم بالتحدى ،أعنى نحن الخمسة والأربعين رجلا على الديربنت· أليس هذا وجيها ؟ ان المنافسة شىء عظيم ! اننى لم أستطع أن أنتظرهم لكى يرسلوا الينا تلك الرفاسات · وأظن اننى اليوم قد أثرت أعصاب أولئك القساة ذوى العقول السميكة فى الميناء · وعلى كل حال فقد أرسلوا الينا الرفاسات فى الوقت المحدد ·

- هل سنقهرهم ؟
- طبيعى أننا سنقهرهم . أظنك يا استبا تذكر أننى أنا وأنت كنا مخطئين تماما فى رأينا فى البحـــارة . أتذكر انك سميتهم أوغادا ؟

- لا يبدو أننى أتذكر ...

- يا لك من ماكر ! ثم اننى أغريتك بوظيفة فى ابرون . انك تستطيع فى سهولة ان تنسى ما لا تريد ان تتذكره !

- هذا شىء مضى .

- هذا أفضل . ارأيت كيف كان أولئك السواقون يعملون فى الميناء ؟ هذا شىء جديد . وأبرز ما فى الأمر أن الرؤساء لم يكن لهم دخل فى الموقف . أتذكر من الذى ابتدأ العمل ؟
- أجل ، انه مصطفى حسين .

- لقـــد كان يعمل فى الخط الملاحى (ى. س.) . ولكن لمـــاذا تركه ؟ أتعرف السبب ؟

- يقال أنه طرد لادمانه الخمر . ولست أعرف السبب على وجه الدقة .

- ليس من الصواب يا استبا أن ننزوى عن الآخرين ، ولا تتعرف على الرجال البتـــة . لقد بدأت المبـــاراة تلقائية بدوننا ، وكل ما صنعناه أننا اشتركنا فيها .

فقال كوتلنيكوف معنفـــا له : « أردت بالأمس ان تكون لك القيادة » .

- دعك من هذا ، فيجب أن نلغى عجرفتنا السخيفة ، وعلينا أن نعمل مع الرفاق . عندئذ ربما استطعنا ان نقودهم

فقال كوتلنيكوف : « اننا نحتـــــاج الى مزيد من الاجتماعات العامة · وقبل كل شيء يجب علينا فى الحقيقة ان ننزل للعمل · لقد نظمنا الأجهزة الكهربائيـــة ، ونصورنا أننـــا نضرب بذلك مثلا وعددنا أنفســـــنا نماذج صغيرة تحتذى · ان هــــذا العمل دنيء يا فولوديا ! فعلينا ان نكون حيث لا تكون الأشياء على ما يرام فاذا أنت لم تكن تستطيع ان تصلح الآلات فانك تستطيع أن تناول الأدوات وتنظم الرجال ، وتبين لهم الهدف من كل شيء · انها ليست بسيطة » ·

ولم يسرع بحــارة الأجماليا بالرد · وفى تلك الأمســية هرع فولوديا الى حجرة الطعام أثناء تناول العشاء ·

وأعلن في هدوء : « رئيس لجنة اتحاد التجارة مطلوب باللاسلكى · أسرع يا استبا ! »

وغصت حجرة اللاسلكى بالرجال · كان فيهم البحارة والكهربائيون وعامل الآلة المتنقلة والســواقون ، حتى النوتى اليــافدين جاء · وتناقشوا بأصوات خافتـــة تشبه الهمس كما لو كان الشخص قــد طلبه رئيس اللجنة كان هناك فى الحجرة خلف لوحة التحـــويل ، وكان حسين ينصت وفمه مفتوح الى ضربات المفتاح وصفير مكبر الصوت ·

وسأل فى هدوء : « اذن فقد كنتم ترسلون رسالة ؟ وماذا كان منه ؟ بماذا أجاب ؟ »

فقال فولوديا هامسا : « عليك اللعنة ، انك تثيرنى ! »

ومن بعيد جاءت الاجابة غير المكترثة تقول :

« نوافق اذا كنتم جادين · وشروطنا هى : تنفذ الخطة سفينة حمولتها خمسة وعشرون ألف طن ، وتتم الاصلاحات فى الطريق · حول »

وضجت الحجرة وانتقلت البرقيـة من يد ليد . وهز اليـافدين رأسه .

وقال : « سيكون الأمر على ما يرام اذا نحن أنجزنا أعمالنـا المتخلفة . ولكن تنفيذ الخطة بخمسة وعشرين ألف طن ـ اسمحوا لى فليس لهذا معنى » .

فأجاب كوتلنيكوف فى تجهم : « ولكنهم يقترحون ذلك ، وله معنى عندهم » .

ـ ان محركاتنا ليست كمحركاتهم .

ـ انها من نفس النوع ، ولكن أدمغتنا ليست كأدمغتهم . هذه هى المسألة .

فتقدم برونين ، عامل المحرك الاضافى ، الذى لم يكن قد قال أية كلمة ، وقال : « أستطيع أن أخبرك بشىء عن ذلك ، أتعرف من الذى ضبط محركات الأجماليا ؟

ـ وكيف لى أن أعرف ؟

ـ ولكننى أعرف انه مهندسنا بازوف . فقـد كان يعمل فى أحواض السفن .

ـ ان الأمر قد اختلط عليك . فهذا مستحيل !

ـ كلا لم يختلط على . انى أعرف ما أتكلم عنه . انه هو .

وابتسم حسين ابتسامة انتصار .

ـ لقد حاولنا بالأمس ان نحصل من المحركات على مائة واثنتى عشرة دورة . وأنتم جميعـا قد شـاهدتم هذا ، أليس كذلك ؟ وبازوف يقول اننا نستطيع الحصول على مائة وخمس عشرة دورة .

وخطف البرقيـة من فوق المنضدة وأسرع خارجا . وراقبـه خروليف وهو يخرج وفى عينيه ابتسامة شريرة .

وقال وهو يصوب نظره الى أليافدين : « ماذا تراه صانعا ؟ انه سيذهب الآن الى المهندس يتزلف اليه فيما أظن . ياله من مداهن ذليل ! لقد حوكم من أجل (فتونته) ، ألا تعلمون ؟ »

فقال كوتلنيكوف مصححا له فى تجهم : « بل من أجل ادمان الخمر ، فاحتفظ بحكايتك الملفقـة لنفسك . فلسـانك يا خروليف قذر كممسحة الأرض التى يغسلون بها ظهر السفينة ! »

وفتح حســين باب حجرة بازوف نصف فتحـة . وكان كبير المهندسين يجلس الى المنضدة ورأسه بين يديه .

فقال حسين وهو يغلق الباب فى حرص : « أأسنانك تؤلمك ؟ »

فأجاب بازوف وهو يتمدد : « لا ، ان أســنانى على ما يرام » . وأضاف : « وما الذى يجعلك تفكر فى هذا ؟ كل ما فى الأمر أننى لا أستطيع النوم . اننى لم أنم ليلة أمس ، ولست أستطيع النوم فى هذه الليلة كذلك » .

وجلس حسين على طـرف الكرسى وفتح البرقية . ولكنه لسبب ما طواها ثانية .

وتساءل فى لهجة تعاطف : «اذن فأنت تحس بخور فى النفس ؟» وأضاف : « لقد لاحظت ذلك منذ أمد بعيد ، فما المسألة ؟ »

فأجاب المهندس فى صوت مجهد : « ان المرء يمر به كل نوع من الأفكار » . ورفع رأسه ، وضحك ضحكة قصيرة ، وكان من الصعب معرفة ما اذا كان يضحك من نفسه أم من سؤال حسين . ثم أضاف فجأة : « ان لى زوجة على البر » .

ولمعت أسنان حسين وهو يقول : « أهى شابة ؟ »

- ماذا تراك تظن · اننى أنا نفسى لست مسنا · ألست كذلك ؟ وبهذه المناسبة ليست بك حاجة لأن تكون رسميا هكذا عندما نكون فى غير أوقات العمل ·

فاستقر حسين فى كرسيه على نحو أكثر راحة ، ووضع رجلا فوق الأخرى فى طيب نفس ·



وقال فى رقة قلب : « أهذا ما أنت مضطرب من أجله ؟ » وأضاف : « عندما ينتهى موسم الملاحة ستقضى عطلتك فى البيت · واذا لم يكن لديك أطفال فسوف يكون لك أطفال كذلك » ·

- ان المسألة ليست بهذه البساطة يا مصطفى ·

- ولماذا ؟ ألستما على وفاق ؟

- كلا ، فقد بعثوا بى الى هنا ، ولم يرقها ذلك ·

وتلاشت ابتسامة حسين ·

وانطلق يقول دون ان يستطيع منع نفسه : « أف ! يا لها من حياة ! اليك قصتى كذلك · لقد تعرفت على فتاة يا صديقى العزيز · وفى رأيى انها فتاة رائعة ، فتاة كالجوهرة الحرة · عرفتها بمجرد أن أتمت دراستها بالمعهد · ولكن كيف تستطيع أن تحتفظ بصداقتها وأنت لا تراها سوى مرتين كل شهر ؟ وأحيانا كنا نلتقى فى الميناء مساء . وأحيانا فى الصباح المبكر عندما لا يكون لديها وقت · وأنا

أطلب اليها أن تحضر الى الميناء الداخلي ، فربما تأخرنا . أو ربما لم أستطع مغادرة السفينة . ثم ان الرفاق في الميناء ألسنتهم حداد، فهم جميعا يحاولون مغازلتها كأن يقولوا : انك منزعجة يا سيدتي، ألا يمكن أن تبقى في صحبتنا ؟ ، وما أشبه ، دون ان يتفكروا في جرح مشاعرها . ولذلك فنحن نلتقي في الحديقة العامة ونتجاذب أعجب الأحاديث . انها تريد ان تعرف كل ما يتصل بحياتنا على السفينة ، ولماذا لا ننفذ الخطة . ويبدو أنها تفكر في شأني كثيرا . وتتوقع مني شيئا عظيما . وهي تقول لي : انك ذو طبيعة نارية . وقوى ، ولهذا فأنت لا تخاف .

فقال بازوف : « انها فتاة عاقلة . وبماذا أجبتها ؟ »

- هذا الكلام لغو كثير بطبيعة الحال . وقد أخبرتها أن تنتظر ، فنحن كذلك سنصير مشهورين . ويبدو لي الآن أنه لا حظ لي معها . فهناك عدد كبير من الرفاق على الشاطيء ، فيهم ذو الطبيعة النارية ، وفيهم القوى ، وليس عليها الا أن تختار . وربما صادفت شخصا ما أثناء وجودي في البحر . انها هي نفسها قادرة على أن تقوم كذلك بعمل خطير . وقد كانت رئيسة عمال أثناء العمل التدريبي . وهي تقول ان العمال الموسميين لهم في رأى عظيم حقا . وقد جعلني سماع ذلك منهـــا أحس بالحزن . اننا لسنا من مشرب واحـــد في الحياة يا ألكسندر ايفانوفتش . »

فقـــال بازوف وهو يبتسم : « يجب أن يبقى كل رجال البحـــر - بحسب رأيك - معتزلين للحياة . وهذا لغو . فكوتلنيكوف مثلا له زوجة وطفل ، ورئيس البحارة له صبية سيذهبون الى المدرســـة . وسوف ترى أى أطفال لطاف هم ! »

- وماذا عنك ؟ ينبغي عليك أن تجرب ما تدعو اليه !

ونهض بازوف وبدأ يتمشى في الحجرة ..

وقال فى لهجة المذنب : « لم أكن سوى مازح يا مصطفى ، فليس لى زوجة . اننى وحيد . لقد سألتنى عن أسنانى فظننت ذلك مزحا . لقد كانت نكتة سخيفة . لا تؤاخذنى . »

فقال حسين متشدقا وهو يبلل بلسانه سيجارته التى صنعها بيده : « اذن فقد خدعتنى . حسن ، هذه نكتة تسر قلبك » . وفتح البرقية وقال : « اليك ، فاقرأ اجابة الأجماليا . »

وانتظر فارغ الصبر حتى فرغ المهندس من قراءة البرقية .

قال بازوف : « خمسة وعشرون ألف طن لتنفيذ الخطة . هذا شىء لا يستهان به . ولكننى أظن أننا سننجح اذا نحن عبأنا كل امكانياتنا بطبيعة الحال . »

ــ أى امكانيات ؟

ــ السرعة فى البحر وفى الشحن . وربما كان هنـــاك غير ذلك أيضا ..

وبدأ حسين يفكر ..

وسأل : « ألا يمكننا أن نزيد من حمولة الديربنت ؟ »

ــ كلا يا حسين ، فالسفينة ليست مصنوعة من المطاط .

ــ لا تمزح .. ما مقدار الوقود الذى نأخذه من الميناء ؟ كمية تكفى لأربع رحلات ؟

ــ أجل ، ولكن ما شأن الوقود بذلك ؟

ــ اذا نحن لم نأخذ على السفينة سوى وقود رحلة واحدة فاننـــا نستطيع أن نستفيد بزيادة الحمولة على السفينة ثلاثمائة طن .

فصاح بازوف : « مرحى ، فأنت على صواب . اننى لم أفكر فى ذلك قط ، فلماذا نحمل معنا وقود أربع رحلات ؟ »

- لست أدرى ، انها قاعدة . ويبدو لى أن ذلك لاحتمال طوفان آخر .

- « على كل حال ليس هذا صوابا . فينبغى أن نحمل تجارة لا حجارة . ولمـــاذا لم يفكر أى شخص فى ذلك من قبل ؟ » وتوقف بازوف ، ثم أضاف : « ألا نستطيع التخلص من شىء آخر ؟ »

فقال حسين فى تدبر : « ان فى حجرة الخطاف كمية كبـــيرة من السلاسل والخطاطيف الاحتياطية وقطعا أخرى من الخردة ، ثم هناك مخازن عنبر المحركات والورشة . فاذا نحن جمعنا كل الحديد النفاية والأشياء القديمة التى على السفينة فانها تصل الى ما يقرب من خمسين طنا . »

- أمعنى هذا اننا نحصل على زيادة قدرها ثلاثمائة وخمسون طنا فى كل رحلة ؟

فقال حسين ، وهو مشرق الوجه : « هكذا ترى . وقد قلت أنت اننا لا نستطيع زيادة الحمولة ! »

وعندما ضبطت الآلة الثـــانية ، استطاعت الديربنت أن تقطع المسافة الى مراسى استراخان فى ثلاثين ساعة · ولكن حدثت هنـــاك ورطة · فغند وصـــول السفينة لم يأت الرفاس الا بصندلين ، لأن الثالث كان معطلا ·

وفى حجرة اللاسلكى عبثا كان فولوديا يشد حباله الصوتية ، وهو يطلب موظف (التشهيلات) فى الميناء · فجاء الجواب المتكرر غـــير العابىء يقول : « لقد بعثنا الى استراخان فى طلب صنادل احتياطية » الأمر الذى أصاب عامل اللاسلكى بنوبات من الغضب العاجز ·

واتخذت الصنادل المملوءة طريقها الى الشمال · وكانت أنبوبة الشحن فى الديربنت ممـــدودة ومدلاة فوق سطح السفينة كجذع شجرة متآكل هائل · وكانت طيور النورس تحلق وتصيح فـــوق السفينة ، وهى تتخاطف الأسماك الصغيرة الفضية اللون من بعضها البعض · أما البحر ، فهو بالقرب من جانبى السفينة أخضر شاحب ، ولكنه يصير الى الأزرق المعتم ناحية الأفق ، ويلتقى بلون الســـماء الخزفى · وأما البحارة الذين كانوا فى نوبة العمل فقد كانوا يذرعون سطح السفينة جيئة وذهوبا فى ضيق ، وينظرون صـــوب الشمال الذى ستأتى منه الصنادل الأخرى ·

وجرى كازاتسكى ، ضابط الملاحة ، وقد ضاق ذرعا بالانتظار ، ليبحث عن الربان ·

وقال عندما ظهر فى الصالون : « تصور أننا وفرنا خمس ساعات من الزمن · وينبغى أن نكشف للخط الملاحى عن أفضل ما فينا · حقا ينبغى علينا ذلك · »

وكان ايفجينى استفانوفتش جالسا الى المنضـــدة يقلب شايه · واستطاع أن يرى وجهه على الجانب اللامع المقوس من وعاء الشاى ، وقد انتفخ على نحو يفوق التصـــور بتورمات قرمزية هائلة بدلا من الوجنتين · وفى أثناء حديثه الى زميله ظل يلقى نظرات جانبية على وعاء الشاى ، دون أن يستطيع تحويل عينيه عن ذلك القناع المثير ·

ومضى كازاتسكى يقول : « لا ضير فى أن نرسل الى الادارة برقية تقول : على أساس مباراتنا وعملنا القائم ·· »

فقاطعه ايفجينى استفانوفتش فى ضيق قائلا : « كفى ! » وانتشر الوجه الذى على وعاء الشاى وصار تغطيه شبكة من التجاعيد · ثم أضاف : « كف عن اختراع الأسانيد الزائفة · يا للعار ! »

فأجاب كازاتسكى باسما : « يا صديقى العزيز ، هذه ليست سوى الحقيقة الخالصة · فلماذا لا تستفيد منها بعض الفائدة ؟ وكم مكثنا نعانى من النوبات العصبية من أجل اننا كنا فى ظـــروف سيئة ؟ والآن ، كل ما تستطيع أن تقوله هو : كفى ! عـلى كل حال ، أنت وشأنك · »

فقال القبطان : « لست أريد أن أســفه أى شخص ، وأنا لدى ما يكفى من تلك البرقيات · » وصارت كل كلمة تثيره ، كالشخص الذى وجد شجاعته أخيرا ليقول رأيه الخاص · ثم أضاف : « يجب أن تفهم ان كل هذه التقريرات المدمرة ليست سوى أكاذيب · لقـــد بدأت المباراة وليست لى أو لك أية حيلة فيها ، فلا تنس ذلك ! »

وقد كان لايفجينى استفانوفتش ـ كما هو المعتاد فى لحظات غضبه

النادرة - قدرة على رد الاهانة تجعل الموقف فى صالحه ، وتبرهن الى أى حد كان هو محقا فى سخطه . ولكن كازاتسكى كان صامتا ، وكان وجهه يدل على خوف وحيرة وديعة .

فقال مغتما : « لم يحدث معى قط انك فسرت هذه الاشياء التافهة بهذه الطريقة . ربما أكون قد زدت فيها قليـــلا وأنا أحاول أن أبرز الموقف فى أجلى وضوح . انهم منزعجون فى الخط الملاحى كثيرا بشأن البداية الهزيلة التى بدأ بها الموسم الملاحى . وقد سبق أن طـــردوا أحد القباطنة فيما سمعت . ولست أحب - بصراحة - أن أعمل مع أى قائد آخر . »

فسأله ايفجينى استفانوفتش : « أقلت انهم طردوه ؟ »

- انه ليحزننى أن أسمع انك يمكن أن ... فمثلك عضو مجرب . مثلك رجل محـــترم ! وأقولها لك مخلصا ، اننى أشعر نحـــوك بتقدير خاص .

فتمتم القبطان قائـــلا : « ألا يمكننى أن أدرك ذلك يا صـــديقى العزيز ؟ صدقنى اننى أقدر موقفك كل التقدير ، ولكننى قلق بسبب هذه الرسائل الاستعراضية كلها . ويبدو لى أننا قد أرسلنا منهـــا أخيرا قدرا كبيرا . فاذا تحرينا الحقيقة ألا نستحق الكثير من اللوم نحن أنفسنا ؟ .. على سبيل المثال قد تغوص السفينة فى المنـــاطق الضحلة أثناء الشحن . فمن الملوم حقيقة ؟ وهل تذكر قصة المـــاء المثقل للسفينة ؟ حقيقة أنت تعرف ... »

وفى نفس اللحظة هدأت نفس كازاتسكى ، واتخذ مقعدا بجانب المنضدة .

وقال فى ضجر : « أجل اننى أوافقك ، فمن ذا الذى لا يهفو مرة بعد مرة ؟ ولكن يبدو اننا الآن قد وصلنا الى نقطة تحول . فكبير المهندسين لم يسمح لمن ليس لديهم عمل بالنزول الى الشاطىء ، وضبط

المحركات . ولم يكن له أى حق فى أن يحرم الرجال من وقت راحتهم. ولكننا سنضطر للتعامى عن ذلك . »

- بلغنى ذلك .

- أجل ، وربما كانت فى عينيه نظرة الذئب ، كأنه يقول : اننى أحتقرك ، ولكننى يجب أن أتحدث اليك . فلا تعره أى التفات ، فهو شخص غاية فى الغرابة . وأنا - من جانبى - أحاول دائما أن أجعله يفهم أننى لست من نفاية الماضى كما يظننى ، ولكننى كأى شخص آخر هنا تماما . ها - ها ! وهذا صحيح تماما بطبيعة الحال . وفى رأيى يا افجينى استفانوفتش ، ان هـــذه المباراة فى العمل كانت نوعا من الكشف ، انه منهج عالمى رائع للافادة من أية خامة انسانية . فقد استغلت كل البنادق طويلة المدى للحكمة البشرية ، حتى تلك البنادق الأزلية مثل « المجد » و « الجرأة » . ان فى كلمة « التحدى » شيئا عتيقا ، ولكنّ فيها كذلك شيئا جميلا مفعما بالقوة والحق . انه يبدو الآن أن تعبيرا جديدا يدل على الذكاء قد ظهر على وجوه الرجال . وباختصار فأنا معجب بذلك . »

وأصغى ايفجينى استفانوفتش فى صمت ، فقد كان الاطار السلبى للعقل قد تغلب عليه ، ذلك الاطار الذى يتغلب عليه أثناء مناقشته مع الوكيل الأول . وكل ما كان يستطيعه هو أن يتابع اللفتات غــير المتوقعة فى أفكار محدثه ، تلك اللفتات التى كانت تحدث فى ذلك المهوى السحيق الذى كاد يضلله .

ثم سأل فى تأمل : « اذن فأنت تظن أن تغييرا قد حدث ؟ »

- لا شك فى ذلك . وعلينا أن نبذل ما فى وسعنا لنزيد من هذا النجاح . وكثير منه يتوقف على عمليات ضبط السفينة على البر . ان موظفى (التشهيلات) لهم من يفضلونهم ، كالاجماليا . فالسفينة النموذجية تكون لها الأولوية فى كل شىء . ولهذا يجب أن نكسب

للديربنت شهرة السفينة النموذجية • فاذا بعثنا ببرقية الى الادارة على الأسس التى اقترحتها ••• »

ـ «حسن ، ليست لدى اعتراضات ، فلنصنع ذلك» • هكذا وافق ايفجينى استفانوفتش • وشعر بالأسف لكونه كان متسرعا ، وأراد أن يقوم بشىء مقابل سريعا لكى يزيل خطأه فى حق وكيله •

وقال كازاتسكى وهو يخرج دفتر رسائله : « سنجعلها قصــيرة وكريمة ! لقد نجحنا فى زيادة السرعة على أساس المباراة الاشتراكية والتنافس فى العمل • وفى ذلك من الجدية والفطنة ما يكفى • ألا تعتقد ذلك ؟ »

وفرغ من كتابة البرقيـــة وناولها الى كوتازوف • وتمشى ذهابا وجيئة ثم توقف أمام فتحة الباب وهو يتأرجح على كعبيه ، فقد تجعد حاجب القبطان وهو يقرأ البرقية •

وأخيرا قال : « حسن ، انهـــا على هذا النحو تكون كريمة بما يكفى • »

فقال كازاتسكى فى تثاؤب : « هناك شىء آخر • لقد اقترح البعض أن نترك حمولة وقود آلات الديزل اللازمة لأربع رحلات • ويعتقد بازوف أننا لو نزعنا من السفينة الوقود الزائد وكل أنواع السلاسل فاننا نستطيع أن نزيد حمولتها من الشحن ثلاثمائة وخمسين طنا • وهذه فكرة طيبة • كل ما فى الأمر أننى أردت أن أحذرك من أن تفكر فى معارضتها • »

فقال ايفجينى استفانوفتش : « معذرة ، أتريد أن نترك احتياطى الوقود ؟ »

ـ بل نترك ما يكفى لامداد رحلة واحدة يا ايفجينى استفانوفتش •

ـ ولكن أهذا صواب ؟

فقال كازاتسكى وهو يضحك : « أجل ، لقد عرفت ذلك · فالمعقول أن نسأل لماذا نحمل امدادات أربع رحلات ؟ »

ـ لكيلا ـ هناك كثير من الأسباب ، وكلها وجيهة ·

وتثاءب كازاتسكى ·

وقال فى رفق : « ان وقود رحلة واحدة يكفى حتى فى الجو العاصف ·· ثم ثلاثمائة وخمسون طنا فى كل رحـــلة ، أى ثلاثة آلاف طن شهريا ، وما يقرب من عشرين ألف طن فوق خطة الموسم ـ فى هذا من الوضوح ما يكفى · »

ـ ولكن ، أليس ذلك خطيرا ؟

ـ انه كذلك بطبيعة الحال ! فأنت تخاطر بالحصول على ترقيـــة وعبارات شكر من جودويان ، حسن ، أتوافق ؟

فقال الوكيل فى تفكر : « ان بازوف يقول اننا نستطيع أن ننفذ أكثر من الخطة بشكل ملحوظ اذا نحن حشدنا كل الامكانيات الدفينة ·· ويبدو انه على صواب · وعلى أى حال فقد كشف هو عن احـــدى الامكانيات من قبل · ومن المحتمل أن يشق هذا الجسور الجلف لنفسه طريقا ، فسوف ترى · »

وجاء الصندل الأخير بعد تأخير ساعتين • وقطـــره الرفاس الى جانب الديربنت ، وهو يثير بلولبه هياجا فى الماء ، ثم أطلق صفارة حادة هدأ بعدها • وعلى ظهر الصندل كان رجال كسالى مكتئبون قد لفوا أنفسهم بمعاطف من الفرو - كانوا يتحركون هنا وهناك فى بلادة وهم يخرجون أنبوبة الشحن • وكان النـــوتية يراقبونهم من فوق جانب السفينة •

وقال فولوديا ماكاروف فى عصبية : « انهم فى المـــراسى حكام مستبدون • انهم فيران تخدش الورق ، ولا يهمهم ما يلحق بنـــا من ضرر لفقدنا ساعتين • اننا بهذه الطريقة لن نصل الى أى مكان ، فيجب علينا أن نعنفهم على نحو ما •• »

فقال كوتلنيكوف فى ترو : « سوف نقدم شكوى الى مدير خط كاسبيان الملاحى • وهو يصلح من شأنهم • »

ونظر حسين الى المتحدثين ،وحاجباه يختلجان فى انفعال • فقد أثارته حركات رجال الصندل البطيئة عـــلى نحو لا يطاق ، وكذلك وجوههم البليدة •

فصاح الى أسفل : « أأنتم تعملون هكذا دائما ؟ يا هؤلاء ! أنتم يا من فوق المدرعة ! »

فقال كوتلنيكوف ناصـــحا له : « لا تنهرهم ، فانهم لن يستيطعوا - رغم ذلك - سوى أن يتلكأوا • »

ولكن ذلك لم يهدىء حسينا ، فقال متوعدا : « قولوا لرؤسائكم الملفقين اننا سنقدم شكوى ! وسوف نصل الى وضع الأمـــور فى نصابها . »

وجاء الرد من أسفل يقول : « لماذا تلومنا ؟ فليس لنا فى الأمـــر حيلة . »

وابتعد حسين . فلم تكن هناك جدوى من اقتصـــاد الدقائق فى الميناء ما دامت نتيجةمجهودهم من الممكن أن يضـيعها عليهم موظف التشهيلات ، وعلى رجال الصنادل أولئك من ذوى اللحم الكثيف ، وعلى عمال المرفأ وحاول حسين ألا ينظر الى ما كان جاريا على الصندل وأن يتمالك نفسه من الانفعال الكئيب الذى كان يغلى فى نفســه ، والذى كان غاية فى الرداءة ، لانه لم يكن هناك فى الحقيقة شخص يمكن السخط عليه .

وعندما غادروا المراسى صار أكثر هدوءا ، فقد كانت الديربنت تسير بسرعة اثنتى عشرة عقدة . ثم جاءت نوبته فى المراقبة ، وكانت نوبة هادئة نسبيا ، فالآلات لم تفقد أى دورة ، وكان الوقود يطفو على الوجه المحدد . ومع ذلكفقد وخزه شعور ملح هو : أيمكن أن يكون كل ذلك بلا طائل ؟ .

وبعد نوبة مراقبته تناول العشاء ومضى لينام ، ولكنه حين استيقظ رأى من خلال ثقب الباب ضبابا كثيفا فى بياض اللبن .

وقد كان الضباب دائما يملأ حسينا بشـــعور سوداوى مرير ، ويبعث فى قلبه الأشجان التى بدا من قبل أنها تلاشت . وصعد الى سطح السفينة ، فرأى أنوار الصوارى معتمة كأنها قد غلفت بخـرق بيضاء حريرية . وكان للأصوات ووقع الاقدام رنين أجوف . وصعد اليه فولوديا .

وقال فى صوت أجش : « اصغ الى ماصنعه قوادنا . ياللغباء !وبعد

ذلك يأتى هذا الضباب ! المؤكد أننا سنتأخر الان ! »

ولم يندهش حسين لا لوجه فولوديا الحزين ولا لما قال : أيمكن أن يحدث شيء مرض فى مثل هذا الضباب ؟ واستنشق نفسا من الهواء الكثيف ، جعله طعمه الحلو يبصق من فوق ظهر السفينة ·

- « تصور أنهم بعثوا ببرقية تقول : (على أساس المباراة والتنافس فى العمل ··) هؤلاء الأوغاد يضاربون ! »

فقال حسين فى غير مبالاة : « عليهم اللعنة ! » ثم أضاف : «ان هذا الضباب كالحائط ، وها نحن أولاء قد فقدنا سرعتنا ، وأستطيع أن أدرك ذلك من صوت الآلات · »

فقال فولوديا : « يحز فى نفسى أن أفكر فيما يضاربون عليه ، وأضاف : « حسن » سأراك فيما بعد » ·

وبقى حسين بمفرده · وكان كل شيء حوله يتحرك فى بطء وبلا ضجة · وكانت أجزاء رمادية من الضباب تزحف فوق سطح السفينة ، وتعلق بالأبواب الارضية ، وتتسلق درجات السلالم ، وقد جعلت لكل شيء رائحة الندى والعفن التى تنقبض لها النفس، كالغاز العادم · وأطلق نفير الديربنت صرخة مكتومة ، جاوبتها صرخة مجلجلة لسفينة كانت قادمة فى الاتجاه المضاد ، وكان نورها الأخضر يتراءى كاللمع خلال الضباب · وقبع حسين محتبيا ·

وقال فى هدوء بصوت له رنين أجوف : « لقد فسد كل شيء · انهم يشينون مباراتنا ببرقياتهم ، أولئك الأوغاد ! ومثلهم تماما أولئك الذين على البر ·· » واستعرض فى ذهنه وهو ضجر كل ما كان قد حدث فى الأيام القليلة الماضية ، على أمل أن يجد شيئا ما ، أكثر سوءا يمكن أن يملأ الكأس ويبرر له استيلاء اليأس عليه ·

وراح يفكر : « ان الضباب سيؤخرنا كثيرا ، ولن تأتى زينيا الى

المتنزه ، فلا حيلة مع الضباب والساعة المتأخرة · أجل ، من المؤكد أنها لن تأتى ، فقد مضى وقت طويل بعد آخر مرة التقينـــا فيها · وأراهن أنها قد نسيت كل ماكان من أمرى · وهناك بازوف بأفكاره العظيمة · وماذا يرتجى من عصابة كهذه على البر ، كل منهم يحمى الآخر حتى انك لا تعرف من الملوم · والرسائل والتقريرات المزيفة ·· ولكن أيمكن ألا يكون لبازوف أمل فى شيء ؟ أيمكن أن يكـــون تماما كموظف التشهيلات ذاك فى استراخان ، ومثل كازاتســـكى وألياقدين ، وكل ما فى الامر أنه أكثر منهما حذقا ؟ اننا نقترب من الميناء ، وهذه هى الجزيرة ، وسوف نرى الانـــوار الآن · ماذا فى حسوة جعة ؟ »

ومضى الى جانب السفينة · وحين وضع يديه على القضيب نظـر تجاه أنوار الرصيف التى كانت عائمة فى الضباب · ووقف هناك وقد خارت عزيمته فى الهواء العفن ، الى أن سمع خشخشة السقالة عند انزالها · ثم هبط مسرعا الى الميناء الداخلى ، وانطلق خارجادون أن ينظر خلفه ، وهو يطوح بذراعيه فى حركة انطلاق كما لو أنه كان يترك السفينة الى الأبد ·

وكان رجال المراقبة يحدثون لغطا قرب السطح ، يصيح بعضهم يدعو بعضا فى الضباب · ولم يكن لديهم متسع من الوقت ليهتموا بشأن حسين · فبعد مضى ساعة رآه بحارة من الديربنت كانوا قد دلفوا الى حانة يلتمسون الدفء · وكان من بينهم ياكوبوف البراد الذى كان حسين قد بين له كيف يستخدم الرافعة · وهو رجل هادىء لا يحب الفضول · وقد أقلع عن التدخين لا لســـبب الا لأنه كلما اشترى سجاير وزعها جميعا على الآخرين · وقد دهش لرؤيتـــه حينا ، وحاول أن يذهب اليـــه ويعود به الى الســـفينة · ولكن خروليف أمسكه من كمه فى احكام ·

وهمس ساخرا : « عليك أن تبقى فى مكانك ، فان عاملنا الهـ

سرعان ما يكشف عن حقيقته . فاهدأ فى مكانك كما قلت لك ! »

ونظر حسين حوله وقد تمدد فى كرسيه وأمامه حشـــد كبير من زجاجات الجعة الفارغة ــ نظر بعينين زائغتين ملتهبتين ليلتقط نظرات الجالسين المراوغة بجواره . والتصق الطرف البعيد لسيجارته بشفته السفلى التى كانت مدلاة ومغطاة بزبد الجعة . وظل الندل يحومون فى قلق حول المنضدة فترة طويلة . وقد جلس قبالته رفيق الشراب الذى جاءت به الصدفة ، وكان شابا صغيرا وضعيفا قد استولى عليه الفزع ، ويرتدى ملابس رثة .وكان يزر عينيه الصغيرتين وقد ارتسم فيهما تعبير عن الخضوع ، منتظرا سنوح فرصة يولى فيها الأدبار .

وفجأة نهض حسين وأزاح الزجاجات من فوق المنضدة . وترنح فوق قطع الزجاج الملون فى طريقه الى الباب حيث قابلـه جيش من الندل فى زيهم الأبيض، وهم يلوحون مهددين بفوطهم . فدفع واحدا منهم بكفه ، فأن الرجل كما لو أن رأســـه كان قد دق فى افريز الباب . وانطلق حسين الى الشارع ، وانطلقت وراءه الصـــفارات . ولكنه انسل مسرعا . أما فى البار فقد انفجر خروليف بالضحك وهو يضرب بيديه على ركبتيه ، فى حين دفع ياكوبوف للندل بعض النقود . وطلب اليهم ألا يحدثوا كارثة .

ولم يعد حسين يهمهم بصوته اللين المرتفع كما كان يصـــنع فى البحر قبل غروب الشمس . ولما كانت أنفاسه قصيرة بسبب الشراب وكان يلهث ، فقد أحدث جئيرا كجئير النفير فى السفينة، وهز قبضته فى الهواء .

وانعطف المارة الى الطريق الجانبى . وتحت ضوء مصباح أمـــام مدخل احدى دور السينما صاح بعض الشبان بأعلى صوته :

ـ « واحد من رعاع الميناء ! رجل عاطل ! »

وعند مفترق الطرق مد حسين ذراعيه ليوقف فتـاة كانت تمضى مسرعة وقد تملكها الفزع ·

- « قفى يا ماروزيا ! » وعندما رأى وجهها الصـغير شاحبا من الخوف قال لها فى ابتسامة حزينة متخاذلة : « مم تخافين ؟ أتظنين أننى سألحق بك أى أذى ؟ آه يا عزيزتى ! »

وفجأة اختفت قسـوته ، وحل محلها شـعور كئيب ضعيف ذلول · وجلس على مقعد فى متنزه الشارع وفتح رقبة قميصه · وبدت الأشجار كأنهـا تتمايل فى بطء من اليسـار الى اليمين ، وكأن جذوعها تعوم فى الضباب الكثيف ·

وقال لنفسه وهو يحرك لسـانه فى مشقة : « طبيعى أنك لن تكون الآن على ما يرام ، فهم سيعيدون الكرة معك كما صنعوا فى تلك المرة ، وسوف يكون بازوف حكما بالتأكيد · ط ·· بي ··عى! حسن ، ليكن ، ولتكن المحاكمة ! كما تشاء ! لا اعتراض لى » · ورفع رأسه وأصغى الى دوى نفير · انها الديربنت ! آه ، ياله من صوت ! سوف يرفعون الخطاف ويبحرون - بدونى ، وينتهى الأمر ·

وآلمته قبضته اليسرى وأحس بها لزجة كما لو كان قد سحق بها كائنا حيا لزجا · ورفع يده الى عينيه ، فوجدها قاتمة من الدم ·

- أين كنت ؟ الزجاجات ···

وكان فى رأسه صداع ، والى فمه كان يتصـاعد طعم غثيان · ودوى النفير مرة أخرى على بعد ، وأحس حسين بقدميه تتجمدان ·

- « لماذا أنا جالس هنـا ؟ وما زلت أجلس ثم أجلس » · وعـد اللحظات ، ومد رجليـه فى ألم · ومضى يقول : « اذا أنا نهضت الآن ربما سويت الأمر - كلا ، لقد هلكت » ·

وأخيرا نهض من مقعده ، ومشى مترنحا محاولا أن يخمد نوبات الغثيان ٠

وقال بصوت مرتفع : « يجب أن أمضى الى هنـــاك ، وأذهب الى بازوف ـ سأنفلت دون ان يلاحظ أحد ٠ انه يعرف ما أصابنى » ٠

* * *

وكان هناك رجـلان يقفان تحت مظلة بالقرب من محل صـغير للمؤن ٠ وكانت الأمواج تحدث حفيفا على الحجارة بالقرب من مرسى السفن ٠

وتساءل بازوف بصوت فيه ثورة وقلق : « أتقولون انه انطلق الى متنزه الشارع ؟ ولم تستطيعوا ايقافه ؟ ما أعظمكم من رفاق ! »

فقال ياكوبوف معتذرا : « لم يكن لدينا متسع من الوقت ٠ وقد كان يهذى كالمجنون ، حتى ان الندل أنفسهم لم يكونوا ليقفوا فى وجهه ، وكان ينبغى أن ترى الطريقة التى دفع بها واحدا منهم ٠ انه قوى جدا ! »

فقال بازوف مذكرا له : « يبدو لى أنك لا تقول الحقيقة ٠ أليس هذا هو قادما ؟ انظر ! »

ومر شخص ما بمحطة الضغط ، وقد وقع ظله القاتم المربع على الأرض ٠ وسار مستخفيا ، وكان فى الوقت نفسه يجرجر قدميه ويتعثر ٠ وكان من الممكن سماع تنفسه المتحشرج من بعيد ٠ وعندما رأى الرجال تحت المظلة توقف ٠

وصاح بصوت منخفض : « يا ألكسندر ايفانوفتش ، ألن تسمح لى بأن أكون فى السفينة ؟ اننى أدرك ! » ٠

فقال بازوف فى حدة : « اذهب الى حجرتى ٠ حاول وامش فى اعتدال ٠ هيا امض » ٠

وساروا على الرصيف واحدا خلف الآخر . وحاول ياكوبوف في مهارة ان يبقى متخلفا قليلا ، متظاهرا بعقد رباط حذائه . وأحس بالأسف من أجل حسين . وكان من الممكن رؤية الأشباح السوداء لرجال المراقبة على ظهر السفينة بالقرب من السقالة . ودار ضوء سيجارة ، ورف في الهواء .

ونصب حسين نفسه واتخذ طريقه الى السقالة . وفي منتصف الطريق فقد توازنه وراح يئن وهو يمسك الدرابزين بيده الجريح . وانطلق الضحك فوق ظهر السفينة .

وقال بعضهم : « لقد بلغ منه الشراب مبلغه ! أترون ذلك أيها الرفاق ؟ »

وتوقف بازوف حين وصل الى ظهر السفينة .

وصاح : « يا خروليف ، أقبل ! »

وتقدم بحار ويداه خلف ظهره .

ـ ماذا ؟

ـ تقول القواعد ان الرجل يطرد من عمله ويقدم للمحاكمة من أجل التدخين أثناء عملية الشحن ـ وقد تكرر منك ذلك .

وتفل خروليف في عجل على سيجارته وهو ينحنى لكى يخفى وجهه ، وقال : « لقد أطفأتها » . ثم أضاف في صوت مرتعش : « انك تشتد مع بعض الرفاق وتحمى آخرين عندما يكونون مخمورين، وليس هذا عدلا ! »

فسأله بازوف في غير ثورة : « ولماذا ترانى أحميه ؟ » ، وأضاف: « انني سأضع تقريرا عنكما غدا ، وكلاكما سينال جزاءه . أتفهم ؟»

ـ ولكنني قد أطفأتها ...

- وهو كذلك قد أفاق ...

- ستكون هذه آخر مرة . كلام شرف !

وكان الممر فارغا ، والأصوات الوحيدة التي يمكن سماعها كانت هي الأصوات المنبعثة من أسفل من حجرة استراحة الضباط . وذهب بازوف الى حجرته ، حيث كان حسين يجلس بالقرب من المنضدة ، رافعا رأسه بين يديه . وكان يهتز قليلا كأنه يعاني من ألم مبرح . وكان قميصه مغطى بشيء قذر وفيه لزوجة ، وكان ملتصقا بجسمه ، وقد برزت من قفاه خصلات مبللة من الشعر .

وسأله بازوف : « هل رآك أحد ؟ ان على وجهك دما ، فمن أين أتى ؟ »

ورفع حسين رأسه وازدرد ريقه .

وقال في صوت خفيض هادىء : « انني وغد يا ساشا . لقد حطمت حياتي واحتقرت السفينة ، فلماذا جئت بي الى هنا ؟ »

وانتفض كيانه ، وتلعثم لسانه ، ومسح بيده الدموع من وجهه . وتنهد بازوف وجلس على سريره .

وقال في ضجر : « أنصت ، كفاك نشيجا . فأنت ملوث بالدم في كل مكان ، بالاضافة الى انك كنت تتقيأ ، أليس كذلك ؟ فاذهب الى الصنبور واغتسل » .

ونهض ، وفتح خزانة ملابسه ، وأخرج قميصا نظيفا . ووضع حسين رأسه تحت الصنبور ، ومسح وجهه بيديه وهو يحدث من أنفه خوارا ويرتعد . وانساب الماء نهيرات على ذراعيه العاريتين وتناثر على الأرض . وفيما هو في ارتباكه جعل كوعيه الى جانبيه وفتح احدى عينيه .

وقال له بازوف آمرا : « اخلع هذا القميص ، والبس قميصا من عندى مؤقتا . أف لك من وغد ! اننى فى دهشة من أمرك ! حين تحاول أن تظهر مساوىء شريك . بودى أن أعرف لماذا ؟ وهذا فى وقت يعد فيه النظام ضرورة ملحة . هاك (فوطة) . أتعد نفسك صديقا ؟ انما أنت وغد ! »

فقال حسين : « أجل ، أنا كذلك » .

وجفف وجهه وغير قميصه ، ثم جلس على الكرسى ووضع يديه على ركبتيه . ورفع القميص النظيف من معنوياته ، وأخذ وجهه يشرق فى حياء تدريجيا .

وقال فى صوت أجش : « انها ألوان الهموم كما تدرك ، فهناك أولئك الموظفون فى المراسى ، ثم أصحابنا ، وهم رفقة رائعة ، ببرقياتهم كأننا بدأنا المباراة لمجرد الحصول على الثناء ، ثم الضباب»

- هل ألقى عليك بعض الناس تعويذة ؟ انك لست سوى شخص فاسد لا فائدة منه . وقد أسأت تقريبا الى سفينتك . وأنت تدرك ان الحظ وحده هو الذى أنهى الأمور على ما يرام .

- هذه آخر مرة يا ساشا ، ولن أعود الى ذلك مطلقا . وأرجوك ألا تخبر أحدا ، أرجوك .

واستولى على بازوف التفكير وقال : « لست أدرى » ، وأضاف : « سأخبر بريديس بطبيعة الحال ، ولكنه رفيق لطيف ، وأظن أن كل شىء سيكون على ما يرام » .

وتنهد حسين ونظر من النافذة .

وقال وقد هدأت نفسه : « لقد بدأنا الرحيل . لقد انطلقنا ! »



الرحلة الاستخانوفية

- ١ -

كانوا يستمعون الى درس في السياسة في حجرة الطعام بالديربنت . وقد تجمع هناك جميع بحارة المحركات بما فيهم الكهربائيون والملاحون الذين لم يكونوا فى نوبة المراقبة . وكذلك جاء كازاتسكى ، وجلس منعزلا ، بلا حراك ، وفى ملامحه حدة وتوتر واتخذ البحارة أماكنهم حول مائدة طويلة ، وجلس بريديس فى نهايتها .

وكان بازوف قد تأخر فى عنبر المحركات . وحين دخل حجرة الطعام كان الجو هادئا تماما ، وكانت ورقة مثناة من صحيفة تنتقل من يد الى يد . ولمح بازوف صورة فوتوغرافية كبيرة على الصفحة الأولى ، كانت صورة لخوذة مكتنزة عريضة لعامل من عمال المناجم ، على وجه بيضاوى طويل .

وقال بريديس وهو يلتفت الى بازوف : « اننا نطالع اليوم صحيفة قديمة » . ثم أضاف فى لطف : « لقد كنا أهملناها بسبب مرضى » .

فقال فولوديا ماكاروف : « لقد بلغ بحسب القاعدة ألفا ومائتين فى المائة . ان هذا لعمل ضخم ، أليس كذلك ؟ »

فقال حسين فى لهجة استغراب : « ان الشيء الذى لا أفهمه هو كيف انه صنع ذلك . أتراه عملاقا أم ماذا ؟ »

ـ انه لا يشبه أحدا فى الصورة الفوتوغرافية .

ـ من المحتمل أن تكون أنت نفسك أقوى منه .

ـ طالع يا فولوديا .

ووقف بازوف قرب الحـــائط يدرس وجوه الرجال كما كانت عادته . ولم يمنعه ذلك من أن يستمع لما كان يقرأ ، بل على العكس ربما ساعده .

ـ فى الثالث عشر من أغسطس نقلت فرقة ألكساى استخانوف المنظمة بطرق حديثة مائة واثنين وخمسين طنا فى النقلة الآلية فى مناوبة واحدة .

وكانت هذه الصحيفة قديمة ، وكان بازوف قد قرأها منذ أمد بعيد . وكان جازاريان ينصت وفمه مفتوح ، ويمكنك أن تقرأ فى وجهه الدهشـــة ، وأثرا من ذلك التعبير الغامض الذى نجده عنـــد الأطفال الصغار عندما يصغون الى القصص الخرافية . كان الأمر يبدو له مغامرة قد حدثت بعيدا جدا فوق التل أو الوادى . وكان كوتلنيكوف ينظر الى رفاقه ويقرض أظافره فى تفكير . فقد قرأ كل شيء عن استخانوف ، وهو الآن يستمتع برؤية الأثر الذى أحدثته القصة الرائعة فى نفوس الآخرين . أما حسين فظل مقطبا ، وظل العرق الذى فوق حاجبه يختلج كعصابة من المطاط ، وتخدد الجلد البنى فوق جبينه . وكان يتساءل بطبيعـــة الحال ما اذا كان من الممكن تنظيم الأمور فى الديربنت كذلك بالطرق الحديثة .

وكان خروليف يحملق فى السقف فى كسل الى جـــدائل دخان الطباق الرمادية ، والدهان المتســـاقط ، والى المصـــباح فى شبكته

السلكية المغبرة · ويحتمل أنه كان مشتغلا بأفكاره الخاصة ـ فقد بدأت الرحلة لتوها ، ولن يستطيعوا النزول فى الميناء الى أمد بعيد، وسيكون عليه أن يمضى الى المراقبة بعد قليل ، الى المراقبة الليلية ، ككلب الحراسة تماما ·

وكان كازاتسكى ، الوكيل الأول ، يجلس بمفرده ، ويصغى فى اهتمام · ومع انه لم يكن يتلفت حواليه الا أنه كان يراقب الجميع· ومن ذا الذى يستطيع سبر أغوار كازاتسكى ؟

وكان بازوف يعى قصة استخانوف القصيرة عن ظهر قلب ، وهى قصة قطاع الفحم الحجرى ، وتتلخص فى اعطاء درس فنى فى منجم أرمينو للفحم ، تتناوب معه الأعمال الطارئة ، ومحاولات لتنظيم العمل ، وتوزيع الرجال بطريقة حديثة ، وتحليل تفصيلى لمراحل العمل ، يستفيد من كل حركة وكل لحظة ·

ومن المحتمل أنها لم تكن مهمة هينة · وفكر بازوف فى نيومان كبير المهندسين ، وفى أيبات الخراط ، كما فكر فى كتيب نيميروفسكى ، وضبط محركات الديزل · ولقد وقف المهندسون الرجعيون والرؤساء المستبدون فى وجه استخانوف كذلك ، وربما حاولوا ان يخيفوه باقتباس بعض فقرات من الكتب ·

وخاض ألكساى استخانوف معركة طويلة وقاسية مع الموظفين الرسميين الذين كانوا يتشبثون بالقواعد الفنية القديمة ·

أجل ، هكذا كان الموقف · لقد كشر له الرؤساء الوجلون عن أنيابهم ، واستهزأ به رؤساء العمال ، وكانوا يسمونه : « الغر الذى لم ينبت ريشه بعد » · ونبشوا فى الكتب العتيقة والقواعد القديمة· وكان المقدار المحدد لنوبة العمل الواحدة سبعة أطنان من الفحم · فمن ذلك الرجل المثير للمتاعب ، الذى كان يجاهد مع فرقته ؟ وكان المطلوب هو ايجاد تفسيرات مقبولة لطرده ·

وفكر بازوف متحمسا فى أن ذلك لم يجد · وبدا له أن الشعور

المبهم بالنصر فى المستقبل هو الذى حماه من اليأس عندما اضطروه لأن يترك الورش ٠

ولف بريديس الصحيفة فى عناية ٠

وقال فى بطء : « ان حركة استخانوف أولا وقبل كل شىء حركة من أجل استغلال كل ما فى الناحية الفنية ٠ انها حركة بدأت من أسفل ، ولم يكن للادارة يد فيها ٠ والاستخانوفيون عمال مهروا فى الصناعة وحصلوا قدرا كافيا من المعرفة ليدفعوا بالانتاج الى أمام ٠ وواضح أن أصحاب رؤوس الأموال لا يستطيعون أن يحلموا بمثل هؤلاء العمال ، فهؤلاء العمال لا يمكن أن يوجدوا الا فى بلادنا » ٠

ونصب استيفان كوتلنيكوف وجهه الذكى ، وان كان قريبا فى الشبه من القرد ، من أحد جانبيه وقال :

« ليس لدينا استخانوفيون كثيرون ، ولكن لدينا رجال أتقنوا الصنعة ٠ فاذا هم استطاعوا تنظيم عملهم بالطرق الاستخانوفية فستحدث فى بلادنا وفرة ، ولن نجد أنفسنا نحصى الفتات القليل ٠ ان كل عامل استخانوفى ينتج أكثر مما يستهلك هو نفسه ٠ وهذا معناه ان العمال الآخرين الذين لم يعيدوا تنظيم عملهم يعيشون الى حد ما على ما ينتجه الاستخانوفيون ٠ ولكن هل هناك عامل كريم النفس يوافق على ان يعيش على عاتق رجل آخر ؟ ولهذا فان من واجب كل شخص ان يعمل مثل استخانوف ، وبحسب استعداده بطبيعة الحال ٠٠

فقال فولوديا : « هذا صواب ، وهذه هى النتيجة » ٠

ونهض بازوف مبتسما وذهب الى المنضدة ، وعيناه المليحتان تلمعان ٠

والتفت وهو يشير الى المساعد السياسى قائلا : « ان فيما قاله

الرفيق كوتلنيكوف حقيقة جديرة بالاهتمام • فالحركة الاستخانوفية ما زالت فى بدايتها، ولكنها بدأت تنتشر فى الجماهير، ولا شك أنها ستنتشر فى الوطن كله • لقد أحسنت القول يا كوتلنيكوف ! »

وأشار بريديس فى لطف قائلا : « ان الرفاق يتقدمون ، ويعملون عقولهم ، وقد استفادوا من دراسة الاقتصاد السياسى » •

وانتهى الدرس السياسى • وتجمع بعض الرجال حول عامل اللاسلكى الذى كان يرسم شيئا يخطه فى ضربات سريعة تنزلق بها يده • وعلى الورقة ظهر قطار به عربات بضاعة ، ورسم صغير لشخص يلبس خوذة مكتنزة • وتم عمل الرسم سريعا ، كالصورة الكاريكاتورية على ستارة السينما• ثم ظهر تحت يد فولوديا صنادل صغيرة ومن فوقها الرقم ٢٥٠٠٠ وبدا هيكل السفينة وقد حدد ببعض الخطوط كأنه يعوم فوق طرف الورقة ، وكان مقدمها يدفع الأمواج المجعدة •



- ٢ -

وظهر كاربوشين ، وهو الملاح الذى كان يقوم بالمراقبة ، فى مدخل حجرة الطعام أثناء فترة العشاء .

وأعلن فى صوت متحمس : « ان الأجماليا قادمة ، وهى تسير غاية فى الروعة أيها الرفاق ! »

وألقى بعض الرجال ملاعقهم وشوكاتهم ، وأخذ آخرون يسرعون فى الأكل ، وهم يحرقون أنفسهم بالطعام الساخن . وتجمع كل أفراد بحارة الديربنت الذين لم يكن عليهم مراقبة ، تجمعوا فى المركز الأمامى المتوسط لربان السفينة ، أو على سطح الصوارى . وفيما كانت السفينتان تدنوان الواحدة من الأخرى بدت الديربنت كأنها تسير بسرعة مدمرة . وشارك أليافدين البحارة فى مراقبة السفينة القادمة من مركز ربان السفينة . وحاول أن يتخذ مظهر الضجر غير العابىء ، ولكن عينيه كانتا تشعان بالانفعال .

وقال لعامل اللاسلكى : « ينبغى أن تتصل بهم ، فسوف يكون طريفا ان نعرف سرعتهم » .

وتساءل فولوديا فى تشكك : «ألن يكون ذلك بعيدا عن اللباقة؟»

ـ وكيف يكون ؟ اننا نباريهم ، أليس كذلك ؟

واقتربت السفينتان الى أن صارتا فى مستوى واحد ، وأصبح

فى استطاعة الرجال الواقفين فى مركز ربان السفينة أن يروا ظهر الأجماليا وسطح صواريها ، وبحارتها الواقفين على طول الحاجز بلا حركة . وفجأة رفرف العلم فى مؤخرها وهبط منزلقا على العمود . وهنا صدرت من الجمهور المتجمع فى مركز ربان السفينة همهمة موافقة .

وقال كاربوشين فى لهجة انتصار : « انظروا ، لقد أنزلوا علمهم ، لقد بدأوا يعدوننا رجالا ! يجب أن نرد عليهم » .

ونظر الى أليافدين . وأومأ هذا الأخير برأسه، فأسرع كاربوشين الى مؤخر السفينة . وظهر تلويح بالقبعات على الأجماليا التى كانت تتراجع فى سحابة من الدخان الرمادى . وخرج فولوديا من حجرة اللاسلكى وصعد الى أليافدين .

وقال فى خيبة أمل : « اثنتا عشرة عقدة » . وأضاف : « هذه هى سرعتهم السابقة وهم يحملون شحنة . وكنت أظن انهم الآن لا بد ان يزيدوا منها . يبدو أنهم يتهاونون فى الأمر ! »

وقال أليافدين فى توتر : « لقد بلغت سرعتنا بالأمس اثنتى عشرة عقدة ونصف عقدة ، وقد وصلت سرعتنا الآن ثلاث عشرة عقدة . وفى رأيى يبدو كما لو أننا سنتسنم ذروة الملاحة ! »

- اننا لا نستطيع أن نحكم حتى الآن ، ولا بد ان نستفيد من كل الامكانيات الخبيئة .

- أى امكانيات ؟

ولعب فولوديا بطرف حزامه وعليه ملامح الارتياح .

- ألم تحضر درس السياسة ؟ يا للأسف ! لقد تحدثنا عن الاستخانوفيين . أما الامكانيات المخبوءة - فهذا ما تستطيع الآلة أن تقوم به عندما تكون فى أيد ماهرة . خذ آلات الديربنت مثلا ،

فبعد ما أطلقت من الورش كانت تعمل مائة دورة ، وكانت حمولة الاسطوانات غير ميسرة . وبعد أن ضبطها البحارة وصلت الى مائة واثنتى عشرة دورة ، ولم تكن اسطوانة البـــاب الخامس وحدها قد أخذت حمولتها كاملة . وقال بازوف اننا لم نحصل من الآلات على كل ما نستطيع ، وأن قدرتها ما زال من الممكن زيادتها . وهذا ما تسميه الامكانية الخبيئة . ويقول بازوف :

- لا تثرثر هكذا ! أنصت يا فولوديا ...

- ماذا ؟

- لقد قرأت قليلا عن استخانوف أيضا ، وأود ان أتحدث الى ألكسندر ايفانوفتش عن أمر ما .

- اذن فلماذا لا تذهب وتتحدث اليه ؟

- ألا يكون غاضبا على لرفضى فكرة الخمسة والعشرين ألفا وفقا للخطة ؟ ماذا تعتقد ؟

- هذا هراء ، فهو ليس ذلك الرفيق .

- « أنصت يا فولوديا » . وكان الملاح مضطربا فى وضوح ولكنه كان يحاول جاهدا ألا يبدو كذلك . وأضاف : « انظر ، انكم أنتم الرفاق تبذلون ما فى وسعكم لكى تستمر الأمور ، وقد نجحتم الى حد ما ، ولكنكم لا تعرفون شيئا عن الملاحة ، فهناك امكانيات خبيئة فى عملية توجيه السفينة ذاتها . وقد خطرت لى فكرة ، فنحن فى رحلتنا الى مراسى استراخان نمر بجزيرة زيلوى . فنوسع الرقعة عن يسارنا ، وهذا من شأنه أن يحدث دورة كبيرة ، فى حين أن الطريق المستقيم يكون من الجانب الآخر للجزيرة . ان هناك مناطق ضحلة . ولا يمكن أن تقوم بذلك بغاطس يبلغ عشرين قدما . أما عندما نعود خفافا ، فى الطقس الهادىء ، ودون أية شحنة ، فان غاطسنا لا يزيد

عن ست أقدام ، ومع ذلك فاننا نسير فى المنطقة الخارجية ، ونقوم بالدورة نفسها كذلك ، ونحن بذلك نضيع أربعين دقيقة على أقل تقدير .

ـ وما هو عمق القناة ؟

ـ « سبع أقدام فى أكثر أجزائه ضحالة . فهو صالح للملاحة بالنسبة لنا عندما نكون خفافا وليست لدينا شحنة ، وبذلك يمكننا أن نوفر أربعين دقيقة . هذه امكانية خبيئة لصالحكم » . وختم الملاح كلامه فى لهجة انتصار .

فتساءل فولوديا قائلا : « اذن فلماذا لا يبحر أحد عن هذا الطريق ؟ انه غاية فى البساطة » .

ـ لست أدرى . ولهذا أريد أن أتحدث الى بازوف ، فاذا هو وافق فسوف نعالج الأمر مع القبطان » .

وقدم أليافدين الى فولوديا سيجارة وأسرع لكى يدرس الخريطة . وأعجب فولوديا بالفكرة ولكنه أظهر من نفسه عدم الاكتراث . واعترته الحيرة ، بل قليل من الغيظ ، فقد كان من السهل عليه أن يفهم لو أن هذا الاقتراح كان قد صدر من بازوف أو بريديس أو واحد من السواقين . وهو لم يكن كبير الاعجاب بأليافدين ، وكل ما عرفه عنه كان يبدو معاديا للمجموعة التى كانت قد صهرت بفضل المباراة ، فقد كان أليافدين يعتزلهم دائما ، أو يشترك معهم بطريقة فظة شيئا ما . ولكنه يتحدث عن توفير ساعة تقريبا بمجرد تغيير الطريق ! ولم يستطع فولوديا أن ينتظر حتى ينقل الى رجال الطريق الملاحى (ى. س.) الأخبار .

وفى تلك الأمسية كان البحارة يستمعون الى المذياع فى حجرة الطعام . وكان كوتلنيكوف وبروتسنكو وحسين حاضرين .

واستمعوا الى فولوديا دون أن يبدو أى حماس وكان واضحا انهم يشاركونه كراهيته الغريزية للوكيل الثانى ٠

وقال حسين فى مرارة : « لقد وقف هنا عندما بدأنا العمل ويداه فى جيبيه ، ولكنه الآن بعد أن استطعنا العمل بدونه يستعد ويشمر عن ساعديه ، وكل ما فى الأمر انه يحاول أن يلفت اليه الأنظار ٠ فليذهب الى الجحيم ! »

وأشار كوتلنيكوف فى شيء من الحماس قائلا : « ولكن الاقتراح يبدو عمليا » ٠

- لنفرض أنه كذلك ، فقد كان من الممكن أن نصل اليه بدونه !

وقال بروتسنكو ساخرا : « ان كل ما يصنعه هو أن يدير جرامو فونه القديم فى حين ينبغى علينا أن نعمل ٠ فليذهب الى الشيطان ! »

وجاء بازوف واتخذ له مكانا بالقرب من الآخرين ٠ وكان قد تغلب على أرقه فنام بضع ساعات ٠ وهو وان لم يكن مرحا تماما فقد كان على الأقل ميالا الى المزاح ، وهادئا ٠ وأصغى الى الموسيقى المنبعثة من مكبر الصوت ، وصفر فى رقة محاولا أن يسير معالنغم ٠

- ايه يا فولوديا ، يا لك من بارع فى اطلاق شرارات المذياع ! ولكن ليس لدينا أكورديون ، والا لصنعنا الآن لحنا !

وابتسم فولوديا ، ولكنه بعد ذلك خفض صوته حتى صار همسا ، وتحدث عن اقتراح أليافدين ٠ وألقى أعضاء الخط الملاحى (ى. س.) نظرات على كبير المهندسين الذى كان يدخن سيجارته فى ارتياح ويصغى دون كلفة أو توتر ٠

وأخيرا قال : « اذن فأليافدين يقترح علينا أن نبحر خلال القناة ؟ »

ولـكننى لست مطمئنا تماما لذلك . ولا أظن أن عمقهـا يصل الى سبع أقدام » .

فقال فولوديا وقد ارتاح باله : « فى رأيى أنه كلام فارغ » . وقد سره أن كل شىء كان قد اتضح ، وأن اقتراح أليافدين الذى عده عدوا لجمهرة السفينة قد تحول الآن لأن يكون خداعا . وأضـاف قائلا : « انه يهرف لا غير » .

وقال حسين ملاحظا : « لقد أراد أن يلفت اليه الأنظار ، ولكنه لم ينجح . ينبغى أن نتخلص منه » .

فسأل بازوف : « ممن ؟ »

ـ من الوكيل الثانى ، فلندعه يدبر أمر نفسه !

فقال بازوف متعجبا فى دهشـــة : « أأنت مجنون ؟ ان الرفيق يقدم اقتراحا معقولا ، وتمضى أنت تزمجر . والواجب علينا أن نناقشه ! »

وصمت الشيوعيون الصغار ، وتحرك فولوديا فى مقعده وهو ينظر حوله فى انبهار .

ـ ولكنك أنت نفسك قلت ذلك .

ـ « ليس ذلك الا لأن معرفتى بالملاحة غير كافيـة ، وأليافدين ملاح ، ولا بد أنه يعرف أفضل مما أعرف . وسوف نستشير القبطان ونفحص الطريق ونفكر فى الأمر من كل الوجوه . ولكننى لا أستطيع أن أتبين لماذا تستاءون من ذلك استياء كبيرا » . وتلفت حوله فى لطف كما كان من قبـــل ، ولكنه كف عن ذلك سريعا ، وتلاشت ابتسامته ، وصارت نظرته أكثر حدة ، عندما رأى الوجوه المختلفة حوله .

وغمغم حسين فى غضب : « انك عديم الفطنة » . وأضاف :

« ألست ترى أى نوع من الرفاق هو ؟ لقـــد سخر منا عندما قمنا بالعمل ، وقال ان خمســـــة وعشرين ألف طن بحسب الخطة لغو وعبث • وهو يريد الآن أن يؤثر فى الآخرين وان يتفوق عليهم بألعوبته • هذه حقارة فى رأيى » •

فقال بازوف متجهما : « مرحى ، أليس هذا الذى تقوله نميمة • اننا هنا جميعا على قدم المساواة • وأنا أعرف أليافدين تماما كما تعرفه أنت ، فهو ملاح ، وليس من حق أحد ـ ما دام على ظهر هذه السفينة ـ أن يمنعه من أن يشارك فى عمل المجموعة • واذا هو لجأ الى أية خـدعة فاننا اما أن نوقفه عند حـده واما أن نطرده ، ولكنه يريد الآن أن يســاعدنا ، فاذا نحن صعرنا له الخد كنـــا نحن الخاسرين » •

وقال كوتلنيكوف وقد عقد حاجبيه : « ليس من الصواب أيهـا الرفاق أن نعود لننطوى على نفوسنا مرة أخرى كما لو كنا نحن وحدنا الرفاق المهذبين هنا • وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك من قبل، وأنت نفسك يا فولوديا قلت اننا لا نتعاون مع الآخرين بصـورة كافية ، فلماذا نكرر أخطاءنا ••• »

ـ ولكننى لا أستطيع ان أتحمل هذا الرفيق ، فهو على نحو ما لا يمت الينا بصلة •

وقال بازوف : « رأيى أننا اما أن نطرده من السفينة أو أن نكسبه الى جانبنا ونستفيد منه ، فليس فى استطاعتنا أن نتحمل رفاقا غير منسجمين معنا » • واستمر يقول فى لهجة أكثر رقة : « وطبيعى أن تقوموا أنتم أنفسكم بالعمل ، وأن يقفوا هم فى طريقكم ، وأن يسخروا منكم ، ويبذلوا كل ما فى وسعهم ليبرهنوا لكم على أنكم تحاولون المستحيل • ولكنكم اذا كنتم تسيرون فى الطريق السوى ، ولا تتحولون عن هدفكم ، فان الآخرين سيتفقون معـكم تدريجا ، وسيرغبون فى معاونتكم • ونصف العمل فى كسب الناس ، وربما

كان هو النصف الأهم • ويكفى أن تتحدثوا مع المساعد السياسى فليس تدبيج الخطب صناعتى » • واندفع خارجا وعلى فمه ابتسامة

وغمغم حسين فى تذمر : «حسن • اذا هو ساعدنا فاننا سنشكره • أليس كذلك يا فولوديا ؟ »

ـ هذا صواب •

وصعد بازوف قبل نوبة المراقبة الأخيرة الى جسر السفينة لكى يتفحص الطريق على الخريطة •

وكان البحر هادئا ، وكانت انعكاسات النجوم المختلطة تتراقص على أعالى الجرارات العريضة الملساء • وكان حاجز الجسر دافئا ، ورطبا الى حد ما بسبب الندى ، وهو يتذبذب قليلا • ولولا الاختلاج البسيط فى جوف السفينة لحسبت أنها تقف ساكنة ، وأن البحر يتدفق كالنهر فى الاتجاه الذى كانت فيه الرياح تهب ، والأمواج تتلاحق •

وبدأ بازوف يغنى فى صوت • ونظر الى أسفل ، فلاح له ثوب امرأة أبيض على سطح الصوارى بالقرب من احدى السفن • وكان من الممكن سماع ضحك وصوت يصطنع الغضب •

ـ لا تكن شقيا !

وتساءل بازوف : « من يكون ذلك الذى معها ؟ » ، وراح يتذكر الوجه الوردى المرح ، وجه فيرا رئيسة المستقبلات ، وأنفها الصغير، وحاجبيها الجميلين فى جبهتها الخزفية • وقد حدث بسببها فى ذلك الربيع مشاحنات وكثر القيل والقال بين البحـــارة ، الى أن كان اجتماع جعلهم بريديس يستشعرون فيه الخجل • لقد كانت صديقة

للجميع على السواء ، ولكنها لم تمكث طويلا قط على ظهر السفينة مع أى شخص .

وراح بازوف يفكر فى ضيق : « اذن فقد وجدت فيرا شخصا كذلك » . ثم أضاف : « من المحتمل أنها قد وقعت فى حب عميق . حسن ، على كل حال فهى مسألة طبيعية . حتى ذوو الشكل القبيح من الرفاق ــ وأنا الوحيد ــ » . وانتقل الى خط آخر من التفكر . « من الجميل عندهم أن يتأبط بعضهم ذراع بعض فى ليلة كهذه دون أن يراهم أحد . وقد كان الأمر كذلك بالنسبة لى أيضا ، ولكن من المحتمل أنه لم يكن الشىء الحقيقى . وهـــذا هو السبب فى انتهائه فجأة كما لو كان قد حدث انفصام . علام أنا آسف ؟ »

وذهب الى حجرة الخرائط وحاول أن يركز انتباهه على الطريق الجديد الذى اقترحه أليافدين ، ولكن ذراعى موزيا العاريتين ظهرتا فى وضوح الحلم ، وانه ليكاد يشعر بكثافتهما على كتفيه . لقد بدد نور وجهها الظلام أمامه .

ــ يبدو لى كأننى قد أحببتك دائما أيها القائد !

وصعد نظره صوب السماء المعتمة التى تتلألأ بالنجوم المتناثرة، وكز أسنانه . وكان من اللازم له أن يشغل نفسه بشىء ما فى الحال، فمر بمرقب الربان وحول برج عجلة القيادة . وكان كاربوشين ، وهو أحد البحارة ، منحنيا على المزولة بالقرب من بوصلة الطوارىء . كان يكتب شيئا ، وكان مستغرقا فى الكتابة ، حتى انه لم يسمع وقع الخطوات .

فسأله بازوف ، وقد أضفى على صوته نغمة التآلف التى عرف أنها تهيىء الناس للحديث الجاد ، قائلا : « أتدرس البوصلة ؟ لقد كنت أفكر أنا نفسى منذ أمد بعيد فى أن أدرس الملاحة ، ولكن يبدو أننى لا أجد وقتا لذلك . انها مهمة شاقة » .

ونهض كاربوشين فجأة والتفت حوله وعلى فمه ابتسامة حائرة ، ولكنه استعاد هدوءه بمجرد أن تعرف على بازوف .

وانطلق يقول سرا : « كلا ، اننى أراقب طريقنا . ولكن أرجوك ألا ترفع صوتك فى الكلام فهو يجب ألا يسمع ؟ »

ـ من هو ؟

ـ موجه السفينة الذى يقوم بنوبة المراقبة .

ـ وأنت ، أتراقب الطريق ؟

فقال البحار فى عجلة : « سأوافيك بالشرح فى ظرف دقيقة ، وكل ما فى الأمر أننى أريد أن أسجل هذا . انظر ، ان السفينة تسير فى منعرج يبلغ ثلاث درجات . لقد كان مشعلا سيجارته ، أعنى موجه السفينة . وقد ملأت من قبل أربع صفحات . وما يزال هناك انحرافات أكبر كذلك تبلغ خمس درجات وأكثر من ذلك . فاذا نحن تتبعنا طريق السفينة على الخريطة فسنجدها تسير فى خط متعرج . وهذا هو اليوم الثانى فى مراقبتى لطريقنا » .

فسأله بازوف وقد بدأ يهتم بالأمر : «وهل تقلل هذه الانحرافات كثيرا من سرعتنا ؟ »

ـ صه ! والا فسيسمع . أعتقد أنها تقلل منها . فأنت قد زدت من قوة الآلات ولكن هذه الزيادة لا معنى لها ما دام موجه السفينة يشوه عملها . لقد لاحظت ذلك فى نوبة مراقبتى عندما كنت عند عجلة القيادة . ثم تحدثوا فى الدرس السياسى عن ألكساى استخانوف والامكانيات الخبيئة . وفى رأيى أننا لو جنبنا طريقنا أى انحراف نكون قد كشفنا عن امكانية خبيئة . ولقد قمت اليوم بمهمة القيادة على الوجه المناسب ، وقللت من المنعرجات ما أمكن ، فلم تزد عن نصف درجة . وأنا الآن أسجل عمل موجهى السفينة

الآخرين ، وغدا سأبين لهم كيف هم يوجهون السفينة • انه أمر مشين ! »

وسأله بازوف فى سرعة : « هل كل ملاحظاتك منظمة ؟ »

ـ تماما ، حتى اننى قد سجلت ميعاد كل انحراف •

ـ اذن فسنعمل رسما بيانيا لعملهم وسنجمع البحارة لمناقشة ذلك • انك على صواب ، فهناك امكانية خبيثة عظيمة فى ذلك •

ـ « أحقا ؟ » ـ هكذا سأله البحار وقد بدت عليه نشوة البهجة• وأضاف : « سوف نقوم أعوجاجهم يا ألكسندر ايفانوفتش ! » وألقى بنظرة جانبية على البوصلة وفتح دفتر ملاحظاته ، وقال : « هذا انحراف آخر يبلغ درجتين ونصف درجة • يكفى أن تلاحظ ! »

فقال بازوف فى حنق : « انى أرى » • وأضاف : « ولكننى لا أصنع سوى أننى أضايقك بأسئلتى ، ولهذا فسأمضى » •

وبدا أن هذه المناقشة القصيرة قد جددت معنوياته ، وأعادت له اتزانه الذى كان قد اختل حين رأى سعادة الآخرين •

ـ « ان هناك كشفا آخر » • هكذا فكر وقد أخذته المفاجأة السعيدة فى محادثته مع ذلك البحار • وأضاف : « وهو غاية فى البساطة وغاية فى السهولة على فهم أى شخص يعرف أن الخط المستقيم أقصر من الخط المتعرج • وكل القباطنة والملاحين والسواقين يعرفون هذه الانحرافات فى الطريق ، ولكن الذى يصل الى الاكتشاف هو موجه السفينة ! » •

- ٣ -

وفى اجتماع عام للبحـــــارة ووفق على خطة أول رحـــــلة ستخانوفية للديربنت . واذا راعينا الدقة فانه لم يكن هنـــاك جتماع على الاطلاق . فلم يكن هناك نظام أو متكلم ، وانما أقبـــل الرجال من نوبات عملهم ثم مضوا . وكان الجو فى حجرة الطعام كثيفاً بسبب دخان الطباق ، ولم يحاول بريديس ان يحفظ النظام . لقد تجهم قليلا عندما علت الضجة وارتفعت الأصوات فى ضجيج حماسى غير منظم وجلس دون أن يلتفت حوله أو يتحرك ، وقد بدا عليــه أنه غارق فى التفـــكير . ولم يدل على أنه كان ينصت غاية الانصات ، ويســتطيع أن يفهم كل شىء رغم الضجة الا الملاحظات المقتضبة التى كان يبديها فى فترات قليلة . ولم ينته هذا الاجتماع ككل اجتماع غيره دون أن تحدث اشتباكات . فقد وضع كاربوشين على المنضدة صحيفة من الورق قد رسم عليها بالقلم الرصـــاص خط متعرج . وسرد ملاحظاته على بوصلة الطوارىء وقد احمر وجهه من الارتباك والحـيرة . وبدأ الملتفون حوله يتضاحكون ويتحـدثون جميعا فى وقت واحـد . وتجهم كوتلنيكوف وتفقد موجه السفينة وسط الجمهور .

وانطلق يقول فى لهجة جادة : « أتدرون ما معنى هذا ؟ انه كما يسحب بيوتر وايفان كتلة من الخشب ، فيجهد بيوتر نفسه ، ويشد كل عضلاته ، ويلهث ايفان ويحدث شخيرا . فليس هذا لطيفا منكم أيها الرفاق يا موجهى السفينة ، بل الواقع أنها حقارة منكم ! »

واندفعت أصوات غاضبة تقول : « انها مجموعة أكاذيب أيهـــا

«الرفاق · وهو نفسه ينام عند عجلة القيادة ! والسفينة تحدث منعرجات عندما يكون هو كذلك مكلفا بالعمل ! »

ـ ليست كذلك !

فقال بعضهم فى صوت حريص : « انه يستحق الصفع من أجل هذا ! »

واختلج وجه حسين ، واندفع جسمه الثقيل من المقعد ·

وقال مرعدا ، وقد اندفع الدم الى وجهه : « من قال هذا ؟ هلم ! أظهر نفسك ! »

فقال بريديس وان كان لم يتحرك : « مهلا أيها الرفاق · تذكروا أين أنتم · ان كلام كاربوشين معقول · ويجب أن يتآزر موجهو السفينة وألا يفسدوا أعمال البحارة · وسوف نبدأ بمراقبتهم » ·

ـ حسن فليراقبوا !

ـ أجل ، أجل ، فليراقب موجهو السفينة !

ـ هلم ····

وكان أليافدين ، الوكيل الثانى للقبطان ، منسطحا على كرسى وهو ينظر كالمعتاد نظرته الحانقة التى تحمل الازدراء ، ورأسه ملقى الى خلف ،وعيناه نصف مغمضتين بسبب الدخان · ولكنه ظل يراقب الباب · وهنا دخل القبطان ثم خرج الى مرقبه · وتأخر بازوف فى عنبر المحركات ، وبدأ أليافدين يستاء · أتراهم حقا قدنسوا ما كان من أمر اقتراحه ؟·

وعاد القبطان ، وجلس بجانب بريديس ، قابعا ، وأغمض عينيه فى نصب · وظهر كازاتسكى فى المدخل ، وألقى نظرة حادة متفحصة على الاجتماع ، وابتسم ولكن ـ فيما يبدو ـ لأفكاره الخاصة · وكان

بازوف آخر من حضر • وكان متسخا ويبدو عليه التعب • وبدت عيناه جوفاوين بسبب غبار الدخان على جفنيه ، وكان مظهره العام كئيبا ومهددا ، ولكنه ابتسم وذهب مباشرة الى أليافدين •

فقال أليافدين وهو يتزحزح في كرسيه : « اجلس ، ففي المكان متسع • لقد خفت ألا تحضر • »

ولم تظهر في صوته نغمة التأكد المعتادة ، وسرعان ما شعر بالضيق من نفسه • وراح يفكر : « انه سيظن أنني أتذلل له » • وأضاف : « يجب أن تكون معه رثا وخشنا مثله تماما ، فهذا هو سر قوته • »

وجلس بازوف على طرف الكرسي ووضع ذراعه دون وعي منه على ظهر الكرسي •

وقال وهو ينظر نظرة جانبية : « ان كل شيء معد لترميم مضخة الوقود • وهذا هو كل ما تبقى علينا • »

وبدت على أليافدين أمارات الاصغاء ، وهو ضائق بنفسه لكونه غير قادر على أن يجد جوابا ، ولكنه في الوقت نفسه كان سعيدا لكونه يجلس بجانب كبير المهندسين ويتحدث اليه قبل الجميع •

وتساءل بازوف وقد التفت الى بريديس : « وماذا عن الطريق الجديد ؟ لقد درستموه أنتم الثلاثة ، فلماذا لا تقولون شيئا ؟ »

وهاج القبطان كوتازوف في عصبية •

- « اذا كنت تريد الحقيقة فنحن لم نصل الى أية نتيجة • فالقناة تبدو من العمق بما يكفي للسماح بالمرور بغاطس يبلغ سبع أقدام ، أي بغير حمولة ، ولكن المعروف - من جهة أخرى - عن هذا الطريق قليل جدا • ما رأيك يا أولج سيرجايفتش ؟ »

فأجاب كازاتسكى وهو يبتسم : « اننى لم أكن واحدا من الثلاثة، ولكننى سبق أن قلت لكم رأيى • ان الطريق صالح للملاحة • »

فقال ايفجينى استفانوفتش مترددا : « أنا أعرف أنه كذلك ، ولكنها مسئولية خطيرة • وأضاف : « ان الآخرين يلجأون الى الحرص ، فلماذا نحن نغامر • واذا كان الآخرون خائفين فمعنى ذلك أن الطريق خطر • وانه لخطر • أليس كذلك ؟ »

ـ حسن ، هكذا يكفى • وصحيح أن هناك مخاطرة •

ـ أنت ترى أن هناك مخاطرة ، فكيف نستطيع ؟

وقال كازاتسكى وهو يبتسم ابتسامة ناعمة : « ان الأسماك وحدها هى التى تستطيع أن تعوم دون أى مخاطرة يا ايفيجينى استفانوفتش • » ثم أضاف : « ترى أيمكننا أن نطلب من قبطان الأجماليا أن يرسم لنا طريقنا ؟ »

ثم ساد صمت كثيف ، وطأطأ كثيرون منهم رؤوسهم ، وعضوا شفاههم لكى يخفوا ابتسامة • وهمهم بازوف وتجهم للوكيـــل الأول • وبدا كازاتسكى نفسه مندهشا لما قد قال ، فنظر حوله فى حيرة فكهة بريئة •

واستمر يقول دون احتفال : « أعنى أنه ينبغى علينا أن نخاطر اذا كانت المخاطرة معقولة ، وكانت تبدو ملائمة » • وأضاف : « اننا سندخر قرابة ساعة فى القناة ، وهذا معناه ما يقرب من مائة ألف طن ميلى فى كل رحلة • ثم يجب أن يدخل فى تقديرنا أننا نفتح الطريق للآخرين • اننى ـ باختصار ـ فى خدمتكم • »

وقال بريديس ملاحظا : « انك قد درست الخريطة أنت كذلك يا ايفجينى اســـــتفانوفتش ، وليست لديك ـ فيمـا أذكر ـ أية اعتراضات • »

واستغرق القبطان فى التفكير ، واعتمد وجنته على يده المكتنزة . فقد كان فى مأزق كالمعتاد ، لأنهم كانوا يحاولون أن يؤثروا فيه ، وكان هو يحاول التغلب على الموقف وموافقتهم ، ومع ذلك فقد كان يخشى المسئولية التى لم يكن مضطرا - آخر الأمر - أن يأخذها على عاتقه .

وأخيرا قال فى صوت حازم ثابت ، كشخص ترك نفسه لتوجيه الآخرين ويريد أن يخفى ضعفه : « حسن ، اتفقنا على هذا » . ثم أضاف فى لهجة شبه مستفسرة كأنه ينتظر من الآخرين موافقته واراحة باله : « وسوف أقود السفينة بنفسى خلال القناة . وعلى كل حال لا يبدو أن هناك مخاطرة كبيرة . »

وظل وجه اليافدين فى تغير دائب ، فهو أحيانا يعبر عن غيظ كئيب ، وأحيانا يبتهج . ثم تهلل وجهه ، ولم يستطع ان يكتم فرحته ، وهمس الى بازوف وقد نسى ما انتواه من أن يكون رثا وخشنا معه :

« هذا اقتراح للتسويغ حقيقة ، أليس كذلك ؟ »

* * *

وحين رست السفينة على الرصيف فى الميناء التالى رفع منها حوالى مائة طن من الأشياء المهملة كالخطاطيف القديمة وسلاسل الخطاطيف ، وقطع الآلة الثقيلة الاحتياطية للترميم الشتوى . وكذلك خفض احتياطى الوقود الى مايكفى مئونة رحلة واحدة . كل ذلك أتاح الفرصة لزيادة الحمولة النافعة ثلاثمائة طن .

وأصلحوا من شأن مضخات الوقود فى عنبر المحركات ، ونظفوا المحاقن . وأطل مصطفى حسين من فوق ظهر السفينة وهو أشعث أغبر ، ونادى عامل اللاسلكى .

وقال مرتبكا : « أيمكنك أن تؤدى الى خدمة ؟ » وأضاف :

« تلاحظ أنني لن أستطيع الخروج اليوم . ولهذا أيمكنك أن تتصل لى بشخص ما ؟ »

فولوديا مكشرا : « لقد فهمت ، فاليوم لا مزاح . انك تشبه أحد أكلة اللحوم البشرية كما فى أحد كتب الاطفال القصصية . وما اسم ذلك الشخص ؟ »

فأعطاه حسين قطعة من الورق .

- سوف أخبرها انك مضطرب المزاج . ومن يدرى ، فهى ربما خرجت معى . هكذا قال فولوديا وقد أزاح قبعته الى خلف .

فسأل حسين رسوله وهو ينظر فى ارتياب اليه : « أظنك لن تكون وغدا يافولوديا ، أليس كذلك ؟ » وأضاف : « لن تكون ، والا بقرت بطنك ! »

وقبل وصولهم أرسلت برقية لتنظيم الاستعدادات لرحلتهم الاستخانوفية ، وبلغ بها عمال المرفأ ورجال محطة الضغط . وقامت المحطة بالعمل على ما يرام ، فقد شحن الزيت بقوة الضغط الكامل ، ودقت الأنابيب ، وأخذ هيكل الديربنت الضخم يهبط فى الماء شيئا فشيئا .

وكان القبطان ووكيلاه يراقبان عملية الشحن من مركز القيادة . وقد استولت جلبة الاستعدادات النشطة الموسومة بشىء من الجلال استولت على ايفجينى استفانوفتش . لقد قرأ حين كان فى البحر آخر الصحف ، وكان فى رأسه صورة استخانوف محوطة بجلال وهاج . ومع ذلك فمازال يشعر بخوف غامض جاء فجأة ، واستولى على قلبه بغتة . وكانت تجرى على السفينة أشياء كثيرة كانت جديدة ، وكانت كل هذه الجدة ضد ميله للطريقة العادية المألوفة لانجاز الأمور .

لقد أقنعوه فى الاجتماع بأن يبحر خلال العناة . وهو قد وافق

لأن المخاطرة لم تبد كبيرة ، ولأن كل شخص حوله كان يناقش مذهب استخانوف العقل الجرىء . ولكنه عندما صعد الى مركز المراقبة تذكر كارثة السفينة قفقاز التى جنحت الى المناطق الضحلة بالقرب من بيريوشوياكوزا ، وتلاشت ثقته .

وسحبت السلاسل الصدئة ولفات السلك فوق ظهر السفينة . وكانوا يحملون أشياء أسطوانية ثقيلة لم يكن يعرف فائدتهاالا كبير المهندسين . وبينما كان بازوف يقف على ظهر السفينة يتعجل العمال أخذ ايفجينى استفانوفتش يحسب فى رأسه وفىهدوء مقدار ما تزن كل تلك المادة الثقيلة الوزن .ولكن المهندس اختفى داخل عنبر المحركات ، وأحس ايفجينى استفانوفتش فجأة بعدم الارتياح- فقبل كل شىء ، أو بعد كل شىء ، لم يقم أحد بذلك من قبل ويكفى أن نفترض أننا احتجنا الى قطع الغيار ونحن فى البحر أو أن عاصفة هبت ولم يكن هناك وقود كاف !

وربما شاء ايفجينى استفانوفتش أن يتحدث الى الوكيل . وقد بدأ مرات عدة فى هذا الحديث ، ولكن اجابات كازاتسكى كانت مقتضبة ، فقد كان من الواضح أنه مغتم ما . وقد زاد وجهه شحوبا، وكان انتفاخ وجنتيه الدال على الشيخوخة - ولم يكـــن ايفجينى استفانوفتش قد لاحظ ذلك من قبل - كان قد صار ظاهرا فى وضوح . وبجانب ذلك كانت رائحة الفودكا تفوح من كازاتسكى وكانت عيناه قاتمتين ، تقدحان بالشر .

وهمس ايفجينى استفانوفتش عندما كانا منفردين لمدة دقيقة : « ماحكايتك ؟ انك تبدو مريضا ، فهل حدث شىء ؟ »

- اننى أشعر بصداع .

- انه الشراب ، فيجب أن تقلع عنه . حقيقة يجب علينا ذلك .

- دعنى وحدى . اتريدنى أن أذهب الى السينما او شىء من

ذلك ؟ اسمع . ان كل الرفاق هنا شباب . وبازوف سنه حوالى الثلاثين . هذه حقيقة . »

ـ كلا ، انه ليس سوى صبى ، صبى قادر على العمل . هذا كل ما فى الأمر .

ـ لست أفهمك .

ـ ولست فى حاجة كذلك لأن تفهمنى ، فأنت رجل مجرب

ـ تستطيع أن تذهب وتنام . ماذا أصابك ؟

ـ آه ، لا شيء . أنظر الى اليافدين .

وهرع الوكيل الثانى الى مركز الربان وتوقف ليأخذ نفسا . ونظر فى ساعته وابتسم فى سرور .

وقرر وهو متهلل الوجه : « لقد شحنا سبعة آلاف طن فى ثلاث ساعات . عظيم يا ايفجينى استفانوفتش . ان المرسى لم يعمل على هذا النحو من قبل قط . لقد جريت الى محطة الضغط لأشكرهم ، ولكنهم ضحكوا وقالوا : « اننا نعمل اليوم من أجل الاستخانوفيين . فابذلوا ما فى وسعكم فى البحر فهذا يكفينا شكرا ! ، ولكن لقد آن الأوان لأن نبتعد يا ايفجينى استفانوفتش فهذا المرسى ضحل . »

ووافق القبطان قائلا : « حسن ، لنبتعد . ما رأيك يا أوليج سيرجابيفتش ؟ »

ـ لست أدرى ، ولا بد أنك تدرى .

وأصدر القبطان قراره وقد ارتفعت معنوياته فجأة قائلا : « لننسحب . فاذهب يا صديقى وأبعد السفينة حوالى عشرة أمتار عن الساحبة . وبهذا ألا ترون أن الأمور تسير على ما يرام ؟ »

- غاية فى العظمة يا ايفجينى استفانوفتش !

ورفع رجال المرسى الأنابيب التى تدلت - بعد أن سحبت الى جانب السفينة - على المرسى وهى تسكب أنهارا سوداء من الزيت الثقيل . وعصفت رافعة الديربنت الكهربائية ، فانزلقت السفينة قليلا على طول المرسى الى المنطقة العميقة وتوقفت . واكتفوا فى هذه المرة بوضع أنبوبة واحدة لضغط ألف الطن الأخيرة من الحمولة . وكان الجو قد بدأ يظلم . وخرج حسين الى ظهر السفينة وجلس على احدى درجات السلم . وهمهم فى لطف وهو يمسح وجهه وصدره العارى بقطعة من القماش متنسما هواء البحر العليل .

وصعد البحارة فى السقالة عائدين من المدينة ،وكان بينهم فولوديا ماكاروف الذى صعد الى حسين وحياه بفرقعة من كعبيه .

وقال فى أبهة هزلية : « لقد نفذت الأوامر . وقد طلبت منى أن أبلغك أطيب تمنياتها . وتحدثت عنك بمودة بالغة أثارت الدموع فى عينى . »

فقال حسين متجهما : « دع المزاح . ماذا قالت ؟ »

- انها الحقيقة . فأنت تستطيع أن تدرك أنها كانت فى غاية الشوق اليك . وقد تهدج صوتها عندما أخبرتها أنك مرتبط بعمل . قل لى ما شكلها ؟ .

- انك لن تفهم . آه ، تبا لى ! لقد فسد كل شىء يا فولوديا !

- ما الذى فسد ؟ لقد بدا عليها الابتهاج عندما أخبرتها أننا بسبيل القيام برحلة استخانوفية ، ومضت تسأل أسئلة عديدة . وبهذه المناسبة أظن أنها قد أعجبت بصوتى . لقد طردونى من كابينة التليفون فى النهاية . يالها من فتاة رائعة !

ـ ما أكثر ما عرفت عنها !

راغلق العمال على المرمى صمام أنبوبة الزيت وبدأوا يشدون ليرفعوا الأنبوبة . وانتهت عملية الشحن . وعصف صوت الديربنت المعدني مدويا ، فتغلب لمدة لحظة على كل ضجة . ثم انتهى الانفجار وجاوبه الصدى بصوت غليظ .

وقال فولوديا وهو ينظر الى ساعه يده : « لقد انتهينا من عملية الشحن فى ثلاث ساعات وسبع عشرة دقيقة . رفاق عظام أولئك العمــال فى المرمى . ولم يحدث قط أن شحنا بهــذه السرعة من قبل . حسنا ، فهلم أيها السواقون ، شقوا بنا الطريق الآن ! » .

وقفز حسين وتمطى فى ابتسامة مرحة .

ـ ان مضخة الوقود منتظمة الآن ، وسنقطع بك هــــذه الرحلة بسرعة ثلاث عشرة عقدة على الأقل . أيرضيك هذا ؟ اننا ســنزيد اليوم من السرعة يا فولوديا ، وسوف ترى .

وخرج كازاتسكى قرب منتصف الليل من كابينه · وسار على طول سطح الصوارى وهو يدق فى حزم مصطنع أخشاب الأرض المبتلة ، واستند الى احدى أذرع حمل القوارب ، وذقنه المدبب منتصب أمامه · وبعيدا جدا فى السماء كان الهلال النحيل يسطع فى السحب الرمادية المتلألئة ، وكان تألق أنوار المرفأ المختلج يخفى فى البحر شيئا فشيئا · وقبع كازاتسكى ، وهز كتفيه وهو يتثاءب ، ومضى يدق الأرض بقدميه ، مارا بالرجل القائم بالمراقبة، الذى خطا جانبا عندما اقترب منه الوكيل · ومضى كازاتسكى فصعد فى السلم الى مركز الربان ، مارا بحجرة عجلة القيادة وهو أسفل منها · وهناك واجه مرة أخرى نفس الذراع حاملة القارب التى تشبه علامة الاستفهام بالبكرة التى فى طرفها ، والجيش المبتل وهو يتلألأ فى ضوء القمر ، والأنوار فى قمة الصارى ، والأنوار المتناثرة على طول الساحل ·

وقال كازاتسكى فى صوت مرتفع : « ياله من سجن ! » ثم فزع من سماع صوته الخاص ، وقال : « لقد انتهى واجبك ، فهلا عدت الى حجرتك ؟ » ·

وكانت أنوار السقف فى الممر معتمة بسبب الغبار ، ولاحت صفائح الباب بيضاء · ودق جرس فى أسفل ، وانبعث من حجرة اليافدين نواح الجراموفون الرخيم · وتأرجح الوكيل على قدميه ورفع

عقيرته بمجموعة من الألحان . وغمغم من بين أسنانه : « أترقصون أنتم ؟ ارقصوا أيها الحمقى . ولكنكم فى سجن على كل حال » .

وعاد الى الرجل القائم بالمراقبة .

وقال : « أأنت خروليف ؟ » وأصلح البحار من أمر نفسه ، وقد اختلط ظله بالظلام .

- « اقترب . حسن ، كيف حالك ؟ » هكذا سـأله كازاتسكى متجهما ، ثم أضاف : « انك ضجر أيها الرفيق المسكين ، أليس كذلك ؟ »

- طبيعى ، فهذا شىء يضجر . ان الحراسة الليلية ديدن الكلب حقيقة .

وظل خروليف يتنقل من رجل الى أخرى ، محاولا أن يرى وجه الوكيل .

فسأله كازاتسكى فى غير احتفال قائلا : « حسن ، أأنت راض عن عملك ؟ لقد تغيرت على السفينة أشياء كثيرة ، وسوف تحصل على مكافآت فهل أنت مسرور لذلك ؟

- طبيعى اننى مسرور

- اذن فأنت راض

- اذا كنت تعنى ذلك

وكان وجهاهما يبدوان فى الظلام كقطعتين مبهمتين من البياض ، وبدا صوتاهما كأن الواحد منهما يسبر أغوار الآخر .

- أنت تدرى أن لدينـا الآن على السفينة رجالا مشـهورين ، فكيف تجدهم ؟ ربما ظننت - بحسب النشرات - أن حسينا التترى

هو الوحيد الذى نفذ الخطة ، وأن الآخرين لم يكونوا سوى حفنة من القذارة ٠

ـ هذا رأيك ٠ ألا لعنة الله علينا !

ـ فيما يختص بك فأنت يا صـديقى لن تكون مشـهورا قط فلست أهلا لذلك ٠ أما بالنسـبة لعامل اللاسلكى الصغير فالأمر يختلف ٠

ـ حسن ، سوف نرى ! فقد فسدت بالأمس احدى الآلات وانطفأ النور ٠ اننى لا تفوتنى معرفة كثير من الأشياء ٠

ـ هذا هو المطلوب ، فمادام لك رأس فوق كتفيك ، فلا بد أن تعرف كل شىء يحدث فى السفينة ٠ وقد فسدت اليوم آلة ، وغدا يحدث شىء آخر ، وبعدئذ نستطيع أن نضع الأمور فى نصابها ٠

ـ ولكن هب أنه حدث لنا انهيار ونحن فى البحر ؟

ـ صه ، صه ! ماذا تقصد ؟ من الذى يقوم بالحراسة هناك ؟

ـ انه رئيس النوتية ، وهو شبه أصم ٠

ـ حسن ٠ لا خوف عليك ٠ هل تدرك أن كل شىء يعتمد الآن على أنا ؟ فالقبطان يكاد لا يكون له شأن ٠

فقال الملاح مستهزئا وهو يقترب منه : « انه رجل متهدم عجوز ٠ اننى ألاحظ كل شىء ، وتستطيع أن تثق من ذلك » ٠

ـ يا لك من فتى ! سـوف أعود الى الحديث معك عندما يئين الأوان ٠

هكذا قال كازاتسكى وهو ينظر الى الأنوار البعيدة فى البحر ٠ واستدار ، وعاد أدراجه من نفس الطريق ٠

ـ بباب نصف مفتوح ، لاح منه رأس مغطى بخصلات فضـية

خشنة من الشعر . وظل الرأس بلا حراك ، ولمعت زجاجتا النظارة .

فصاح كازاتسكى متعجبا فى مرح : « ايفجينى استفانوفتش ! بالله أما زلت يقظان ؟ وأنا يا صديقى العزيز أعانى آلاما مبرحة . هذا هو موضع الألم » . ووضع يده على صدره ، وأضاف : « انها دودة آكلة فظيعة ، سوف تفترسنى فى النهاية . ولكن لماذا أنت لم تنم بعد ؟ »

وتجمع القبطان بين الباب والاطار ، ومر بيده على رأسه .

وقال فى ابتسامة لطيفة : « اننى أقرأ أغنية طائر النوء ، فهل تذكرها يا صديقى ؟ انها تقول : ان من ولد لكى يزحف على الأرض لا يستطيع أن يطير فى السماء . فأى فخر فى هذه الكلمات لمن يطير ، وأى مرارة فيها لمن لا يستطيع ! »

وانفجر كازاتسكى ضاحكا .

وقال : « يا صديقى العزيز ، هذا كلام فارغ ... ومع ذلك فأنا سعيد لأنك يقظان » ، واهتز على قدميه ، ومد شفتيه فى الفة ثملة . وتراجع القبطان الى خلف ، واختلجت فتحتا أنفه .

وقال فى حزن : «انك ثمل ، فمتى تكف عن ذلك ؟ وتستقيم »

ــ ثمل ؟ طبيعى أننى ثمل . وماذا تريدنى أن أصنع سوى هذا فى هذا السجن ؟ الشىء الوحيد هو أن أنهل الفودكا وأن أدرس الأعمال الأدبية القديمة . تعال الى حجرتى يا ايفجينى استفانوفتش لمجرد دقيقة . ان لى أحلاما مفزعة . هل تحرمنى من ذلك المعروف ، ذلك الجميل الصغير البسيط ؟ يا للشقاء ! والآن سوف أفتح زنزانتى . أجل ، زنزانتى ! فنحن فى سجن كما تعرف ! وليست هناك حاجة لأن تتلفت حولك ، فلا أحد هنا ، ونحن بمفردنا . ومن السهل أن يطالع الانسان فى وجهك أنك فى سجن ، فأنت غاية فى

الفشل والشقاء ولا تستطيع أن تخرج من هنا ! الا أن تهوى الى الماء بطبيعة الحال !

وتبع القبطان الوكيل الى الحجرة . وهنـــاك كان على المنضدة الصغيرة دواة ، وســـاعة أثرية بديعة لها تروس لامعـة تدور فى اهتزاز ، وبهلوان من الخـزف متجهم الوجه قليـــلا ، يتأرجح على أرجوحة ، وانبعث من غطاء المصباح ضوء أخضر ، وكانت الأرض مغطاة بطنفسة لطيفة . وكانت هناك رائحة خمر وعطر وطبـــاق معسل . وكان المكان أنيقا ودافئا ولطيفا ، ولكن كازاتسكى كان مقطبا تقطيبة بشعة ، وكان يتحدث عن الهذيان والأرق والأحـلام المفزعة .

ـ ليس على ظهر هذه السفينة شخص استطيع ان أتحدث اليه سواك ، فأنت الشخص الوحيد الذى أريد أن أودعه ثقتى . وهل هناك معنى لأن يتعاطف معى بريديس مثلا وهو يلقى على خطبة ويقول لى اننى نفاية طبقة منتهية ؟ انه من الشـــــناعة ان يكون الانسان نفاية ، ان يكون شيئا عديم النفع ، والى جانب ذلك فقـد يجعلك هذا عاجزا عن أى شىء . أليس كذلك ؟ ها ها ها ! فلتطوحوا بالنفاية حتى لا تقف فى الطريق ! طوحوا بها فى الحال !

وحملق كازاتسكى وبدأ يدق الأرض بقدميه فى نوع من الغضب الذى يحمل من المزاح بقدر ما يحمل من الجدية . وكانت كل عضلة فى وجهه المشوه تختلج . ثم مسح حاجبه وابتسم ابتسامة كليلة حلوة ، كما يصنع الشخص على خشبة المسرح بعد أداء دور صعب .

واستمر يقول بصوت منخفض مبهم : « ولكننى أرفض أن يطوح بى ، وهذه هى المشكلة ! اننى ما زلت أجد فى شرابى متعة ، كما تقول عجائز السيدات الألمانيات . فماذا تريدنى أن أصنع ؟ »

وترك ايفجينى استفانوفتش نفسه يهوى فى كرسى ذى مساند ومد ذراعيه على بطنه وتنهد .

وقال فى صوت متردد : « ان هذا الذى تقول هذر ، فمن ذا الذى يريد أن يطوح بك ؟ وعلى كل حال فلمـــاذا أنت تسكر اذا كنت لا تعرف ماذا أنت صانع بنفسك فيما بعد ؟ انك تبدو عجيبا » .

وتمشى كازاتسكى فى الحجرة

– قل لى ، ألا تشعر أحيـانا أنك عجوز وعجوز جـدا ، لا أعنى الشيخوخة بل أعنى أنك مسن ، كالأحجار المغطاة بالطحلب فى السور الفـارسى بمدينتنا . وأنك قد رأيت عشرات من الأجيـال تعيش وتموت ، وقاسيت معها كل خطأ من أخطائها ، وكل حماقة من حماقاتها . وقد اكتشفت القارات، وبنيت الأهرام ، واستفاضت القوانين . وهذه القارات قد أهلت بالسكان وقامت فيها الزراعة ، وتثاءب السواح المتعبون أمام قطع من التماثيل . وقد شيدت فى أماكن المقابر وساحات القتال سلخانات ومرافق عامة . والنـــاس يتعجلون الحياة ، كأن عليهم ان يعملوا شيئا لم يحلم به أحد من قبل فحاول ان تحطم عقيدتهم وستجد أنهم يبعدونك عن طريقهم ويمضون فى المسير دون ان يلتفتوا الى الوراء . ولكننى لا أتحدث عنهم ، بل أريد ان أعرف رأيك ، فما هو موقفك ؟ فأنت كبير السن ، وقـد ضقت ذرعا منذ وقت بعيد بكل شىء . ماذا تستطيع أن تصنع ؟ أتهرب الى القطيع حيث تفترسك الذئاب ؟ أم تتظاهر بأنك تؤمن بشمس اليوم وتساير أولئك الذين يريدون ان ينظموا الحياة من جديد ؟ انهم سيمنحونك رتبة من رتبهم ،واحتراما عاما ،وسيضعون لك الزبد على الفطير . ولكن ذلك كله غاية فى الصعوبة والاجهاد . وأسوأ ما فى الأمر أن الأسلحة التى يحارب بها الناس من حولك ليست للمزاح ، فهم يكافحون حتى الموت ، وأولئك الذين يسقطون منهم ينظر اليهم على أنهم أبطال مبجلون . فاذا أنت لم تسلم نفسك فلا بد ان تتعرض للهلاك . ولكن السبب الوحيد لتظاهرك هو أنك تريد أن تنجو بحياتك التى هى آخر الأمر – لا أدرى لماذا – أغلى

شيء تملكه . وهكذا تقوم بمهزلتك ، فيصير وجهك قرمزي اللون ، وتئن من التعب ، كالبهلوان الذي يرفع أثقالا وهمية . وبعد قليل أو كثير يكتشفون أن أثقالك مصنوعة من الورق ، ويطوحون بك من فوق المسرح في صورة مهينة ، وبذلك يحرمونك من الخبز والادام ، اللذين تسعى من أجلهما . وهكذا ترى أن الدور لا يستحق المجهود كما يقولون . ثم انك تعرف مقدما ان هذا سوف يحدث ان عاجلا أو آجلا ...

وألقى ايفجيني استفانوفتش نظرة ضجرة على الساعة . ولم يكن قد أحس بعد بالرغبة في النوم ولكنه أحس بنوع من الخدر ، بنوع من البلادة الثقيلة التي بدا أنها أقعدته في كرسيه ذي المساند .

وقال في صوت مغتم وهو يحملق ثائرا في وجه الوكيل : «لست أدرى الى أي شيء تريد أن تصل ، فكلامك يبدو كأنه رمز . أأنت تتحدث عن نفسك ؟ »

فكرر كازاتسكي الكلمة في ابتهاج : « رمز ! هذا ما أقصده تماما ! وهذه هي الكلمة التي تعبر عن موقفنا ، فنحن من الحرص مع بعضنا البعض الى حد أننا نلجأ الى الرموز . آه ، ما أمهرنا نحن لئام الماضي ! ولكن ماذا تعتقد في كل ذلك ؟ »

ـ أعتقد أنك ثمل ليس غير ، فالشخص السليم العقل يرتجف من أفكار كهذه ، فهي تبعث فيه القشعريرة .

ـ أحقا ؟

ـ أجل . اننا لا نجرؤ أن نتحدث عن الماضي هكذا . وكل أولئك المثالين والقادة بل علماء الكيميا ، كانوا على صواب في الطريق الذي اختطوه ، وكانوا أعلى منك بلا منازع ، لأنهم آمنوا وعملوا ،وبدونهم لم يكن من الممكن مطلقا أن نعرف ما نعرف .

فصاح كازاتسكى : « ولكنهم اندثروا ! » وأضاف : « لماذا عذبوا أنفسهم ؟ هل جلبوا السـعادة والسلام لأى شخص ؟ أكانوا هم أنفسهم سعداء ؟ هذا عبث ! »

ـ انك لا تستطيع ان تفهم شيئا ، أى شىء !

ـ بل فكر قليلا يا ايفجينى استفانوفتش ، فبعد مائة عام لن يبقى مسمار واحد فى نعشك . ولكن لعنة الله على الماضى ! أكان الماضى هو الذى أتحدث عنه الآن . آمل أن تكون قد فهمتنى .

ـ فهمتك ولم أفهمك . وكل الذى فهمته هو أنك تكره أولئك الرجال الذين تحتنا . وأنت تكرههم لأنهم شباب ، ولأنهم على استعداد للتضحية بأنفسهم ، ولأنهم سعداء ، ولأنهم يستمعون الى الموسيقى . وسعادتهم بعيدة عن متناول يدك ، وكذلك ايمانهم بالمستقبل . هذا المستقبل ليس لك فيه مكان ، فأنت غريب أجنبى . ولكن نفاقك مدهش يا كازاتسكى . انظر الى طريقة سلوكك فى الاجتماع . انك قد أهنتنى ، ولكننى غير غاضب . اننى أضيق بنفسى فى بعض الأحيان ، أما أنت فلا أدرى كيف تستطيع أن تعيش بأفكار كهذه ! وسيأتى يوم يشير فيه اليك الناس صائحين : هذا منافق .

ونطق ايفجينى استفانوفتش بالكلمات الأخـيرة فى همس تقريبا . وشحب وجهه ، وانتظمت حبات العرق على جبينه . وكان كازاتسكى يتأرجح على قدميه وهو مقطب الوجه . وبدا فزعا من كل كلمة نطق بها الآخر كما لو كانت الكلمة تلدغه .

وانطلق يقـول فى غلظة : « أنا لا أخاف من أى شىء ، ولا من الشيطان نفسه » وأضاف : « وهم ليست لديهم العقول الكافية لاستبطانى ، أما أنت فلن تسلمنى لهم يا صديقى العزيز ، لأن بيننا روابط قوية . اننى أقرب اليك منهم ، وأنت تستطيع أن تفهمنى خيرا من بازوف كبير المهندسين . لا تنكر ذلك ! »

وتمشى كازاتسكى من أحد أركان الحجرة الى ركن آخر ، وهو يستدير كل مرة فى خفة . ويتجمع ظله أحيانا حتى يصير رقعة كثيفة ، وأحيانا يمتد ويزحف على الحائط .

وغمغم فى غير وضوح : « أنا لا يهمنى حكمهم ، فهم لا يستطيعون أن يدخلوا فى تلافيف عقلى ولكنهم لو عرفوا ... »

وسار الى المنضدة ، ونزع غطاء الترمس ، وارتجف لحرير السائل الشفاف فى الكوب ، وشربه جرعة واحدة ، ثم وضع يده فوق شفتيه . وكسر قطعة من الخبز ، ودسها فى فمه .

فقال ايفجينى استفانوفتش محتجا فى خور : « اسمع : كف عن هذا ، أرجوك ، والا فسأخرج فى هذه اللحظة . كفى ! »

وزادت رائحة الكحول انتشارا فى الحجرة . أما فى أسفل فقد أن الجرامفون أنته الأخيرة وتلاشى صوته . ووقف كازاتسكى بجانب المنضدة ، وأصابعه الطويلة مغروسة فى شعره .

وقال : « حسن . أريد أن أقول لك شيئا . لا تظن أن تأنيب الضمير قد وخزنى أو أننى خائف من أفكارى الخاصة . كلا ! وأريدك أن تعرف هذا ، ولكن أنت وحدك ، فأنا واثق أن أفكارنا متحدة فى أساسها حتى عندما تقتبس من الأعمال الأدبية الكلاسيكية . حسن ، يكفى أن تتصور أننى كنت فى يوم ما على وشك أن أضحى بنفسى . ألا تصدقنى ؟ ولكننى جاد فى ذلك . وعلى كل حال كان ذلك منذ أمد بعيد فى عام ١٩٠٦ . فانظر ، اننى أذكر لك التاريخ نفسه ، فهى الحقيقة الصراح وليست رمزا . كانت فترة مريعة من الزمن . فكان أصحاب المحلات الوجهاء ، وأصحاب دور القمار ، والمقامرون من جمعية ميخائيل رئيس الملائكة ، كانوا يضطهدون العمال والطلاب فى الشوارع . وانتحر كسيرو القلوب — أولئك الذين فقدوا ايمانهم بكل شىء — فى بيوتهم . أما المحامون وأطباء

الأسنان الأحرار الذين كانوا يعتنقون من قبل وجهات نظر سياسة معتدلة فقد تركوا نوافذهم مفتوحة ، وكانوا عندما يتحتم عليهم الخروج لا يخرجون الا وعلى وجوههم تعبير كئيب مبهم · يا لها من فترة زمنية قاسية مريعة ! أتذكرها ؟ يحتمل أنك كنت تجلس فى ضيق كذلك · حسن ، حسن ، اننى بطبيعة الحال أمزح لا أكثر ! ولكن العاصفة استهوتنى فاندمجت فيها اندماجا جديا ، فقد دفعتنى وطوحت بى حتى ان كل محاولتى كانت لمجرد ان أتماسك على حافة الهاوية ، مستندا على ظفر اصبعى الصغيرة · ولست أدرى ما الذى أغرانى بالاندماج فى المعركة · أهو التعطش للمغامرة ؟ أم خيالات المؤامرة ، والاجتماعات السرية ، وحمل الأسلحة فى جيبى وفى غرفة السطح ؟ وربما كان الباعث مجرد روح العصر ، فهو عامل كبير التأثير فى الناس القابلين للتأثر · وقد يكون شيئا من كل شى ·

وكنت فى ذلك الوقت قد انتهيت لتوى من المدرسة البحرية ، وبدأت الخدمة فى طوابى كرونشتات · وقد كان الموقف هناك مزعجا فى ذلك الصيف · وكان الطراد جروموبوى قد عاد لتوه من الشرق الأقصى · وكان البحارة بعد هزيمة تسوشيما ثائرين كالشياطين، فكانوا يخرجون للتجول جماعات، ويتجمعون عند منعطفات الشارع، ويلوحون بأيديهم للضباط · وقد عرفت بعضهم عن طريق التنظيم السرى · كان أغلبهم مجرد أناس عاديين من البحارة وعمال البناء فى الجيش وعمال الورش الفنيين · وكان واضحا أنهم لم يثقوا بى كثيرا، وخيل الى أن أولئك المرحين غير الوجلين من الناس انما يعقدون الاجتماعات لمجرد ما فيها من اثارة ، ولكى يتخففوا مما بهم من ضجر · فهم قد يتكلمون ويتوعدون ثم يتفقون جميعا على أن الوقت لم يحن بعد للعمل · والحقيقة أننى أعجبت بذلك ، وتصورت نفسى متآمرا ، وأخفيت الأسلحة ، ولكننى كنت على يقين فى قرارة نفسى من أن شيئا لن يحدث ، وأنه من الأفضل ألا يحدث على كل حال ومع ذلك فلم يكن يتنافى مع مشربى أن نطوح بقواد الأسطول ،

وأن نضع أيدينا على السفن ، وان نبحر على السفينة بطرسبورج وقد رفعت عليها أعلام حمراء ، فقد كان من الممكن أن يكون ذلك نزهة طيبة ..

وقد راعني قليلا واحد منهم ، هو أحد رجال المدمرات الذى أطلق عليه اسم توروك . وقد بدا أنه روح المنظمة . وكان شابا ضخما ذا وجه مغطى بالبثور ، وله عينان دقيقتان ثاقبتان . وذات مرة جاء سينيا ، وهو أمين المنظمة ، الى الاجتماع ورأسه معصوب . وكان الظاهر ان ضابطا قد ألقى فى وجهه شايا ساخنا فى درجة الغليان . وقد أصغى توروك الى قصته ووجهه فى شحوب الموتى ، وصاح : قولوا اننى وغد اذا هم جاءت عليهم نهاية هذا الصيف . فسوف نجتث مجموعتهم اللعينة كلها من جذورها . يا سينيا ، أرنا مابك » . وحلوا عصابته ، فبدا وجهه أحمر تملؤه الحروق . وعندئذ أقاموا الدنيا وأقعدوها . وحز ذلك فى نفسى ، ولكنه لم يكن شيئا بجانب الدور المثير الذى كان قد اجتذبنى .

ولسوء حظى أن أحس الرفيق بنوع من التعاطف الوجدانى الخاص نحوى ، واعتاد ان يقول لى ، وعلى شفتيه غالبا ابتسامة حب : « انك بعيد عن معسكرهم ، ولكنك الآن قد جئت الينا ، ومن أجل هذا فأنا أحبك حب الابن » . وكان حبه غامرا لى ، ولكن ماذا كنت أصنع . كان من الممكن انفصل عندئذ عن المنظمة ، ولكن أذى احترامى لنفسى ، وأذى حبى الفتى الصغير لذاتى ، ان أفكر فى أنهم ربما تصوروا أن الخوف اعترانى . وعلى هذا النحو انتهى الصيف ، وكنت - فى الحق - سعيدا بذلك . ولم تكن وظيفتى الجديدة ، وردائى المزين بالشرائط ، وخنجرى ، لم تكن جميعا قد فقدت طرافتها . كانت هناك المقاهى حيث الموسيقى ، فى الشوارع الواسعة ، وملابس السيدات الأنيقات ، وغجريات استرلنيا . يا للجمال ! ثم الرحلات الليلية بالقوارب فى الخليج ، والليل المقمر

من فوق ماركيزوفا لوتسا ، وشروق الشمس الخالص الصفاء . ثم انطلاق النفس في بحبوحة ، ودوار النبيذ ، ومناظر الأعمـــــال الطائشة أمام الانسان . كيف يتسنى لانسان ان يفكر وسط كل هذا أو يحاول - بحق - ان يعرف نفسه ؟ وذات مساء حين عدت مسرعا الى منزلي وجدت على منضدتي مذكرة تقول : « لقد طردت الشياطين النساك . احضر الى السوق » . وفهمت ان شيئا مهما قد حدث ، ولكنني لم أصدق بشكل ما ان هناك أى خطر . وأذكر أنني حلقت ذقني ونثرت العطر على قبعتي قبل الخروج . وأردت بعـد الاجتماع أن أمضي فترة في متنزه الشـــارع أو في مقهى . وكان الذهاب مباشرة من الاجتماع الى أحد المقاهي دائما يزيد الانســـان لذة . وبعد مضى عشر دقائق كنت في عالم آخر . وطبيعي أنني احتفظت بذلك سرا ، وكنت أنا نفسي فزعا من ذلك المزيج الغريب، ولكنني أحببته .

ووصلت . وقابلني نوروك في الممر . واحتضنني وقبلني ثلاث مرات . وقال هامسا : أيهـــا الرفاق ، هناك تمرد على السفن في اسفيبورج ، وقد طوحوا بالضباط من فوق السفن ، وداسوا علم القيصر بالأقدام وهم يبحرون على ظهر السفينة كرونشتات . لقد وصلتنا برقية بذلك ، وكان المكان غاصا بالناس ، فقد كان أعضاء المنظمة حاضرين . وكان الجو في حرارة حمام البخار ، والقمصان محلولة الأزرار ، والأصوات قد بحت من الصـــياح ، الى نوع من الحماس المتهور السخيف . وسمعت سينيا أمين المنظمة، وهو هادىء دائما ، سمعته يصيح قائلا : « أيهـــا الاخوة ، لقد طفح الكيل ! والهلاك للطغاة ! » . وجاوبه توروك في لهجة مودة قائلا : « اننا ينبغي الا نتركهم يتناسلون . وأنت تستطيع يا سينيا يا صديقي أن تعتمد على ذلك » . ثم قال وعلى فمه ابتسامة انتصار : « لقـد سنحت الفرصة أخيرا ! »

وكنت جالسا فى احـــد الأركان ، أنتظر رفيقا أكثر حرصـا يستشير عقله ويوقف كل ذلك بفكرة أن أوان العمل لم يكن قد آن. اذن لكان الموقف كالمعتاد سارامسليا ، وليس فيه ما يفزع ، ولكنه اختلف هذه المرة ، فقد قال توروك : وسوف نثور غدا لنشد أزر اخواننا . واذا كان هناك شخص يخاف على نفسه فليذهب ولا يسد طريق الآخرين .انه عمل خطير ايها الاخوان . حسن سوف نأخذ الأصوات فمن يوافق ؟ »

ولم يخرج أى شخص ، ولم يعترض أى شخص رجل المدمرات . بل رفعوا جميعا أيديهم فى سكون . ونظرت الى الآخرين ورفعت يدى كذلك . وفى هذه اللحظة لم تكن لى ارادة خاصة . ثم ناقشوا خطة الثورة . ويبدو أننى اشتركت فى المناقشة وقدمت النصيحة. وقال لى توروك : « يجب اخراج بحارة المدفعية من قلاعهم غدا فى الساعة الرابعة ، فحاول وعطل المدافع عن العمل ! » ووافقت .

وأحسست احساس من يضع بعروة الحبل حول عنقه ليشـعر كيف يكون الشنق ، فهو يعرف ان كل ما عليه ان يصنعه هو ان يقف على أطراف أصابعه ، وأنه سيكون قادرا على التنفس فى حرية مرة أخرى ولكنه ينزلق فجـــأة ، وتضيق العروة ، ويتدلى تحت حقيقى .

وحاولت ان أتذكر ما كان على ان اصنعه فى اليوم التالى . أن أتدرب على اطلاق الرصاص وان أركب مع الفتاة الصينية الصغيرة ناكو ، وأن أحضر احتفالا بألاى ينيساى . ولكن شيئا اعترانى . لم أستطع ان اتذكر وجوه ضباط ألاى ينيساى او اسماءهم ، فقد اختلطت والتبست . وكنت كما لو أن روحى قد شلت ، وان نصفها قد صار حجرا . ولكننى لم أجد أية صعوبة فى ان أتصور ما قد يحدث لى فى القلاع . ويحتمل ان يقتلنى القائد برصاصه بمجرد أفتح فمى . وبدا توروك كأنه يستطلع أفكارى ، فقد جاء وجلس

بجانبى ، وقال : «آه يا صديقى العزيز ، سوف نفقد الكثير منذ غدا ! لا تفكر فى ذلك ! أجل اذا استطعت هذا ! وخرجت الى الشارع ، فماذا وجدت ؟ كانت الموسيقى فى المتنزه تعزف التوريادور ! هل تفهم ؟ »

وضحك كازاتسكى ضحكة عصبية قصيرة ، وضرب بيده على ركبة القبطان ، وفزع ايفجينى استفانوفتش .

وغمغم فى غضب قائلا : «أسرع وافرغ من ذلك . كيف احتلت حتى تنجو بنفسك ؟ هل هربت بعد الثورة أم ماذا ؟ »

- ليس تماما . اننى أخبرك بمشاعرى يا ايفجينى استفانوفتش لا بالحقائق . أتظن أننى قد اصفر لونى ؟ وان الهلع القاتل انتابنى وبدأت أصلى ؟ حسن ، اننى لم أصنع شيئا من هذا . وأقول لك اننى كنت فى غاية الهدوء عندئذ . فقد وقفت وأصخت ، وطنت الموسيقى اللعينة فى أذنى ، وربما استطعت أن أصورهم جميعا وهم يرقصون ، وكانت السماء صافية ، ولونها أخضر باهتا ، وربما كان الغد يوما عاصفا مشمسا . ولكن ماذا كانت أهمية ذلك بالنسبة لى اذا كان الغالب أننى قد أقتل فى الغد ؟ وفى الاجتماع كانوا يقبل بعضهم بعضا ، مبتهجين بشىء ما ، ويتشاطرون شيئا ما . أيمكن ان يكون ذلك هو الموت ؟ طبيعى أن لا ! أم أنهم كانوا على يقين من أنهم سيعيشون ؟ كلا ، فهم لا يمكن ان يكونوا واثقين من ذلك . انى فقد كانوا مبتهجين لما سيكون من أمرهم بعد وفاتهم . وقلت لنفسى لنفرض أننا استطعنا ان نضع أيدينا على القلاع والسفن وقواد الأسطول ، ولنفرض أننا ألقينا القبض على الضباط ، واقتحمنا بطرسبورج وسلحنا الناس ، ولم يستطع خيالى أن يذهب الى أبعد من هذا ، فعندئذ لن أكون حيا . فلماذا أبتهج لشىء لن أعيش حتى أراه ؟ لقد كنت انسانا حيا . وفى الأمس كان لى مستقبل غاية فى العظمة لدرجة أننى لا أستطيع ان أطوقه بذراعى . ولكن ذلك كان

سيضيع منى لأن الاحتفال بى سيكون احتفالا بظل ميت » .

واصطدم كازاتسكى بنظرةالقبطان الثابتة المحملقة وأدار عينيه .

ومضى يقول : « لقد عشت زمنا طويلا يا ايفجينى استفانوفتش، وشاب شعرى ، ولكننى لا أستطيع ان أقول اننى قد شبعت من الحيـــاة . وأية مصلحة كانت لى لو أننى بقيت فى زكيبة بقاع الماركيزوف لوتســـا ؟ ربما نسى الجميع كل ما كان من أمرى فى الغد . وربما دست روح طيبة مقالا عن البطل المتوفى فى الصحيفة السرية . أف لهذا ! ان عبارة البطل المتوفى لها نفس الوقع الذى لعبارة الجســد الفاتن . أتريد ان تكون جسدا فاتنـا يا صديقى العزيز ؟ ليس فى ذلك أية فتنة بالنسبة لى ، فأنا أفضل السجن على ذلك . ولكن لماذا أنت تبدو هكذا ؟ ألا توافقنى ؟ » .

فقال ايفجينى استفانوفتش فى صوت مرتعش : « انك لم تختم قصتك ، فاستمر من فضلك » .

وفرقع كازاتسكى أصابعه واستدار .

- لست أفهم ما تريد ، آه ، ما ألعن هذا ! أأنت تريد الحقائق ؟ حسن ، ها هى ذى الحقائق . لقد ثاروا فى الوقت المحدد وطعنوا الحراس بالخناجر ، واستولوا على كمية من البنادق ، وحاولوا ان يقتحموا القلعة ، فقوبلوا برصاص البنادق الميكانيكية . واندفعوا نحو قائد الأسطول ، وهناك أحاط بهم جنود من ألاى ينيساى . وكانت الخراطيش التى معهم قد نفدت . وبدأ اطلاق الرصاص ،ولم يبق منهم الا قلائل . وعند المساء كان كل شىء قد انتهى . ماذا تريد ان تعرف سوى هذا ؟ اننى آسف فلست أذكر التفصيلات . وعلى كل حال لم تصل السفن من اسفيبورج . ولست أدرى ان كان ذلك عن خطأ أم عن سخط . وسرعان ما هدأ كل شىء بصورة مذهلة . وأخرجوا أجساد الموتى فى قوارب ، وغسلوا الشوارع» .

وهنا سأله القبطان في صوت يكاد لا يسمع قائلا : « وماذا عن توروك ذاك يا اوليج ميرجاييفتش ؟ هلا أخبرتني بما حدث له ؟ »
ونهض كازاتسكى ، وذرع الحجرة جيئة وذهابا ، وهو ينتفض من أثر الخمر .

ـ « ولماذا تهتم بالسؤال عنه ؟ انك فضولى حقا . وماذا يعنيك فى هذا ؟ » وتوقف ، ونظر بعيدا ، وعلى وجهه شيء بين الابتسام والعبوس . ثم أضاف : « لقد شنقوه . أتريد التفصيلات ؟ اننى آسف فلست أذكرها » .

وجلس ايفجينى استفانوفتش بلا حـــراك ، وكان يتنفس فى صعوبة ، وتورد وجهه .

وقال فى اندفاع الحائر الذى استجمع شجاعته لكى يقول الحقيقة:
« انك لم تقل كل شيء يا كازاتسكى . كفى ! فلست فى حاجة لأن تقول أكثر من ذلك ، فقد سمعت بذلك العمل المهول . لقد حـدثت فيه خيانة ، وأنت تعرف ذلك . أنت ... »

ـ « يا لك من شيطان ! » هكذا زمجر الوكيـــل ، وجسمه كله ينتفض . ثم أضاف : « اذن فهذا ما كنت تتخيله ! أجل ، انك قد فقدت صوابك حقيقة . اسمع ... »

فقال ايفجينى استفانوفتش فى لهجة تعجب وهو يمسك بذراعى المقعد فى جهد واضح لكى ينهض : « من أجل ماذا أنت تخبرنى بكل ذلك ؟ وأية نكبة جمعتنى بك ! اننى لا أشعر بعاطفة نحوك . ان أفكارك ووجودك نفسه يؤذى نفسى . آه ، لماذا لا أكشف عنك قناعك ، وأكشف قناعى أنا أيضا ! »

فقال كازاتسكى وهو يمد يديه فى ابتسامة استعطاف : « يا رفيقى العزيز ما الفـائدة فى ان تعــذب نفسك ؟ اذن فأنت كذلك لديك

أسرار ؟ لقـــد عرفت منك ذلك ، وعرفت بالتأكيد . اننا مرتبطان بأواصر قوية عميقة الغور فى نفوسنا ! ولكن بربك لا تفه بكلمة عن ذلك ، فلم يحن بعد وقت موتنا . أجل اننا نستمتع حتى فى هذا المكان بأوقات سعيدة ، بل غاية فى السعادة . والآن نحن قادمون على اللعب فى هذه المباراة وسوف أرتب أنا الأمر ، سوف أرتب كل شىء يا ايفجينى اسـتفانوفتش . كل ما أطلبه منك ألا تفـوه بكلمة ... واذا كان لا بد فحاول ... »

ولم يختم عبارته . واندفع خلف القبطان . وكان التعبير الذى فى وجهه يتغير على التوالى من صداقة مستعطفة الى تجهمات مهددة . ولـكن القبطان لان له فجأة وبدا مرتبكا ، ولم يعد هنـاك أى أثر لانتفاضات الغضب السابقة .

وقال فى صوت حزين : « اننى أنا نفسى لدى ذكريات كهـذه ، وربما كانت اسوأ ، ولست أستطيع كذلك ان أنساها ، وأحاول ان ألتمس العـذر مثلك تماما . ولكن يجب ألا نتحدث فى ذلك . أو تسمع ؟ يجب ألا نعود لذلك مطلقا . أما فيما يختص بأخبار أى شخص فانى لن أخبر أحدا مطلقا » .

وانتشرت أخبار الرحلة الاستخانوفية فى كل ركن من الميناء . وانطلقت الديربنت فى الماء ولم يسمع عنها شىء حتى الصباح . فقد أجابت فى الساعة السادسة صباحا على الاشـارات اللاسلكية التى وصلتها عندما استفسر رئيس قسم العمليات فى الخط الملاحى عن سرعتها . وقد كانت السرعة التى سـجلها تاروموف عامل اللاسلكى فى دفتر أحوال السفينة سرعة فائقة لم تسبق من قبل ، فقد بلغت أربع عشرة عقدة . وكان هذا أكثر من المعقول ، وكان لا بد من أن هناك خطأ ما . وقد تكلمت الادارة تطلب اجابة سريعة . وقرر تاروموف ان يتأكد ، وطلب الديربنت مرة أخرى . وضاع الوقت بالنسبة للنشرة الجوية ، وتجمعت كومة من البرقيات التى لم يعجل بارسالها على المنضدة . وظل يرسل الاشارات الى أن أجابته الديربنت أخـيرا فى طنين أجش تقول : « كل شىء على ما يرام ، والسرعة تبلغ أربع عشرة عقـدة ونصف » . وبعد ذلك ، وبعـد فترة صمت قصيرة ، جاءت طرقة حادة مرتفعة كأنها سبة ، تقول : « تسـعة وتسعون » . وهنـا ضج تاروموف بالضـحك وخلع سماعتيه . وهذا الاصطلاح معناه فى قانون هواة اللاسلكى العالمى : « عليك اللعنـة ! » . وكان الأمر اما أن المرح قـد صير فولوديا ماكاروف وقحا ، واما أنه كان غاضبا بحق لكثرة الطلبات .

وقال تاروموف : « أنت ترين يا موزيا أنهم قد فاقوا كل سرعة سابقة ، فالأجماليا تسير بسرعة اثنتى عشرة عقدة وهى محملة ، وكانت هـذه السرعة تعد سيرا طيبا ، ولـكن الديربنت تفوق كل الأرقام القياسية » .

وأجابته بلتسكايا فى هدوء قائلة : « فلننتظر لنرى ، فهم لم يصلوا بعد الى المراسى . وطبيعى أن هذه سرعة عظيمة ، ولكن عليهم ان يحافظوا عليها » . ثم أضافت : « لقد كانوا دائما يتلكأون بعيدا فى الخلف » .

وبعد ذلك بقليل حدثت مكالمة تليفونية من رئيس كاسبيا البلشفية يستفسر فيها عن سرعة الديربنت ، فأجابته موزيا بصوت صريح :

« أربع عشرة عقدة ونصف بحسب آخر التقريرات . ألا تصدق ذلك ؟ عليك فى هذه الحالة ان تحضر الى محطة اللاسلكى لتتأكد بنفسك . أجل ، أجل . تهانينا . هذا اذا لم يحدث توقف فى الطرقات . سوف نخبرك اذا جد فى الأمر جديد » .

وانتهت متاعب بلتسكايا وتاروموف فى الساعة الثامنة ، فخرجا كالمعتاد وذراعاهما مشتبكتان كالطرق المتقاطعة . ولم يتكلم أحدهما . ولكنهما وقد تآلفا لم يكن السكون ليثقل عليهما . وفجأة سألته موزيا :

« يحتمل ان أذكر فى الصحف بخصوص الديربنت . ألا تعتقد ذلك ؟ »

– لا بد أن تذكرى .

– ومع صور فوتوغرافية ؟

– صور من ؟

– صورهم ، أولئك الاستخانوفيين ؟

– أجل ، ان عددهم يبلغ خمسة وأربعين ، ويحتمل ان يأخذوا صورا لأحسنهم ، لا للجميع .

— يهمنى ان ارى اشكالهم . اسمع يا آرسن

— ماذا ؟

— لقد قرأت أن بعض الرؤســـاء كانوا يتحرشون بالكساى استخانوف فى العام الماضى . أكانوا حقا يصنعون ذلك ؟

— طبيعى انهم كانوا يصنعون ذلك ، ولكن لماذا تسالين ؟

— حسن ، انه شىء غريب بشكل ما . الى اللقاء يا آرسن

— الى اللقاء . ما الذى أصابك اليوم ؟فقد تورمت عيناك . أرجو الا يدوسك الترام .

وقرب الصباح طلب تاروموف الديربنت مرة أخرى . ولم تكن السفينة قد فقدت سرعتها خلال الليل . وقد قطعت المســافة الى مراسى استراخان فى احدى وثلاثين ساعة . وكان صف من الصنادل ينتظرها عند شاطىء تايلن . وفى الصـــــباح المبكر زادت برودة الريح ، كما كان هنــاك موج متلاطم . وقد وجد الرفاس الأخـير صعوبة فى الوصول . وبالرغم من ذلك تمت عملية التفريغ فى ثلاث ساعات . وبدأت السفينة رحلة العودة ، وقد تعقبها موج مرتفع من جهة الشمال مهددا بالتقليل من سرعتها .

وكانت نوبة العمل الأخـرى مليئة بالعمل النهـارى فى محطة اللاسلكى . وقد وصـــــل تاروموف فى المســـاء ونظر فى دفتر التسجيلات فلم يجد ذكرا للديربنت . لقد كانت متوقعـــــة بعد منتصف النهـار ، ولكن عامل اللاسلـكى سمع نداءها مبكرا فى الساعة الثامنة صباحا .

— نحن بمحاذاة جزيرة زيلوى . سنصل فى خـلال ساعتين أبلغ ميناء الشحن .

وتســاءل الموظف فى تعجبه : « كيف يمكن ذلك ؟ وأضــاف

« انهم ان كانوا بمحاذاة جزيرة زيلوى فيلزمهم الملاحة مدة ثلاث ساعات . أيمكن ان يكون عامل اللاسلكى قد أخطأ ؟ »

فقال تاروموف مكشرا : « اطلب مكتب التشهيلات ، فستجد ان أحدا لم يخطىء ، وأن هذا صحيح ! »

ـ ولكن لا يمكن ان يكون صحيحا ، فأنا نفسى كنت ملاحا ، وأستطيع أن أعرف !

ـ ولكنك مع ذلك لا تستطيع ان تعرف طريقهم الجديد ، فهم يبحرون حول الجانب الآخر من الجزيرة عبر القناة ، فهذا الطريق أقصر بكثير .

ـ ولكن الماء غاية فى الضحالة هناك .

ـ انه يبلغ فى العمق ثمانى أقدام ، وهم يبحرون خفافا ولا يحملون أية شحنة . وبجانب ذلك فهم قد تخلصوا من كل الاشياء المهملة كيما يقللوا من غاطس السفينة . لا تخش شيئا ، فهم قد استغلوا كل شىء .

ـ مرحى ! يا لهم من رفاق ! لا عجب أن يكونوا حديث كل الناس فى الميناء . وسوف تأتيهم الآن أخبارهم من ما خاش كالا وأستراخان وكراسنوفودسك .

ـ اننى أعرف واحدا منهم وهو ماكاروف عامل اللاسلكى . انه مجرد رفيق عادى . مجرد صبى . وهو من النوع المرح .

ـ وأنا أعرف قائدهم . وهو كذلك لا يزيد على الشخص العادى.

انه رجل كبير السن ، لطيف ، وهو غاية فى الأدب دائما . انه غاية فى الهدوء .

وأنصتت موزيا وهى تعض شفتيها · لقد ظلت طوال فترةالصباح هادئة ، ولم ينتبه اليها أحد · وفجأة قالت لتاروموف وهى تتكلف عدم الاكتراث :

- يحتمل ان يكون هناك كثير من الناس على رصيف الميناء ، فما رأيك فى الذهاب الى هناك لالقاء نظرة ؟

فقال تاروموف : « ولم لا ؟ سوف أصحبك »

- « كم بودى أن أتمشى » وأسرعت لتضيف : « فما ألطف الجو ! »

وسارا فى الطريق صوب مرفأ البترول ، وألصقت موزيا كتفها به ، وراحت تداعب أصابعه دون أن تقول شيئا ·

وكان تاروموف يفكر بصوت مرتفع ·

« ما هو المنهج الاستخانوفى ؟ انه المنهج العقلى ، انه التنظيم العقلى للعمل ، والاستفادة الكاملة من الجهاز كله · وأعتقد أنك تستطيع ان تطبقه حيثما كانت لديك أجهزة آلية · فلماذا لا يطبق فى الاتصالات اللاسلكية كذلك ؟ اننى أرسل حوالى مائة اشارة فى الدقيقة ، ولا أضيع أى وقت فى الطلب · ولكن من الممكن الوصول الى أكثر من هذا · فاذا أنت ضبطت جهازك وتخلصت من كل الضجة غير المرغوب فيها ··· ما رأيك يا موزيا ؟

ودارا حول ركن الورش ، وخطف بصريهما اشعاع البحر الباهر·

وفى وسط الخليج كان عملاق من الحديد الصلب يستدير فى بطء ، وقد شمخ فوق الماء جانباه المصفران من الصدأ ، وترك عند مؤخره أثرا من الزبد المتصاعد ·

وسألته موزيا وهى جامدة فى مكانها : « أهذه هى ؟ »

- أجل ، هذه سفينتنا الاستخانوفية · تعالى ، هيا لنسرع ·

- كلا ، انتظر

ومر بهما بعض الناس فى طريقهم الى رصيف الميناء وهم يتكلمون فى حماس عظيم ويلوحون بحقائبهم . واستطاع تاروموف ان يلتقط أجزاء من حديثهم: «مائة وعشرون فى الماء من المعين للرحلة...»

وسحبت موزيا يدها وصوبت نظرها الى رصيف الميناء .

وقالت : « انك تستطيع الرؤية جيدا من هنا ، وأنا لن أسير الى أبعد من هذا »

ونظر اليها فى دهشة وفى نوع من الرجاء ، متذكرا ان بازوف كان على الديربنت . اذن فالظاهر ان موزيا لم تكن تريد ان تراه .

وأخرج تاروموف ساعته ، وقال : « الساعة العاشرة تماما ، فيكونون قد قاموا بالرحلة فى ثلاث وستين ساعة . وسوف أسرع لكى أراهم وهم يلقون مراسيهم ، أما أنت يا موزيا فابقى هنا » .

ولوح لها ، وأسرع هابطا نحو رصيف الميناء ، وبقيت بلتسكايا بمفردها .

نقلت الديربنت خـــلال شهر اكتوبر مائة ألف طن من الزيت الثقيل الى طرق استراخان ٠

وقد استطاعت فى الأسـبوع الثانى ان تتفوق على الأجماليـا وتصبح فى رأس قائمة ناقـلات بترول خط أســتراخان الملاحى ٠ ولكن الأجماليا اســتطاعت فى الأسبوع الثالث ان تقوم برحلتهـا الاستخانوفية الأولى بنجاح ، وان تقترب من الديربنت . مهـددة باستعادة المكانة الأولى ٠

ومنذ ذلك الحين صارت المباراة جزءا من الحياة فوق السفن، وصارت المكافآت المالـيـــة الكبيرة ، والمقالات فى الصحف ، والرســـائل اللاسلـكية من سفينة الى أخرى ، صارت أشـياء عادية ٠ ولم تعد هناك مهمات طارئة فى عنبر المحركات ، وصار من السهل رفع قطع الغيار المستعملة دون أية مشقة ٠ وكانت اجتماعات البحارة نفسها قد أخذت طابع الهدوء : فنوقشت الاقتراحات الجديدة فى هدوء، ولم تثر فى النفوس أى شك ٠

وذات صباح قرب نهـاية اكتوبر أخذت بريديس خـلال الدرس السياسى نوبة سعال ، فشحب لونه وراح يدس وجهه بين يديه ٠ وقفز الملاحون وتصايحوا دون جدوى حوله ٠ ورفع بريديس رأسه ونظر فى ارتباك الى يديه ، فقد كان الدم قد غطاهما ٠

ـ « انتهى الدرس ، وتســـتطيعون أن تذهبـوا » ٠ هكذا أعلن كوتلنيكوف فى حزن ٠

ولكن أحدا لم يخرج ، بل تجمعوا حول الرجل المريض ، وحملقوا فى وجهه · وقدم اليه حسين منديلا ، ونظر حوله فى يأس وهو يمر بأصابعه خلال شعره ·

وغمغم المساعد السياسى قائلا : « انه عمل أخرق · لماذا تنظر الى هكذا يا مصطفى ؟ فما زالت بينى وبينك معركة يا عزيزى · نلد بازوف » ·

وحملوه الى حجرته ووضعوه فى الفراش · ومد جسمه النحيل فى سريره ، وثبت نظرته على السقف ورقد فى صمت ·

ووصل بازوف ، وأمر باحضار الماء ، وجلس على سرير الرجل المريض ·

وقال له : « سوف نصل الى الميناء خلال ساعتين . وسأطلب لك الاسعاف » ·

- لا داعى لذلك

- كما تشاء · فسآخذك اذن بنفسى فى الترام · لقد أرهقت نفسك يا هرمان ·

فقال المساعد السياسى : « أوه ، كفاك هذا » · واستدار فى صعوبة وهو يتنهد لكى يتنفس · وأضاف : « لقد عرفت أن هذا قد يحدث يا ساشا ، وكل ما فى الأمر أننى لم أقدر حصوله بهذه السرعة · ومهما يكن الأمر فكل شىء له أوان · ان الموسم الملاحى لم يبق على نهايته سوى شهرين ، وهى فترة ليست بالطويلة · أما فى الربيع فسوف تجد الادارة السياسية شخصا ما · ومع ذلك فبودى أن أشهد الملاحة خلال هذين الشهرين » ·

- لا تكن سخيفا · أتريد اذن أن تهلك وأنت فى البحر ؟ اننا لسنا أطباء يا هرمان ، وسرعان ما نتلف صحتك ، ان لم نكن قد

أتلفناها من قبل . وغدا سينسى كل شخص مرة أخرى أنك مريض، وأنك لا بد أن ترتاح ، فنحن هنا لسنا فى مصحة .

وأدفأ بازوف يدى المريض فى يديه ، وهو يضغط عليهما كأنه يريد ان يلين من صلابة رأيه التى لا جدوى منها .

فقال المساعد السياسى : « ان ترك السفينة أمر ليس على هذا النحو من البساطة ، فان جمعية اللجنة الفرعية لن تستطيع الحصول على أى شخص يحل محلى بهذه السرعة » .

ولم يجب بازوف .

وقال بريديس وهو مقطب : « لماذا لا تتكلم ؟ سيكون عليك أن تحمل عبء الجانب السياسى لمدة ، وهذا واضح وضوح الشمس فى السماء » . ثم أضاف سريعا : « ان أحدا لا يستطيع أن يرغمك بطبيعة الحال ، ولك الحق فى ان ترفض . وفى هذه الحالة سيكون من الضرورى ان يبقى كل شىء على ما هو عليه » .

ـ سوف أجعل من نفسى سياسيا رائعا ! أو تسخر منى ؟

ـ لا جدوى من الحديث فى ذلك اذن . وسوف أرقد هنا قليلا .

ولماذا حقا أذهب الى البر ؟ ان أهم شىء بالنسبة للسل هو الهواء النقى ، وهو موجود بشكل كاف فى البحر . اصنع لى قليلا من الشاى يا ساشا .

وأحدث بازوف بوعاء الشاى جلبة لمدة طويلة ، محدثا بغطائه كثيرا من الضجة . وتصاعد الدم فى وجهه ، وكانت أذناه ملتهبتين .

وقال أخيرا ، كأن الأمر كان قد استقر تماما : « سيكون لدينا الوقت لكى نذهب الى الجمعية الفرعية فى أثناء انتظار السفينة

بالرصيف . فاذا هم لم يعترضوا على مؤقتا فينبغى عليك أن تبقى فى المدينة »

وصمتا برهة . واحتسى بريديس الشاى ، وهو يقبض أنفه ، ويبتسم ابتسامة المذنب .

وقال : « انك الآن تشعر كما لو أنك تسبنى ، أليس كذلك ؟ ولكنك رفيق طيب . اننى فى الحقيقة لا أريد أن أموت يا ساشا كما تعرف »

ـ لا بد أنك لا تريد .

ـ ليت كل شيء فى السـفينة يسير على ما يرام . ففى بعض الأحيـان يخطر لى أن الأشـياء ليست حسنة كما تبدو . واليك القواد مثلا . والحقيقة أننى كنت أقرأ دفتر تسجيلات السفينة فى الأيام القليـلة الماضية ، فوجدت ان كل البرقيـات التى أرسلها القبطان ... رأيت أنها مملاة عليه . أتدرى من الذى أملاها ؟

ـ أجل .

ـ آه ، لقد ظللت أراقبه مدة طويلة ولكننى لا أستطيع ان أجـد شيئا حسيا ملموسا ضده ، فليس هناك أى شيء . أليس كذلك ؟

ـ بلى

ـ راقب كل شيء يا ساشا . ولكن كيف يتسنى لك هذا ، فان لديك من العمل فى الآلات ما يكفى . أتدرى ما الحل ؟ أن أبقى على السفينة رحلة أخرى . أتسمح لى بذلك ؟ ربما تحسنت صحتى .

ـ هذا هراء ! أتظن أننى أنا وأنت لا يوجد من يحل محلنا ؟ وما الفائدة التى نجنيها اذا أنت مت على السفينة ؟

ـ حسن، سوف أعتمد على الأعضاء النشطين من البحارة. هل

لاحظت كيف مر الدرس السياسى فى الفترات الأخيرة ؟ فلم يكن الصامتون عددا كبيرا · ليتنى لم أكن مريضا ! من ذا الذى بالخارج يا ساشا ؟

ـ انهم الرفاق ، فهم قلقون من أجلك · ألا تنام يا هرمان ؟

ـ انهم رفاق عظام ، رقيقو القلوب · حسن ، ســـوف أنام ، وسأنزل اليوم الى البر ، فأنا حريص على ان تتحسن صحتى ، وأعود

وعندما ألقت السفينة مراســيها تركها بريديس ، وســار على رصيف الميناء هيكلا طويلا بائسا ، وكتفاه واهنتان · وبعثر الريح شعره الأشقر ، وجعل معطفه الطويل يرتطم برجليه كأنه يسخر من ضعفه · وتجمع الرجال خلفه ، يتزاحمون على مساندته · أما المرتبطون منهم بالعمل فقد لوحوا بقبعاتهم من فوق جانب السفينة وهم يراقبونه مبتعدا ·

ولم ينسوه على الديربنت ، بل كثيرا ما فكروا فيه فى ساعات الفراغ وهم فى حجرة الطعام · لقد كانوا يفتقدونه ، ويستفسرون عنه عندما يكونون فى الميناء · غير أن الأحداث الخطيرة التى سرعان ما حدثت فى السفينة انستهم كل شيء ، ولكنهم فيما بعد ربما قالوا وهم يتذكرون أحـــداث الموسم المـــاضى ، ويحاولون ان يتتبعوا تسلسلها المنطقى : « كان هذا عندما كان بريديس ما يزال مساعدا سياسيا ، فقد حدث هذا فى ذلك الوقت ! »



العاصفة

- ١ -

تسلم القبطان عند الفجر ، وقبل الرحيل ، الأمر غير المتوقع الذى يدعوه للتوجه الى كراسنوفودسك • وقد أحضر فولوديا البرقية اليه ووقف عند باب حجرة الخرائط وهو يرتجف ، ويمسح عينيه بقبضة يده •

وقال القبطان فى ضيق ، وهو يدفع بالورقة جانبا : « أيرضيك هذا ؟ ان نترك كل شىء ، وان نذهب الى حيث لا يعلم الا الله • وماذا فى كراسنوفودسك ؟ يقولون ان هناك زيتا ثقيلا » •

وأطارت الورقة هبة من الريح ، نفخت قميص فولوديا ، وجعلت ذيل معطف القبطان المصنوع من الفرو يرفرف • وأخذ ضوء النهار يتزايد سريعا •

وقال القبطان مزمجرا : « انهم ليست لديهم أدنى فكرة عن

الأجهزة هنا . فلدينا محركات كهربائية وأشياء كثيرة على ظهر السفينة . وقد قال كبير المهندسين ان شرارة من أحد المحركات كافية لاحداث انفجار . قل لى ، من المطالب بالرد على ذلك ؟ »

فقال له فولوديا يذكره : « لقد طلبوا منا أن نؤكد لهم موافقتنا ، فهل أصنع هذا ؟ »

ـ انتظر قليلا يا صديقى . فكما كنت أقول لك : من المطالب بالرد على ذلك ؟ انه القبطان بطبيعة الحال ! فكل ما يقدرون عليه هو أن يرسموا الخطط ويكتبوا الأوامر ، وعلى القبطان أن ينفذها . وماذا يحدث لو فرضنا أننى رفضت ؟ فالواقع أننا لا نستطيع ان نغير نوع الشحنة دون ان نقوم بتفتيش خاص للسفينة . فليعينوا لجنة ، وليكتبوا تقريرا ، وبعد ذلك نشحن كل شىء ، حتى البترول اذا هم شاءوا .

فسأله فولوديا وهو يستدير صوب الباب : « اذن يجب ان أخبرهم بأننا نرفض ؟ » . وسرت فى بدنه قشعريرة من الريح القارسة البرد ، ولم يشأ أن يترك واقفا هناك . وقد عرف بالتجربة أن اسكات القبطان عندما يبدأ الحديث عن المسئولية وعن الادارة بالشاطىء أمر غاية فى الصعوبة . وأضاف : « سأخبرهم بهذا يا ايفجينى استفانوفتش » .

فقال القبطان فى غاية الاضطراب وهو يتلفت حوله باحثا عن الرسالة : « انتظر ، الى أين أنت ذاهب ؟ اننا لا نستطيع ان نرفض بهذه الطريقة ، والا فسيتهموننا بافساد الخطة . أين كازاتسكى ؟ »

ـ نائم فى حجرته

ـ أيقظه . كلا ، لا حاجة لذلك . الأفضل أن تدعو كبير المهندسين ، وسوف ندرس الموقف .

وظهرت الشمس عند سطح البحر ، فصبغت الأطراف السفلى

من السحب المتناثرة بلون قرمزى وصار هيكل السفينة الأبيض بلون القرنفل ، وبدأت السفن البخارية المضطرمة تتهادى على الماء ، وتضاءل النور الكهربائى فى حجرة القيادة ، وبهت حتى صار رقعة صغيرة بيضاء .

وجاءت من جهة الشمال قطع من السحب تشبه نفثات من دخان رمادى ، كانت ارهاصات بعاصفة من السحب الرمادية الكثيفة . وكذلك جاءت من جهة الشمال موجات صغيرة مسرعة لها ذؤابات من الزبد اللامع ، كأنها انعكاس للحركة التى فى السماء . وارتفعت من مدخنة الديربنت قطع رمادية من الدخان ، تجتذبها الريح ، ويندمج بعضها فى بعض ، وتتحرك على ظهر السفينة .

وقال ايفجينى استفانوفتش ، وهو يلف نفسه فى معطفه الفرو حتى يشعر بالدفء : « ان ريحا شمالية تهب . انها ريح الخـريف الشمالية حقا ، وقد أخذ الباروميتر فى الهبوط » .

ولفحته الريح فى وجهه عندما كان واقفا على الجسر ، وتسربت لذعاتها تحت ياقته ، ودغدغت ظهره .

وفى أسفل كان غطاء بوصلة أحد قواربالنجاة الذى كانت الريح قد نفخته ، كان يرفرف محدثا ضجة جوفاء خافتة . وتلفت عامل الدفة عنـدما سمع خطوات القبطان ، وشـدد من امساكه بعجلة القيادة .

وراح ايفجينى استفانوفتش يتفكر وهو يهبط سدفة السلم : « ان موسم الملاحة سرعان ما ينتهى ترى الى متى يمتد ؟ الى نوفمبر وديسمبر ، لا بل الى منتصف ديسمبر فحسب . وكم بقى من الايام فى نوفمبر ؟ »

وقابل كبير المهندسين قادما . ولمس هذا الأخير أعلى قبعته ، وكان وجهه محمرا بسبب الريح ، وبدا محنقا غاضبا . وأدار عينيه

دون أن يقول شيئا ، كأنه يأبى أن يبدأ الحديث . وقد جعله ذقنه الغارق فى ياقته المرفوعة ، جعله يبدو كئيبا .

وقال ايفجينى استفانوفتش فى نفسه وهو يشعر بالحزن : « انه لا يحبنى . لقد صدق كازاتسكى . ولماذا قد دعوته ؟ كان ينبغى ان أوقظ كازاتسكى . وأى شىء أستطيع ان أتحدث معه بشأنه ؟ »

وقال فى لهجة ودية : « حسن أنك لست نائما . هل ترى ذلك الشىء المقبل ؟ تستطيع الآن أن تتوقع عاصفة هوجاء عاتية . وبجانب ذلك علينا أن نغير خطتنا . هل بلغك النبأ ؟ »

فقال بازوف : « ان عامل اللاسلكى قد أخبرنى » . واستدار كأنه يبحث عن عامل اللاسلكى ، فلما لم يره عاد فنظر الى البحر .

وأحس ايفجينى استفانوفتش بالضيق ، ولكن شيئا حفزه على الاستمرار فى الحديث ، فقد أراد ان يزيل ما بنفس بازوف من عدم الثقة .

فقال وهو يلمس يد المهندس فى رقة كأنما أراد ان يقربه من نفسه : « الواقع أننى لا أدرى ماذا أصنع الآن . فنحن من جهة نعرف أن زيت كراسنوفودسك خفيف وأنه من الممكن نقله على ناقلات البترول . ثم ان لدينا محركات على ظهر السفينة ، والرجال يدخنون فى كل مكان رغم التعليمات . ومن جهة أخرى فاننا لو رفضنا لأفسدنا خطة الشحن ، وأنا لا أريد ان أصنع ذلك . وقال فى نفسه : « من الغباء أن تظن أنه كان يحاول اقناعى بافساد الخطة وأننى كنت أرفض . ثم اننى أبدو كأننى أحاول استعطافه يا للدناءة ! أحقا أننى كذلك ؟) اننى لا أريد ان أبعث بجواب دون استشارتك » . واستمر يقول : « ولو أننى متأكد بطبيعة الحال من أنك ستوافقنى . (أجل ، لا جدال فى أننى أستعطفه) . اننا نعرف أننا جميعا مسئولون لا عن أعمالنا الخاصة فحسب ، بل عن عملية

الشحن عامة ، وباختصار أعتقد أنه ينبغى علينا تأكيد موافقتنا ، والذهاب الى كراسنوفودسك » ٠

وظل بازوف صامتا ، وعيناه مصوبتان الى الأرض، كأنه مستغرق فى الفكر ٠ أما ايفجينى استفانوفتش فقد اعتراه توجس ، فلو فرضنا ان المهندس قال ان ذلك ليس من شأنى ، أو أنه لم يحر جوابا على الاطلاق ، اذن لصار الموقف غاية فى الحرج ٠ وفجأة تلفت بازوف حوله كأنه يريد ان يتأكد من أن أحدا ليس قريبا منهما ٠ وبصورة آلية صنع ايفجينى استفانوفتش نفس الشىء ٠

وقال بازوف فى صوت خفيض : « لقد احترقت فى العام الماضى ناقلة الزيت بارتيزان ٠ ألا تذكر كيف حدث ذلك ؟ لقد كانوا يحملون زيتا من كراسنوفودسك أيضا ، وكان البعض يدخن على ظهر السفينة ، أو أن أحدا ألقى بمفتاح ، لست أدرى ٠ ولا بد أنه كان هناك ثلم فى الباب الأرضى ، تسرب منه الغاز ٠ وحدث انفجار ٠ وتشققت مواضع الالتحام فى ظهر السفينة ، وتفتتت الأبواب الأرضية ٠ ومن حسن الحظ ان ذلك حدث فى وضح النهار ، واستطاع البحارة ان ينزلوا قوارب النجاة ٠ وطبيعى ان البعض قد أصيب بحروق وان لم تكن بالغة ، ولكن السفينة تحطمت كلية » ٠

وسأله ايفجينى استفانوفتش فى صوت متهدج قائلا : « ولماذا أصيب الرجال بحروق ؟ » وكان قد نسى كل ما كان من شأن عجرفته اللاذعة ، وتواضعه الخاص ، فكانت كل كلمة يقولها بازوف تقع مباشرة فى قلبه ٠

– تسألنى لماذا احترقوا ؟ ان الزيت قد فاض على الماء عندما تطاير ظهر السفينة ٠ والزيت يحترق بسهولة على الماء ٠

فقال ايفجينى استفانوفتش فى غضب : « فلماذا هم اذن يبعثون بنا ؟ أجل ، انها جريمة ، أليس كذلك ؟ ونحن لا نستطيع ان نوافق

عليها مهما كانت الظروف ! ما رأيك ؟ انك تقول ان شخصا ألقى بمفتاح . ألا يمكن أن يسقط مفتاح كذلك من أحد رجالنا ؟ »

- لست أدرى.

وخفض ايفجينى استفانوفتش من صوته ، وقال : « هأنتذا . آه ، ما أشق ما يجب علينا أن نعمله ، انظر ، انك شيوعى ، فقل لى فى أمانة ، أليس هذا الأمر دنيئا ؟ أليس جريمة ؟ »

- حسن ، اننى لست مختصا ، ولكننى لا أستطيع ان رأىموضع الجريمة . فهذا الزيت الخفيف لا بد من شحنه ، وليس هناك من ناقلات البترول ما يكفى . ثم ان ظهر الديربنت لا يسمح بتسرب الغاز منه ، والأبواب الأرضية محكمة . هذا الى جانب ان منافذ التسرب فى حالة مرضية . وعلى ذلك فليس هناك خطر مباشر ،وان كان من شأننا ان نتخلص من كل المخاطر العارضة . ثم ان زيت كراسنوفودسك لا يشتعل من تلقاء نفسه » . وابتسم بازوف مخفيا وجهه فى صدره وهو ينطق الكلمات الأخيرة :

- ولكن ألا يمكننا كذلك ان نرفض ؟ فليعينوا لجنة ، وليصدروا قرارا رسميا .

- ليس فى استطاعتنا ان نرفض . وأنت نفسك قلت ان هذا من شأنه ان يفسد خطة الشحن . وأنا لم أشر الى رجالنا الا لأبين أنه من الواجب علينا ان نكون أكثر حرصـــا حينما تكون سفينتنا مشحونة ، وان نستمر فى مراقبتهم ، والا فلن تعرفوا قط ...

ثم هبت لفحة ريح من الشمال ، وغطت الخليج بقطع دكناء من الموج ، وقبض ايفجينى استفانوفتش على أذنيه ، وسأله : « ماذا تقول ؟ »

ولكن بازوف لم يصنع شيئا سوى أنه راح ينتفض ، ويلصق يديه داخل كمى سترته . واســتطاع القبطان ان يقرأ على شــفتيه اللتين شققتهما الريح كلمة « البرودة ! »

- ٢ -

واســـتدار حسين فى سريره ، وضرب برأســه حائط الحجرة الحديدى ، فاستيقظ ، وأحس البرد وفتح عينيه ، والتفت الى ثقب الباب ، فانساب اليه ضوء رمادى معتم كانت ذرات صغيرة من الماء تتراقص فيه · وتذكر حسين انه كان يرقد فى نفس الموضع تماما ، وينظر الى ثقب الباب ، قبل ان يستغرق فى النوم ، الأمر الذى بدا كأنه ينظر خلال منظار مكبر الى نجم كبير لونه أزرق شاحب فى أعماق السماء المخملية ذات اللون الأزرق القاتم · ولم يكن هنــاك سوى رشاش قليل وخفيف فى البحر من تحته ·

ثم بدا كأن كل شىء بالخارج يعج بالضجة المدوية الصاخبة ، كأن قبضة يد هائلة يغطيهــا القفاز تدق دقات منتظمة على الأجـــزاء البارزة من السفينة · وكانت المياه تتصبب من مكان ما · وكان حسين أحيانا يحس بنفسه خفيفا على نحو عجيب كأنه يهوى فى حفرة ، وأحيــانا يحس بنفسه ثقيلا فيبدو ملتصــقا بسريره وهو يستدير جهة اليمين · وفى نفس الوقت مال السقف ، وتراقصت أركان الحجرة ، وتدحرجت علبة كانت قد سقطت على الأرض ، ثم توقفت كما لو كانت قد اختبأت فى أحد الأركان ، ثم اكتفت بأن تتراقص ذهابا وجيئة ، وكانت أحيانا تتدحرج سريعة من أحــد أطراف الحجرة الى طرف آخر ، محدثة رنينا معدنيا عندما تصطدم بقوائم المنضدة ·

وقفز حسين ، وترنح ، وأمسك بجانبى السرير · ووقف لحظة معتدلا ، ويداه ممدودتان للاحـــتراس · وكان من الممكن ســماع

الأصوات ووقع الأقدام فى الجانب الآخر من العنبر . فوقف حسين جامدا لكى ينصت ودراعته الصوفية فوق رأسه . وأخيرا لبسها وارتدى سترته ، وضغط قبعته فوق رأسه ما أمكن حتى لا تطوح بها الريح .

وفى الممر قابل دوجايلو وهو يدفىء ظهره بالقرب من حيطان المطبخ الساخنة . وكانت ملابسه المصنوعة من المشمع معتمة من الماء ، والتصقت فوق جبهته خصلة من الشعر الرمادى المبتل . وكان يبدو مرتبكا ، كما لو كان قد ضبط وهو يصنع شيئا خاطئا .

فسأله حسين فى لهجة مودة : « ماذا بك » ؟ أتحاول ان تجفف نفسك ؟ لا فائدة من ذلك . فسوف تعود لتبتل مرة أخرى . ما أعجبها دورة ! اننا لا نحمل أية شحنة ، أليس كذلك ؟ »

فمضغ دوجايلو الكلام فى أسى وهو يختلس اليه النظر ، قائلا : « بلى ، ولكن انظر ماذا يحدث . اخرج الى الجسر ! »

وذهب حسين الى باب الخروج ، ولكن ريحا ثلجية عاتية لطمته على صدره فطوحت به الى الحائط . ومد يديه ثانية لئلا يصطدم بعمود الباب .

ووقف على الجسر ، وقد سد أذنيه صرير الرياح التى طوحت بأنفاسه بعيدا ، وأسالت الدموع من عينيه . ومن خلال دموعه رأى فى غير وضوح موجة ضخمة بيضاء ، ترتفع فوق حائط السفينة ، وتهبط مرتطمة بظهرها ، وتنزلق عليه كنهر له خرير . ثم ارتفعت موجة أخرى ، وأخذت تهز رأسها الكثيف ، ولكن الديربنت سحقتها تحت هيكلها ، ومرت فوقها ، ونفضت عنها الماء كما يصنع طائر هائل من طيور البحر .

وجاء شخصان من سطح الصوارى فى ثياب من المشمع الى حسين ، وكانا يمسكان بالدرابزين وأرجلهما منفرجة الواحدة عن

الاخرى . وقد تعرف فى أحدهما على شخصية كوتلنيكوف ، وفى الثانى على خروليف .

وصاح كوتلنيكوف وهو يقترب ، قائلا : « أين رئيس البحارة ؟» ونظر حسين فى انتباه الى وجهه محاولا أن يعرف السؤال ، فقال: « أين هو ؟ ذلك الجبان ؟ »

فأجابه حسين وهو يصيح بأعلى صوته ، مشيرا الى الممر : «دعك منه ، فقد نضح كل جسمه عرقا . حسن ، ربما استطعت أن أحل محله . ماذا هناك ؟ »

فصاح كوتلنيكوف قائلا : « ان الأمواج تطفو على المحرك ، فقد مزقت الغطاء . ولكن هذا من شأن عمال السفينـــة وليس من شأنك »

ولكن ذلك حرض حسينا ، وكان فى حاجة الى قليل من الرياضة قبل أن يذهب الى نوبة مراقبته . ولم تصادفهم ريح هوجاء كما صادفتهم هذه الريح كل يوم ، فلماذا هو يبقى فى حجرته ؟ ثم انه كان قد اعتـــاد زئير الرياح المصم للآذان . أما وجهـــه فكان ملتهبا . وسار جهة الجسر ، وتبعه كوتلنيكوف وهو ممسك بكتفه. وجاء خروليف خلفهما متبخترا فى مشيته ، يلقى نظرات الخوف على الماء الذى يدوم على ظهر السفينة أسفله . وصعدوا الى الجانب الايسر من سطح الصوارى حيث لم تكن الريح عاتية .

وقال حسين : « يبدو أننا سنتأخر . ما رأيك يا انستبا ؟ »

ــ اذن فقد استيقظت يا صديقى ، أليس كذلك ؟ اننا مضطرون الى الذهاب الى كراسنوفودسك ، ومن هناك الى ماخاش ــ كالا . وليس هناك من ينقذنا الآن » .

فقال حسين : « حسن ، أليس هـــذا عظيما ! ولكن ماذا عن

مباراتنا ؟ ان الأجماليا ما تزال على خطتها القديمة ، أليست كذلك ؟ »

- هذا لا يغير من الأمر شيئا ، فسوف نحصى الأطنان الميلية ، وبهذه الطريقة سيكون الامر بالنسبة لنا على مايرام .

وأومأ حسين برأسه ، ففى هذه الحال لم يكن هناك أهمية لذهابهم الى كراسنوفودسك أو الى أى مكان آخر . وأحس بالارتياح وقد فتح صدره للهواء . وكان قلقا لرغبته فى رؤية ما قد حدث للمحرك . ولكن كوتلينكوف تخلف ، واستحال وجهه فجأة الى اللون الاخضر ، وصنع برقبته وبفمه حركة كما لو كان يحاول أن يبتلع شيئا قد التصق بحلقه . ومال فوق الدرابزين ، وهو يتنفس فى صعوبة .

فقال خروليف وهو يضحك ضحكة استهزاء : « لقد ظل يتقيأ منذ الصباح ، ونثر ما فى جوفه فوق السفينة . مسكين ! » وكان كوتلنيكوف يبصق شيئا كثيفا مخاطيا ، وهو يتأوه ويسب ويلعن . وكان شعره المبعثر يتطاير مع الريح .

وصاح بحسين فى غضب ، قائلا : « امض فى طريقك . لماذا تقف عندك ؟ عليك اللعنة ! »

وكان البحارة الذين يقومون بنوبة المراقبة متجمعين فوق السفينة من أقصاها الى أقصاها ، وكان كازاتسكى يشرح لهم شيئا ، مشيرا الى ظهر الشحنة أسفلهم . وهناك رأى حسين المحرك الكهربائى سيىء الحظ وقد كشف عنه الغطاء تماما ، فراح يلمع من الماء . ولم تكن الأمواج ترتطم بمقدم السفينة فى قسوة بالغة ، بل قليلا ماكان راس موجة أبيض ينثر فوق حائط السفينة ويرسل الماء فى قنوات لها خرير فوق ظهر المركب المعتم اللامع ، والمصنوع من الصلب ، حيث تدور حول الأبواب الأرضية .

وكان كازاتسكى يصيح فى غضب قائلا : « يجب أن ينجز هذا

على مرحلتين ، الأولى احضار القماش الى هناك والقاؤه على المحرك، والثانية احكام شده وربطه بالحبل . ولو كنت أرتدي حذاء برقبة لأريتكم ذلك بنفسي ، ومع ذلك فاثنان كافيان لعمل ذلك ،وليكونا أنتما يا فومشكين ويا خروليف . »

وكان القماش الاحتياطي قريبا منهم فوق الجسر ، وكانت الحبال قد مرت خلال الأطواق . وانحنى حسين ، وأمسك بطرف الحبل .

فقال كازاتسكي مبتسما : « أوه ، ان العملاق قدو صل ،وسوف يريكمْ كيف تصنعون ! »

ولملم حسين القماش ، ولف الحبل .

ـ حسن ، سوف أحاول ، وسوف آخذ خروليف معي ، فسوف نستطيع معا أن نغطيه . »

فقال كازاتسكي سريعا : « هذا صواب » . ومد يده نحــــو القماش كما لو كان يقصد المســاعدة . وأضاف : « قلت لكم انها مسألة بسيطة ! »

فغمغم خروليف وهو ينظر حوله في ابتئاس قائلا : « اثنان منا لا يكفيان ، فنحن في حاجة الى رفيق آخر . »

فقال حسين وهو يطلق ضحكة مدوية : « الى عشرة آخرين ! هل حدث لك (فتق) أم ماذا ؟ »

وجذبا القماش الى السلم المؤدى الى ظهر السفينة ، ونزل حسين ثلاث درجات وألقى به فوق كتفه . وأطل فولوديا ماكاروف،وصاح بحسين في غضب قائلا :

ـ ألا يستطيعون هم ان يصنعوا ذلك بأنفسهم ! دعهم وشأنهم يا حسين ! »

فاستدار حسين وابتسم وهو يجيبه قائلا : « اننى أعاون رفاقى، فلماذا لا تقدم المعونة حين تطلب منك ؟ »

ودومت تحت قدميه جداول مزبدة من الماء ، وكان درابزين السلم يتأرجح . وكان فى استطاعته أن يرى وجه خروليف الشاحب يتخبط بالقرب منه ، وأن يرى عينيه تحدقان ، وأسنانه تعض شفته السفلى . ثم لاح ظهر السفينة ساطعا .

وقال خروليف متوسلا فى صوت هلوع : « يا مصطفى ،احملنى جيدا اذا حدث شيء . أرجوك . ان كل شيء يترنح أمامى ! »

فكان جواب حسين الساخر : « سوف أحملك تماما ، من رجلك، أو فوق ذلك قليلا . ها ـ ها ! »

وجريا على ظهر السفينة المبتل ، والقيا بالقماش فوق المحرك . وجثم حسين لكى يمضى أطراف الحبل خلال مزالج المحرك .

وغمغم خروليف وهو يجذب الحبـــل قائلا : « أسرع ! أسرع يا مصطفى ! »

ثم هوى فجأة . ولم يسمع حسين سوى وقع قدم وصيحة ولم يرفع رأسه فى الحـال ، بل ربط العقدة فى احكام أولا . ثم رأى موجة شامخة كالزجاجة الخضراء ، ولها رأس كاللبن الحليب. رآها ترتفع عاليا فوق جانب السفينة وهى تدوم وتحدث حفيفـــا بصورة مهددة . وأسند حسين جسمه كله الى المحرك ، وطوق العمود بذراعيه . وفى اللحظة الاخيرة رأى فى وضوح كاف يديه وأظافره التى كانت قد ابيضت نتيجة للجهد الذى بذله فى تعلقه بالعمود ، ونسيج القماش الخشن بما فيه من بقع زيتيـــة مائلة للاحمرار .

ثم بدا له كأن السماء الثلجية قد هبطت عليه ، فأحس بدوى

مؤذ فى رأسه ، وأطبق شيء ما عليه ، وجذبه ، ولوى ذراعيه ، وطوح به على ظهر السفينة . وركز كل قواه ، وقد ذهل وأوشك أن يفقد وعيه ، ركزها فى يديه ، ولم يبسطهما الى ان اندفع فوقه الماء ، وانجلى ، دون أن يترك سوى زبد له خرير على ظهر السفينة . ثم حاول أن ينهض ، وشرع يجرى فى الحال ، دون أن ينطوى على شعور ما . وكان الجميع من فوق يصيح كل منهم بشيء ، ولكن صيحاتهم كانت تبدو خافتة كطنين بعوضة .

وارتطمت الموجة الثانية برجليه بعد أن أمسك بدرابزين السلم . وانزلق عليه فسقط على ركبتيه ، ولكنه عاد فنهض فى الحال ، وشرع يصعد الدرجات . ولم يترنح ، حتى وصل الى الجسر ، ثم استند الى الدرابزين ، وبصق سيلا من الماء الملحى .

ورأى أمامه وجه فولوديا المفزع ، وعينى كازاتسكى الباسمتين فى رضا . وسمع خروليف يقول لبعضهم :

لقد ناديته ، ولكنه بقى هناك كالتمثال ، يكاد لا يتحرك ! » وقال كازاتسكى ملاحظا فى جفوة : « انك غاية فى الحمق ، فقد كان فى استطاعتك أن تغتسل فوق السفينة على هذا النحو . »

ونظر حسين الى أسفل ، ورأى القماش المبتل وقد أحكم وضعه فوق المحرك . وكان يشعر ببرد قارس ، وبدت أسـنانه تصطك على نحو ما من تلقاء نفسها . ووضع فولوديا ذراعه حول خصره وضم اليه ظهره فى لطف . ثم قال فى لهجة لاذعة حين التفت الى أولئك المحيطين به :

ـ لو لم يكن هو لكنتم ما زلتم هذه الأمسية تناقشون كيف يتم ذلك . أف لكم من شرذمة ! »

وأمضى بازوف مناوبته الليلة فى عنبر المحركات . وكان يشعر برغبة قوية فى النوم ، ولكن العاصفة اشتدت فى الصباح ولم يجد فرصة للنوم . ولحظ فجأة أن الماء الخارج من أنابيب الاسطوانة ، كان ساخنا ، فقــد جسه فلسع أصابعــه . وتبين له أنه كانت تحدث فترات انقطاع عندما تكون المضخات عاجزة عن ضغط الماء من البحر الى الداخل بسبب اضطراب السفينة الشديد ، فكــان من اللازم تنظيم الدورة .

وازدادت العاصفة وحشية قرب منتصف النهار ، فكانت الأمواج تطوح بالسفينة فى عنف حتى أن اللوالب كانت فى بعض الاحيان تظهر خارج الماء . وكانت ابر المؤشرات تهتز ، وضجيج الآلات تتغير نغمته باستمرار . وصار من الخطر الابقاء على سرعة السفينة ، ومع ذلك فقد كان بازوف يأبى أن يقلل من دورات المحركات . وصعد عدة مرات فوق ظهر السفينة لكى يلقى نظرة على الطقس ، وفى هذه الحال كان مساعده زادروف يبقى بالقرب من المحركات .وكان ثائر الاعصاب ، ويظل ينقل نظره بين المؤشرات والباب الذى قد يعود منه بازوف من فوقه . وأشعل سيجارة بعد أخرى ، ولكن الريح ظلت تهب ، دافعة صوب الجنوب جبالا خضراء من الماء تعلوها قنن زبدية متفاوتة الحجم . وتوالى هبوط المطر المنحدر الغزير ، وحجبت السحب المنخفضة خط الأفق . ودق الجرس من مركز الربان ، فمضى بازوف الى أنبوبة الكلام وسمع صوت القبطان وهو يسأل : « كيف الحال فى أسفل ؟ »

- كل شيء منتظم ، ولكن الموج يكشف اللوالب ، وسيلزمنا أن نهدىء من سرعتنا .

- أتظن ذلك ؟ حسن ، فلتهدىء من سرعة المحركات

- أجل ! أجل فلنهدىء من سرعة المحركات .

وانتظر بازوف دقة الجرس الختامية ، ولكنه بعد فترة سكون قصيرة سمع فى الانبوبة صوتا مترددا يقول :

- انتظر من فضلك .. فربما استطعنا أن نستمر قليلا

وأغلق بازوف جهاز الاستقبال دون بقية الكلام ، وذهب الى واجهة الآلة ، وأدار الطارتين كلتيهما . وكان زادوروف نعسان ، يجلس القرفصاء على قدميه ، ويتمايل كالشيخ المجذوب . وتمايلت السفينة فسقط على جانبه . ثم نهض ومسح فخذه التى وقع عليها ، وشرع يسب ويلعن وهو فى حالة نعاس . وكان الجو فى عنبر المحركات خانقا أكثر من المعتاد ، أو هكذا بدا الأمر لبازوف على الأقل ، وأحس بميل للنوم لا يمكن مقاومتـــه . ولم تمض لحظة حتى استولت عليه تقريبا سنة من النوم وهـــو واقف أمام لوحة الادارة وعيناه مفتوحتان . وخيل اليه أنه فى بيته ، وان موزيا كانت تراقصه فى لطف ورقة وقد وضعت ذراعيها على كتفيه ، ثم هى تجذبه اليها حينا ، وتدفعه بعيدا حينا آخر . وكان ذلك معناه غاية فى الوضوح ، فقد كانت غاضبة منه لسبب ما . ولكنها لم تعرف ماذا تقول له عندما ظهر فجأة . وكان البعض يدق على غطاء وعاء معدنى محدثا أصواتا كما لو كانت أصوات العجين . وهزت موزيا رأسها فى صورة مشينة . وقالت فى غضب : « نوبة العمل الثالثة . نوبة العمل الثالثة ليس هذا صوابا يا ساشا » . وهنا انتفض ، وفتح عينيه .

وكان حسين يصيح مبتسما : « قلت لك ان نوبة العمل الثالثة

قد انتهت وأنت ما تزال تقف عندك ! انك تشفى بنفسك على الهلاك! آه ما أعجبك ! لقد حدث لى حادث . أتسمعنى ؟ »

فكرر بازوف كلمته وهو يرمش بعينيه : « حادث ؟ هيه ، وكيف حال الطقس ؟ هل ستنقشع العاصفة وشيكا ؟ »

— « الطقس ؟ لقد كانت العاصفة تهب فى قوة بلغت احدى عشرة نقطة . وهذا ما قالته النشرة الجوية . ياله من يوم راحة ساحر حقا ! وقد وقع لى حادث ، وأعرف أنك ستثور بى ، فأنا أعرفك جيدا . »

وكان مصطفى غاية فى النشاط ، وكانت قبعته قد طوحت بها الأمواج ، فاستعار منديلا من فيرا وربط به رأسه . وحكى كيف غطاه الموج على ظهر السفينة ، وحملق بعينيه لكى يجعل قصتـه مفزعة ، ولكن كان من الواضح أن ذاكرته لم تكن تحمل اليه أى فزع . ثم نظر الى المؤشرات ، وذهب لكى يفحص تشحيم الآلات ، ويجس درجة حرارة الماء العادم . ووقف بازوف أمام لوح الادارة وراقبه لمدة ، ثم نعس . وعادت موزيا فلاحت له من ركن مظلم ، وبدت كأنها تبعث بحرارة هائلة . وخفضت أهدابها وأحنت رأسها كما لو كانت خجلة من أنها هى التى سعت اليه . وخشى أن تعود فتذهب الى الظلام ، فأمسك بيدها . فسألته : « أأنت سعيد لأنى معك ؟ اذن فسأبقى . أتريدنى أن أبقى ؟ » وبدا له أن هذا هو مايريده ، فأومأ برأسه . ولكنها انفجرت باكية فجأة ، وقالت فى غضب : « لقد احترقت فى العام الماضى ناقلة البترول بارتزان . وأنت شيوعى ، فقل لى أليس جريمة أن يبعثوا بكمالى كراسنوفودسك؟» وأراد أن يجيب عن سؤالها ، ولكنها كفت عن البكاء ، وراحت تجذبه اليها من يده . وفى عينيها لاح له التعبير المألوف القديم الذى ينم عن الكآبة والحزن ، كذلك الذى يبدو من كلب مريض .

وقال وهو يخلص يده منها : « أظن أنه من الأفضل لك أن تذهبي » • ثم فتح عينيه •

وكان ياكوبوف البراد يقف أمامه ، مادا اليه صحيفة عليها خبر وفطير محشو • ونظر بازوف في ساعته فوجد أن وقت العشاء كان قد حان ، وأحس فجأة بالجوع •

وسأله وهو في حيرة ، وقد بدأ يأكل : « كيف فكرت في هذا، فأنا نفسي لم أعرف أنني كنت جوعان • يالك من رفيق طيب ! »

ولم يذهب ياكوبوف ، بل وقف هناك يبتسم وهو يراقب بازوف أثناء تناوله الطعام • وكانت عيناه تشعان بالاخلاص والطيبة ، وتنمان عن شيء من السرور • وكانت بالخارج ضجة تشبه الضرب على الدف • كانت أشباح الآلات تتأرجح ، وكان الماء يبقبق تحت رقائق الصلب • أما في أعلى فقد كان هناك شيء يسقط ، يشبه المطر الغزير • ونظر ياكوبوف حوله في قلق ، ولكنه حين رأى بازوف يستمر في أكله استعاد في الحال هدوءه •

وقال بازوف وهو يعيد اليه الصحيفة : « حسن ، وشكرا لك • هل من جديد على ظهر السفينة ؟ »

— كل شيء كما كان من قبل • ويقولون ان الرياح وصلت احدى عشرة نقطة • وقد وصلت المياه الى الممر السفلي والى حجرة الخطاف ، لأنه لم يكن لدينا الوقت لكي نحكم اغلاق الأبواب • وقد انزلق عمال السفينة على أقدامهم ، وما زال كوتلنيكوف يعاني من دوار البحر ، فوجهه مخضر ، وهو يقول ان قلبه يتفطر • وقد جئت له بشراب حلو يمتصه ، ولكنه لم يأخذه • وطبيعي أن بعض الرفاق لا يتحملون العاصفة • أما بالنسبة لي فانها لا تهمني ، بل انني أحبها ، فهي عاصفة رائعة ، وهي كذلك مفزعة قليلا • وكما تعرف، يشعر الانسان فيها أنه غاية في الضآلة • »

فسأله بازوف وعلى فمه ابتسامة رقيقة : « مفزعة ؟ » ثم أضاف « انها ليست ذلك الشيء الردىء » ·

واستند الى لوحة المراقبة مرة أخرى ، وترك رأسه يتدلى · وعندما استولى عليه النوم خطرت لعقله فكرة سارة : ياللراحة ! ·

وكان نومه هذه المرة خفيفا لا راحة فيه ، فقد ظل طوال الوقت على وعى بأنه نائم ، وأنه كان فى عنبر المحركات · وعندما لاحت موزيا مرة أخرى استولى عليه الغضب ، وقال فى نفسه : « هذا ليس حسنا · » ثم أضاف : « لا بد أن أضع حدا لهذا » · وبذل جهدا فى أن يستيقظ ، ولكنه لم يستطع ·

ولم تكن موزيا وحدها ، بل كان يتدلى حولها مهندسون وفنيون من الترسانة ، وكانوا يبتسمون فى أدب مصطنع ، ويساعدونها فى لبس حذائها الذى ظلت تاركة له دون لبس ، مهملة لشأنه · ولم يلحظ أحد منهم بازوف · ويحتمل أنهم لم يروه لأنه وقف بلا حراك · وكان ليومان من بينهم ، والشيء المميز فى الأمر هو أنه كان يحدث مزيدا من الجلبة حولها أكثر من الآخرين جميعا · وهو ربما انحنى قريبا من موزيا ونظر الى عينيها فى تزلف مقرف ·

أما موزيا فقد كانت تتصرف كما كانت تتصرف دائما مع الزوار· وكانت صلفة وواثقة من نفسها ، وكانت تضحك بصوت مرتفع ، وتتنفس فى تنهدات سريعة وقصيرة · ولكن بازوف أمكنه أن يرى أنها كانت مرحة قطعا ، فقد عرفت تماما أنه كان حاضرا ، كل ما فى الأمر أنها كانت تتظاهر بأنها لا تراه · وذكر بعض الأشخاص اسمه ، ولكنها اكتفت بأن توجه نظرة سريعة اليه وتهز رأسها · وقالت : « أوه ، اننى لا أدرى أين هو ، ولم أره منذ وقت بعيد ! »· ولم تكن تحب الكذب ، فكان من الصعب عليها أن تبتسم وهى تكذب · وكان فى استطاعة بازوف أن يرى ذلك تماما · وقد آذاه

ذلك بالقدر الذى يحدث لو أنه كان قد أهين هو نفسه . ثم تذكر فجأة أن كل ذلك لم يكن سوى حلم ، وفتح عينيه .

وكان فولوديا يهبط السلم ، وهو يلوح له . واستطاع بازوف أن يرى من النظرة المرتسمة فى وجهه أن شيئا قد حدث .

وصاح فولوديا وهو يتنهد : « لحظة من فضلك . ألا يمكنك أن تصعد معى الى ظهر السفينة ، يبدو أننى قد خلطت بين ... »

فسأله بازوف وهو يمسح عينيه : « لماذا ؟ ماذا حدث ؟ » ثم أضاف : « هدىء من روعك يا فولوديا ؟ »

فقال فولوديا متظاهرا : « اننى هادىء ، حقيقة اننى هادىء ، ولكننى وضعت نفسى فى مأزق حرج . ان كوتلنيكوف مريض بحق، وهو راقد هناك وعيناه زائغتان طوال الوقت . ويبدو أنهم جميعا قد فقدوا صوابهم ، وأنا الشخص الوحيد ... »

فسأله بازوف فى غضب : « اسمع ، ماهو المشكل الآن ؟ اذا كان الأمر تافها فلن أحضر »

وأمسك فولوديا بكمه وجذبه ناحية السلم .

- تعال ، أرجوك ! فقد حدث أولا أن انقصم العمود اللاقط للصوت، فقد جاءت موجة كبيرة ، واهتز هيكل السفينة ، فصارت الصوارى هكذا « - وباعد بين أصبعين فى يده - » وانتفض العمود اللاقط للصوت ، ثم انقصم . وكان على أن أظل على اتصال بكراسنوفودسك وكل ما يتبع ذلك . ولو حدث أى شىء لهبطنا الى القاع دون أن يعرف أحد . ولهذا حاولت أن أجد مخرجا ، فرفعت سلكا ، ولكن لم يكن هناك أى عازل للكهرباء . وقد شرعت أطلب كراسنوفودسك، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسمعونى . ولهذا فقد زدت من شد السلك لكى أحصل على قوة أكبر ، وكان من اللازم أن أصنع هذا ، فحدث

شدخ ، وتصاعدت رائحة احتراق ، وكانت هذه هى النهاية ٠ وفككت المحرك ، فوجدت أن العازل قد احترق ٠ والآن لست أستطيع أن أفكر فى شىء آخر يمكننى عمله ٠ »

فقال بازوف وهو يتبع فولوديا أيضا : « ولهذا جئت الى ، كأننى كهربائى » ٠ ثم أردف : وماذا تنتظر منى أن أصنع ؟ »

وحين وصل الى الجسر جمع بين كتفيه وأدار ظهره للريح ٠ وكان الجو قد صار شديد العتمة ، وكانت سحب العاصفة متراكمة قريبا فوق الرؤوس وشكلها يتغير باستمرار ٠ ولمعت قمم الأمواج المزبدة فى شبه الظلام ٠ واندفعت جداول ملتهبة من الماء فوق ظهر الشبحنة، وحكت الأنوار فى أعالى الصوارى دوائر فسيحة فى مكان ما فى أعلى، الغالب أنها فى السحب ٠

وفى حجرة اللاسلكى كان برتسنكو صغير الكهربائيين منسطحا على كرسى فى سحابة من الدخان ، يلصق فى هدوء سيجارة ملفوفة باليد ٠ وعلى الأرض كانت أجزاء من المحرك العارى وأجزاء من السلك المحترق ٠ وكانت المسامير الحديدية تتدحرج هنا وهناك مع اندفاع السفينة ٠

وقال برتسنكو وهو يضرب برجله مسمارا كان قد تدحرج على الأرضية : « انظر أى ورطة قد أوقعنا فيها عامل اللاسلكى ! انها وراء التصور ! أف لهذا ! » ٠

فصاح فولوديا فى صوت متهدج : « اغرب من هنا ٠ انك دائما تثير أعصابى بطريقة ثرثرتك عندما يحدث خطأ ما ! »

واستدار ونظر فى خجل الى وجه بازوف ٠

ــ ماذا يجب على أن أصنع الآن يا ألكسندر ايفانوفتش ؟ »

فقال بازوف : « لست أدرى » ثم أضاف : « وما ذلك الشىء الذى أفسدته ؟ أهو المولد الكهربائى ؟»

فقال فولوديا فى صوت حزين : «نعم» . وتحقق فجأةمن أن كبير المهندسين لم يكن يعرف شيئاعناللاسلكى ولا يستطيع أن يساعده.» فابتعد عنه فى الحال ، وجلس القرفصاء ، وراح يلمس المحــــرك بأصابعه فى تعاسة .

فسأله بازوف : « اذن فهذا ما يغذى جهازك اللاسلكى . حسن الا يمكن أن يستبدل به شىء آخر ؟ كبطارية مثلا ؟»

ــ ان قوة البطاريات ثمانون فلتا ، وقوة المحــرك ألف ومئتان . فهذا شىء مضحك . » هكذا قال فولوديا وهو يهز كتفيه استخفافا . ثم أضاف فى لهجة ابتئاس : « تستطيع أنت أن تذهبفهمينتظرونك. وسوف أدبر الأمر أنا بنفسى على نحو ما . »

ــ فلينتظروا . أهى ألف ومئتان ؟ أجل ، طبعا . لقد قلت أنت نفسك أنك قد تغير قوة الشد ، وعندئذ هل يمكن أن يعمل جهازك اللاسلكى على قوة أقل ؟ لنقل ستمائة فلت مثلا ؟ »

ــ ربما كان ذلك فلست أدرى .

ــ حسن ، يجب علينا أن نحاول ، فان لدينا بطاريات . كمعددها يا برتسنكو ؟

ــ ثمان أو تسع . لا ، بل ثمان .

ــ حسن فان ثمانين فلتا مضروبة فى ثمانى مرات ينتج عنهـا ستمائة وأربعون فلتا . هيا يا برتسنكو فخذ بعضا من عمالالسفينة وأحضر البطاريات .

وصعد فولوديا نظره فى بازوف وفمه مفتوح . وسحق برتسنكو سيجارته تحت قدميه وخرج .

ــ اذن فأنت تريد أن تغذى جهاز اللاسلكى بتلك البطاريات ؟ هكذا سأل فولوديا فى دهشة . ثم أضاف : « انها لا تصلح » .

وصفر بازوف وهو يفحص صمامات جهاز اللاسلكى اللامعة خلال فتحة جهاز الارسال ٠

وقال فى لهجة انبهار : « شىء رائع ٠ » ثم أضاف : « من المؤكد أنه رائع - فلماذا اذن لايصلح ؟ »

- حسن ، ليس هناك من يصنع هذا ٠ وليس هناك من سمع بشىء كهذا ٠ فالبطاريات - قبل كل شىء - لن تمكث وقتا طويلا كافيا ٠

- ولكننا لا نحتاج اليها مدة طويلة ، بل مدة رحلة واحدة ، الى أن يتم اصلاح المولد الكهربائى ٠ فلا تبتئس هكذا يا فولوديا ٠

ولم يعد بازوف يشعر بالميل الى النوم ، وفحص جهاز الارسال من كل الجوانب ، ثم نظر فى الممر ٠

وسأل فى ضجر : « فيم يتلكأون ؟ » ثم أضاف : « اذهب وحركهم يا فولوديا ٠ »

وذهب عامل اللاسلكى فى بطء الى الباب ٠

وقال فى كآبة : « لن يتسع المكان لهم هنا كذلك » ثم أضاف : « يا للفكرة التى بدت لك ! »

فقال بازوف : « هيا ، أسرع »

وفيما هم يحضرون البطاريات وجد وقتا كافيا لأن يفتح ظهر الجهاز ويلقى بنظرة فى داخله ٠ فرأى الصمامات ، والاسلاك اللولوبية الكثيفة والمكثفات اللامعة (وقد لمسها فى حرص) ، وقرر أن يجعل فولوديا يشرح له كل ذلك بعد العاصفة ٠

وكانت البطاريات ضخمة وثقيلة ٠ ولم يكد المكان يتسع لها على

أرضية حجرة اللاسلكي الصغيرة · وعنـــدما مالت السفينة انتشر الحامض على الأرضية ·

وهمهم فولوديا قائلا : « لقد غصت بها الحجرة كلها ، وترك الحامض ثقوبا فى ملابسهم ، فلا فائدة من هذا كله · »

وجلس برتسنكو القرفصاء لكي يربط الأســـلاك ، وهو يخرج لسانه مع ما يبذل من المجهود · وفجأة حدثت له صدمة كهربائية جعلته يقفز ويعض لسانه · واستولى عليه الغضب ·

وقال مزمجرا لفولوديا : « لمـــاذا أنت واقف فى مكانك ؟ » ، ثم أضاف : « اشترك معنا يا ابن العاهرة ! »

وكان عامل اللاسلكي على وشك أن يجلس بالقرب من البطاريات، ولكنه عاد فنهض ·

ـ يا الكسندر ايفانوفتش ، انها لا تصلح ·

فسأله بازوف وهو يلتفت حوله : « ما العمل الآن ؟ »

ـ أجل ، فليس لدينا سلك هوائي لاقط · وقـــد قمت بتثبيت السلك مباشرة على القوائم لأنه ليس لدينا أى عازل كهربائى · ولهذا فان كل مجهوداتنا ـ كما ترى ـ لا جدوى منها ·

ـ « ألا يمكننا أن نستعيض عن العوازل بشيء آخر ؟ » هكذا سأل بازوف ، وخوص عينيه ونظر فى توتر الى عامل اللاسلكي ·

وكان هذا على وشك أن يتمتم قائلا : « لقد استعضنا عن نصف الجهاز حتى الآن » ، ولكن عينيه التقتا بعينى بازوف اللتين كانتا قد صارتا أكثر حدة ، ولم يقل شيئا ·

وهمهم بازوف فى ضجر : « عليه اللعنة ! لقد استولى عليه الخور، هيا بنا يا برتسنكو ، فلنذهب ولنبحث عن حل · »

وقال برتسنكو مقترحا فى نغمة شك : « أيمكن أن تصلح زجاجات نارزان ؟ (١) ، والزجاج عازل جيد ، أليس كذلك ؟ »

- انه كذلك ! فهات بعض الزجاجات .

وفجأة صار وجه فولوديا أحمر بلون جرادة البحر ، وشرع يحدث ضجيجا ، ثم اندفع فى الممر وراقبه بازوف وهو يذهب ، متجهما ، وغمز برتسنكو عينه فى خبث ، وأخرج كيس طباقه .

وعاد عامل اللاسلكى بكومة من الزجاجات الفارغة ، وبدأ يعمل دون أن ينظر الى أحد وربط الزجاجات بعضها مع بعض ، وراح يعمل فى همة حتى ان حبات العرق برزت على صدغيه وفى جبهته . ثم لف السلك وخرج سريعا ، ومن حوله الزجاجات تصلصل .

وقال بازوف مقترحا : « هيا لنذهب ولنر ، فانه فى حالة تجعله يتسلق الى رأس الصارى نفسه الآن . وهو ربما سقط ، فمن يدرى ؟ »

وكان الملاحون فى ملابسهم المصنوعة من المشمع يقفون على مركز الربان تحت النور ، ويصعدون النظر نحو عامل اللاسلكى الذى كان يتعلق بالسلم الحلزونى ، ويتدلى فوق ظهر السفينة كلما تمايلت . وكان يمسك بالقوائم فى تشنج ، محاولا أن يربط بها حبل الزجاجات الثقيل . وأخذ برتسنكو طرف السلك ، وتسلق الى سطح الحجرة ، وثبته فى المدخل . ثم جلس على السطح ، ورجلاه فوق الجانب ، وشرع يصعد النظر كذلك .

وصاح به بازوف : « احترس يا فولوديا . اربطه بعقدة بسيطة - هيه ، انك ستسقط . »

---

(١) نارزان : مياه معدنية من القوقاز .

وفى شريط الضوء الذهبى الذى كان ينبعث من المصباح كانت جداول من الماء تنساب من وقت لآخر فوق ظهر السفينة ، وتتدفق الى البحر . وكانت الريح تهب أحيانا فى قوة ، فتنتثر الرشاش فى وجوه الرجال ، وتخمد قوتها أحيانا فتدير حول أرجلهم رذاذا لطيفا، واندفعت السفينة فى حرص وهى تنفض الزبد عنهـــا ، ثم شقت طريقها فى بطء .

وقال شخص ما بالقرب من بازوف : «أيها الرفاق ، ان الريح بدأت تكف » ، ثم أضاف : « ليتنا نجد دفئا ! »

وكان الصوت رطبا وأجش ، وقد تحدث فى لهجة متعبة . وفجأة أحس بازوف أنه كان هو كذلك قد بلغ به التعب أقصاه ، وأنه اذا لم يوجد ما يشغله فانه سيستغرق فى نوم عميق كالموت . ولكن فولوديا كان قد نزل ، وذهب الى النور وهو يمص اصبعا مكشوطا .

وقال وهو يأخذ نفسه : « لقد وضعته فى مكان من العلو بما يكفى ويحتمل أنك تستطيع رؤيته من هنا . انظر ! »

وعادوا الى الحجرة ، ولبس عامل اللاسلكى سماعتيه ، وضغط على المحول ، وبدأ فى طرقاته .



وقال فى انفعال سريع : « ان التيار على ما يرام » ، واستدار الى بازوف كمـــا لو كان قـــد غضب من أن المهندس لم يقل شيئا ، ولم يظهر أى سرور . ثم أضاف : « الا تسمع ؟ قلت لك أن الجهاز يعمل ؟ »

فقال بازوف : « حسن ، فالآن اطلب كراسنوفودسك » .

وأنصت الى طرقات المفتاح ، واذا بالشك الأول يخامره ، وتخيل نوعا من الخيوط الخضراء المرتعشة ، ممتدة من حجرة اللاسلكي فى كل اتجاه ، محلقة فوق البحر كالسنة من النور ، ولكنها تسقط فى الماء قبل أن تصل الى الساحل . ثم راح يفكر فى نفسه فى اصرار : « ولكننا يجب أن نتمكن من الاتصال كذلك » . ثم تلاشت الخيوط الخضراء .

وظل فولوديا يدق مدة طـــويلة ، وكان كوعه يرتجف ، وكانت خصلة الشعر على رأسه تهتز صاعدة هابطة . ثم أدار مفتاح جهـاز الاستقبال ، واتخذ وجهه ذلك التعبير الحاد المركز الذى يتخذه دائما عندما كان يتلقى رسالة فى جهاز مورس اللاسلكى . وهسهس مكبر الصوت ، ثم صفر وقرقع عاليا كما تقرقع حبات المسبحة الصغيرة على الزجاج .

وجاء برتسنكو بخطوات صاخبة ، وتوقف عند المدخل تماما ، ثم دفع الباب ففتحه قليلا فى غير ضجة . وصمت مكبر الصوت .

وصاح فولوديا ووجهه يتهلل بشرا : « مرحى ! انهم يقولون انهم يكادون لا يسمعون . ليتهم يعرفون بأى شيء نحن نعمل . هل أخبرهم بذلك ، لمجرد المزاح ؟ انهم لن يصدقونى ! »

وقال برتسنكو فى غيظ : « لقد قلت انه لن يصلح . » ثم أضاف : « ما أكثر ما تعرف ! »

وخرج بازوف الى سطح الصوارى ، وكانت قدماه ثقيلتان كالصلب وابتلع الهواء البارد ، وحين رفع رأسه رأى خلال ثغرة فى السحب شقة صافية من السماء تتلألأ فيها النجوم . وكانت الريح قد أطلقت كل قوتها العارمة وصارت تهب فى لفحات خفيفـــة . وفى بعض

الأحيان كان الهدوء يسود ، فيمكن سماع طنين الآلات ، وخطوات الملاح القائم بالمراقبة على حجرة موجه السفينة ، فى وضوح ٠

وأخذ بازوف يتفكر فى نفسه : « ليتنى أستطيع أن أدخل ، وأن أخلع ملابسى ، وأن أدخل فى الفراش ! ولكن لا ، فان خلع ملابسى قد يستغرق وقتا طويلا جدا ٠ يكفى أن أخلع حذائى فقط ٠ » وكانت تطفو أمام عينيه نقط سوداء ، وأحس بنفسه يترنح ويهبط شيئا فشيئا ٠ وكان لابد له فى ذلك الوقت من أن ينام قليلا ٠ حقيقة كان لا بد له من النوم ٠ ولكن ليلق بنظرة على الآلات ٠

واندفع شخص ما على سطح الصوارى ، واصطدم به فى الظلام ٠

- « يا ألكسندر ايفانوفتش ، لقد كنت أبحث عنك فى كل مكان ! » هكذا قال كوزوف السواق وهو يمسك بزرار فى سترة بازوف ٠ ثم أضاف : « لقد حدث شىء من الخلل فى المحرك المساعد ٠ فقد حدث خلل فى منظم الوقود ، فأخذ المحرك يدور كالمجنون ، وسيتهشم فى أى لحظة ٠ وهناك زادورف يهذى ولا يكف عن الزمجرة فى وجهى وتهديدى بتقديمى للمحاكمة ، كما لو كانت الغلطة غلطتى ٠ أرجوك أن تأتى يا ألكسندر ايفانوفتش ٠ »

وفى الطريق سأله بازوف : « أتقول ان المنظم قد تحطم ؟ » ثم أضاف : « ولكن لماذا لم يوقف المهندس المحرك ؟ يا للكارثة المطبقة ! حسن ٠ ايقظ الكهربائيين وكبير السواقين لنوبة العمل الثانية ، وكن لطيفا ! »

- ان مصطفى قد فرغ لتوه من نوبة عمله يا ألكسندر ايفانوفتش ! »

- اصنع ما أقوله لك ! وقل للكهربائيين أن يحولوا العمل الى اضاءة الطوارىء ، وخفف من سرعة المحرك ، وايقظ حسينا وياكوبوف

البراد كذلك ، ولا تبد مضطربا ، فسوف نصلحه سريعا .

- مرحى ! مرحى !

وقال بازوف لنفسه وهو ينزل الى عنبر المحركات : « نظام فاسد » ثم أضاف : « ان المهندس القائم بالعمل خائف من الآلات ، فأعصابه تثور ، ويصرخ فى وجه السواقين ، والسواقون يطوفون بالسفينة يبحثون عن كبير المهندسين . نظام فاسد ، وقواد فاسدون كذلك . الحقيقة اننى منظم سىء ، وهذا هو السبب فى انهم لا يستطيعون عمل شىء بدونى ! »

ولم يعد يشعر بالتعب ، وكانت تفور فى نفسه ثورة عارمة ضد المهندس القائم بالعمل ، وضد السواقين ، وضد نفسه ، جعلته فظا غليظا يثير فى وجوه تابعيه شعورا بالخوف والعداوة .

ووقف مصطفى حسين عند باب عنبر المحركات ، ونصفه العلوى عريان ، وعلى رأسه منديل امرأة . وكان يتمطى ، ويمسح عينيه ، ويبتسم فى نعاس .

فقال له بازوف وهو ينظر اليه وعلى وجهه تعبير غريب : «تحرك» . ثم أضاف : « تستطيع أن تنام فيما بعد . لماذا تنتظر ، فى حين أن انهيارا قد حدث فى عنبر المحركات ؟ »

فقال حسين وهو ما زال يبتسم : « من أجل خاطرك » ثم أضاف : « لقد كنت هنا من قبل وأوقفت المحرك ، وفحصته . وقد تحطم المنظم ، تماما كما خطر لى . وسنشرع الآن فى اصلاحه . ولكن ما الفكرة فى الصراخ فى وجهى هكذا ؟ يا لك من رفيق شرير ! »

فقال بازوف متلعثما وقد احمر وجهه : « ولكن متى صنعت كل هذا ؟ » ثم أضاف : « أتقول انك قد بدأت تصلحه ؟ حسن ، حسن ! »

ـ لقد نادونى منذ وقت . ولكن أتدرى الحقيقة ؟ انه ينبغى عليك أن تذهب لتنام ، فأنت لا تستطيع أن تستمر ثمانيا وأربعين ساعة دون نوم . انظر ، انك تثور فى وجوه الناس كما هو ظاهر . »

فقال بازوف ، وعلى فمه ابتسامة ارتباك : « لا تهتم لشىء من هذا ، انها تلك الرياح العاصفة ! »

ـ لست غاضبا ، ولكن اذهب الى الفراش أيضا ولا تتدخل ، فالرفاق العظام فى طريقهم وقد قلت أنت ذلك .

ـ مرحى ! انك اذن تطردنى ، أليس كذلك ؟ صواب ما ترى ، وسوف أذهب . ولكن أرجوك ألا تحدث أى ارتباك . أتعدنى يا مصطفى ؟

ـ لا تقلق بالك ..

ـ حسن ، طاب مساؤك يا مصطفى !

ـ طاب مساؤك ..

ـ « فى هذه المرة يجب أن أذهب الى الفراش » ـ هكذا قال بازوف لنفسه وهو يمر فوق الجسر . ثم أضاف : « انهم لم يكونوا فى انتظارى على كل حال ، وهم يستطيعون أن يعملوا بدونى . ان التنظيم ليس على ذلك النحو من السوء كذلك . فقد سبق لهم أن أوقفوا المحرك ، واكتشفوا الخلل ، وأعدوا العدة لاصلاحه . ولم يكن فى وسعى أن أصنع هذا بنفسى وبهذه السرعة . ان بين الرفاق أفرادا صالحين جدا ، مثل حسين ، وهم مجتمعون أفضل بكثير من أى واحد على حدة ، لأنهم يكمل الواحد منهم الآخر . فكيف خطرت لى تلك الأفكار السخيفة عندما جئت الى هنا ؟ وكيف كان يتسنى لى أن أكون رأيا على أى حال ؟ ، ان ذلك كان من أثر عدم النوم والعاصفة لا غير . يا لتلك العاصفة ! »



جزيرة شيشن

- ١ -

كان لزيت كراسنوفودسك رائحة خادعة غريبة ، فقد مد دوجايلو أنفه عندما وضعوا الأنابيب وشرعوا يضغطون السائل المعتم وهو يهسهس الى الخزانات ، وقال :

ـ انها تشبه رائحة أقراص الحلوى المسكرة أو نوعا آخر من الحلوى ، فلتشموها ، ولتملئوا نفوسكم منها !

وتشممها الملاحون ، فبدت كما لو أن صينية من الحلوى الساخنة قد جيء بها الى ظهر السفينة ٠ ولكن حدث بعد ذلك نوع من الدغدغة المؤذية فى أنوفهم ، فضغط دوجايلو على أنفه وقال : « أف ! يا لها من رائحة نتنة بالرغم من ذلك ! »

ولكن لم يبق شيء من هذا أيضا عند النهاية ٠ وبدا كأن زيتا عاديا يضغط خلال خط الأنابيب ٠ ولم يشك الا فومشكين الذى

كان واقفا بالقرب من أحد الأبواب الأرضية من ألم فى صدغيه . وذهب دوجايلو فى ضيق الى جانب السفينة ولم يقل كلمة أخرى .

وتسلم القبطان فى كراسنوفودسك أمرا آخر من الخط الملاحى . هو أن يقطر ناقلة الزيت أزبكستان التى لم تستطع مقاومة العاصفة . وكانت مهمة شاقة غير سارة ، ولكن ايفجينى استفانوفتش كان كذلك فى حالة نفسية طيبة ، فهو قد تغلب على العاصفة فى عرض البحر بما أحدثت من توتر مفزع لا يطاق . ثم كان كل شىء على ما يرام ، ولهذا فقد أحس ايفجينى استفانوفتش بدافع من الصداقة تجاه كل شخص .

وقال لكازاتسكى : « أنظر ، أنظر فقط ، يا للروعة ! هذه المدينة البيضاء الصغيرة والتلال الحمراء المنحدرة فوقها ، والشواطىء الرملية الذهبية تحيط بالخليج الأزرق ! يا للجمال الأخاذ ! »

وكان كازاتسكى يبدو مجهدا ومريضا ، فكان تحت عينيه جيبان بنيان . وكان على قميصه بقع من رماد الطباق ، وكان القميص كله متثنيا كما لو أنه كان قد نام به .

فأجاب فى دروشة : « ان المدينة بيضاء ، هذا صحيح ، والتلال حمراء بالتأكيد ، ولا شك فى هذا ، ولكنك تبدو فى حالة نفسية مرحة صافية ، فكيف هذا ؟ »

وأدار رأسه فى بطء ، وسمر عينيه الجاحظتين على رباط عنق القبطان .

- مهما يكن من شىء فان من الخير أنك تشعر بالمرح . ولكننى اعتقدت ان أصل الى الاشياء مباشرة كما تعرف . فالريح الشمالية قد كفت عن أن تهب ، وكل شخص سعيد بذلك ، ولكننى لست كذلك ، بمعنى أننى راضى النفس بطبيعة الحال ، ولكن على نحو مخالف لكم . فما تكاد السعادة تصيح فى داخل نفسى بصوتها

القوى المجلجل حتى أبدأ أفكر فى أشـــياء · وينتج عن هـــذا أنه لا أهمية لكمية الغناء الذى تغنيه ، فان شيئا مؤسفا لابد أن يحدث فى النهاية ، ويتحتم عليك فى هذه الحالة أن تلعب (دورا فاصلا) ·

ـ ولكن الأحوال بعد ذلك تعود على مايرام ، أليس كذلك ؟

ـ لست أدرى ، ربما عادت كذلك ، فأنا ضائق بالموضـــوعات المجردة · أنظر ، ان الأزبكستان فى الميناء الداخلى هناك ، ويجب علينا أن نلقى عليها نظرة قبل أن نقطرها ، فهيا بنا الى هناك ·

ـ أوه ، ما أشق مهمة القطر هذه ! ومع ذلك فنحن لا نسـتطيع أن نرفضها ! لقد عجزت عن المقاومة ، ولكن خزاناتها مليئة بالزيت، ويجب نقله ·

ـ لابد لنا من أن نقطر السفينة العجوز ، ولا مفر لنا من ذلك ·

ـ يبدو عليك أنك سعيد ·

ـ كلا ، كل ما فى الأمر أننى أعدتك الى الحقيقـــة الواقعـة ، وبرهنت لك على أنه ما تزال هناك أشياء غير سارة · ناولنى ذراعك يا صديقى المرح ·

ونزلا الى ظهر الشـــحنة وصوب السـقالة · وتشمم ايفجينى استفانوفتش رائحة ، وتوقف ·

وسأل فى دهشة : « ما هذه الرائحة ؟ أهى رائحة الزيت ؟ »

ـ ألم تلاحظها الا الآن ؟ انها كذلك رائحة زيت كراسنوفودسك· لماذا تكشر ؟ ان له رائحة خاصة ، ولكنها ليست رائحة كريهة ·

وسارا على الساحل رويدا ، وتحدث كازاتسكى عن صفات زيت كراسنوفودسك المثيرة ، عن المواد العطـــرية وأنواع البنزين التى يشتمل عليها ، ودرجة الحرارة [illegible] وظن ايفجينى استفانوفتش أن وكيل أنقبطان يعرف من الأشياء ما لا يعرفه الوكلاء الآخرون ، وأنه لا يحب بشكل ما أن يظهر معرفته ، بل انه

ليقرأ الصحف بمفرده وقد أغلق على نفسه حجرته .

ورحب بهما فى الأزبكستان رجل بدين لطيف له رأس كالزنجبيل، وقدم اليهما نفسه بوصفه وكيل القبطان . وساروا جميعا الى مقدم السفينة ، وألقوا نظرة على جهاز القطر ، واتفقوا على طريقة ربط الحبل .

وقال الرجل البدين فى ابتسامة لطيفة : « ان الحظ لم يحالفنا مطلقا ، فقد تمت عملية الترميم الشتوى بصورة سيئة ، وها نحن أولاء لم نبدأ الرحلة ، ومع ذلك يتحطم شىء ما . فبالأمس انسدت أسطوانة ، ولكننا قبلنا الشحنة كذلك ، اذ لم يكن فى استطاعتنا أن نعود بلا شحنة ! ولكننى مرة أخرى أقرر — بينى وبينكما — أن هذا ليس من الصواب ، لأن سفينتنا غير منظمة »

فسأله بازوف فى انفعال واضح : « أحقا ؟ ولكن هذا يحدث غالبا على نحو كاف »

— لقد تداركوا ذلك فى أحد المواضع ، ولكن من الواضح أن ذلك ليس تماما على ما يرام ، فهناك رائحة غاز ، وليس لدينا أية أنابيب للغاز كذلك . ان هذا ضد القانون .

وقال كازاتسكى فى عجلة : « يجب أن نعود ، فقد آن الأوان يا ايفجينى استفانوفتش » .

وتثاءب وكيل القبطان ذو الرأس الزنجبيلى وعاد الى حجرته . وكان على ظهر السفينة غسيل يتدلى ، ولفات من الحبال ملقاة هنا وهناك . وهز ايفجينى استفانوفتش رأسه .

وقال : « لقد جعلوا من سفينتهم زريبة . يا لهم من خنازير ! »

ولسبب ما لم يذهب كازاتسكى مباشرة الى السقالة ، بل انصرف من الاتجاه المقابل على طول ظهر السفينة . وتلمس ايفجينى استفانوفتش طريقه فى اذعان خلفه . وكانا كلما اقتربا من مؤخر

السـفينة زادت الرائحة الجميلة قوة . وأحس القبطان بدغدغة فى أنفه .

فسأل وهو يشمشم : « أليست أبوابهم الأرضـية مسدودة ؟ يا للشيطان ! ان هذا حقا ضد القانون ! »

وطاف كازاتسكى بهيكل السفينة ، ثم مضى الى السـقالة دون توقف .

وسأل فى سرعة : « هل معك تلك الورقة ؟ »

ـ أى ورقة ؟

ـ البرقية اللاسلكية التى جاءتك من الخط الملاحى اليوم بشـأن قطر الأزبكستان . دعنى أرها .

ونظر الى البرقية ، ثم طواها ، وجعل أنفه يختلج .

وتمتم فى قلق : « سوف ننفذ ذلك ، من أجل أنه أمر فقط ، كما تعلم . »

فقال ايفجينى استفانوفتش فى اندفاعة: «الحقيقة اننى سأرفض أن اقطرها ! وسأذهب لأرسل برقية فى الحال . »

ـ مهلا ، ماذا أصابك ؟ ان على السفينة رائحة غاز ، فماذا يكون من أمره ؟ وهم قد حصلوا على اذن من قسم التفتيش بأن يستمروا فى عملهم ، فاذا أنت رفضت فانهم سيتهمونك بافساد الخطة .

ـ أتظن ذلك ؟

ـ انا على يقين من ذلك .

فتنهد ايفجينى استفانوفتش وقال : « أوه ، يالها من حياة ذليلة تلك التى يعيشها القبطان ! وما ألعنها لحظة تلك التى وافقت فيهـا على ترك المكتب ! »

- ٢ -

وفى أثناء عملية الشحن جاء رجل يلبس قبعة بحار الى ســـقالة الديربنت ، وكان يبدو فى الخامسة عشرة من عمره ولكنه تبدو عليه سيماء الأهمية والعظمة المصطنعة . وكان فى يده دفتر مذكرات ، وكان من الواضح أنه غاية فى الفضول ، لأنه ظل واقفا على أصابع قدميه ، يحاول أن يرى ما كان يحدث على ظهر ناقلة الزيت .

وحيا دوجايلو فى أدب قائلا : « يومك سعيد ، كيف حالك ؟ » . فسأله رئيس الملاحين فى دهشة لطيفة : « ماذا ، أتعرفنى ؟ ومن أين جئت ؟ »

فأجابه الآخر قائلا : « لا ، لست أعرفك ، ولكنك تقطرنا ، وهذا هو السبب فى أننى جئت أتعرف عليك . كيف حالك ! » وأومأ الى البحارة الذين كانوا قد تجمعوا عند جانب السفينة ، وأضــاف : « اننى عامل اللاسلكى على الأزبكستان ، واسمى فالريان . »

وصعد السقالة ومد يده الى رئيس الملاحين .

فقال دوجايلو ، ضاحكا : « حسن ، كيف حالك يا فالريان ! ان ظروفكم سيئة ، وسوف نقطركم . »

وخرج كوتلنيكوف وحسين وماكاروف من حجرة الطعام . وحين لمح فولوديا القادم الجديد صاح : « مرحى ، انه فالريان ! »

وصعد اليهم ، وأمسك بالشاب من كتفيه ، وأخذ يديره أمامه .

– من أين بزغت يا فالريان ؟ وكيف جئت الى هنا ؟ أأنت تعمــل فى الأزبكستان ؟ »



واستدار الى رفاقه وقال : « لقد كان فى نفس درجتى . انه أصغر الجميع، حتى انهم لم يريدوا أن يقبلوه. هذا صحيح ، أليس كذلك يا فالريان ؟ هيا قل الحقيقة . ولكن أنظروا اليه الآن ، انه يخرج الى البحر ولا يخاف ! وهو مجرد صبى ! »

فقال فالريان فى اعتزاز : « انها قصة لطيفة ، فقد قلت لكم من قبل اننى عامل لاسلكى ، وانا اعمل بنجاح كذلك ! كيف تغلبتم على العاصفة ؟ لقد كنت أعمل طوال الوقت ، دون أية راحة ، وكانت هناك سفينة معرضة للغرق ، ربما سمعتها ، وقد أنقذت ، أعنى أننا ربما أنقذناها . انه واجب غاية فى الأهمية كما تعرفون . هل قرأتم أمر رئيس الادارة الشعبية بشأن منع الحوادث ؟ حسن ، فان هذا ما جعلنى أبقى فى موضعى دون أية راحة ! »

وكان يحاول الحديث دون أن يبدو عليه الاكتراث ، ولكن كان من الواضح أنه مضطرب من الحديث الى هذا العدد الجم من الكبار ، والأجانب بصفة خاصة ، فكان صوته ينخفض أحيانا الى أن يصير عميقا غليظا ، وأحيانا يرتفع الى أن يصير صراخا صبيانيا مصرصرا .

واستمر يقول فى حماس : « ان جهازى اللاسلكى غاية فى القوة، وقد سبق أن قمت بكثير من التجارب الهامة (فانا من هواة اللاسلكى القدامى كما ترون) . وأنا الآن افكر فى كتابة مقال الى مجلة هواة اللاسلكى (راديو فرنت) ، فقد حاولت أن أظل على اتصال بسفن البحر الأسود ، ونجحت فى ذلك أيضا ، ولكن ذلك

كان عند المساء فقط ، ولفترات قصيرة . ان العلم يقدم تفسيرا لذلك . ولسوء الحظ أننى اضطررت لايقاف تجاربى لأن محطة الادارة سمعتنى وأرسلت الى تعنيفا . ولكن حاول وناقش الموظفين »

فقال حسين فى طرب . « أوه . يالك من صبى عظيم ! وعلى أى شيء كان التعنيف ؟ »

ـ كان من أجل التجرؤ على الهواء ،ولكن ليس لذلك قيمة، فالحياة فى البحر لطيفة كذلك . ولدينا مكتبة كبيرة ، فيها ما يقرب من ثلاثين مجلدا أو أكثر من ذلك . والى جانب ذلك فأنا عامل اتصال صغير . وأنا أكتب عن شحن الزيت والحركة الاستخانوفية . واذا شئتم الحقيقة فهناك سبب لمجيئى هنا ، فقد أحضرت معى دفتر المذكرات لكى أسجل انطباعاتكم . علام تضحك يا فولوديا ؟ اننى أود أن أتحدث الى واحد من الاستخانوفيين منكم . كيف نجحتم فى الوصول الى أرقامكم القياسية ؟ »

وكان جمهور كبير قد تجمع ، فأحس بالارتباك لحظة ، ولكنه عندما رأى الوجوه المرحة اللطيفة فتح دفتر ملاحظاته متخذا مظهر الجدية. وأمسك به حسين من ابطه وراحا يتمشيان على ظهر السفينة ،يتبعهما الجمهور الفضولى .

ـ اذن فقد كانت المشكلة كلها مشكلة الآلات وادخار الوقت فى عملية الشحن ؟ انتظر لحظة من فضلك ، فسوف أدون هذا . انه نوع من الاختراع ، أليس كذلك ؟ أتقول لا ؟ حسن ربما كان غباء منى أن أقول ذلك . كفاك ضحكا يا فولوديا ! لقد نسيت أن أخبرك أننى أعمل تصميمات كذلك ، فأنا أصنع طيارات صغيرة من الخشب والورق المقوى . انها عملية مسلية للغاية . ولسوء الحظ أنه ليس هناك مكان لتطييرها ، فظهر سفينتنا ليس من الكبر بما يكفى .ولذلك طارت جميعها من فوق السفينة وضاعت . وقد صنعت محركا كهربائيا كذلك ، وهو محرك صغير، لا يزيد وزنه على بعض الجرامات،

ويعمل ببطارية جيب ، ثم انه مصنوع كله من خامة سوفياتية تصوروا ·

وضج فولوديا بالضحك . وأخذ الزائر بين يديه ، ورفعه فى الهواء ·

وكرر عبارته ، والمرح يطفر منه : « من خامة سوفياتية ! ألاماأقدرك على الثرثرة ! »

فقال فالريان وقد تجهم وجهه وتخلص من يديه : «كفى يا فولوديا، لا تكن هكذا سخيفا » ثم أضاف : « دعنى أتمش مع الرفاق · هل تسمع يا فولوديا ! »

وسوى قميصه والتفت الى حسين ، وقال :

ـ انك ستعطينى كل تفصيلات رحلاتكم الاستخانوفية عندماتصل الى ماخاش ـ كلا ، أليس كذلك ؟ اننى واثق من أننا نستطيع أن نستغل كثيرا منها فى عملنا ، فنحن فى الأزبكستان نسير على الطرق القديمة ، وكبير المهندسين ينام نصف الوقت · وأظن أنه أصيب بمرض النوم وهو لا يدرى · ان هناك مرضا كهذا ، كما تعرف · فهناك بعوضة تلدغك وينتهى كل شىء ! تضحك ثانيا يا فولوديا ! وبهذه المناسبة ان ظروفنا قاسية ، فقد تحطمت الآلة أمس ومع ذلك فانه لم يلاحظ ما حدث · ثم دعنى أخبرك بصراحة ـ » وبدا على وجهه تعبير غامض ، ومال فولوديا حتى صار أقرب اليه ، وعلى فمه استعداد لابتسامة ـ واستمر يقول : « لقد حدث شدخ فى ظهر سفينتنا ، وأخذ الغاز يتسرب منه ، وأقولها لكم كلمة شرف ، لقد أصلحوا ذلك فى الميناء ، ولكنهم لم يصلحوه جيدا ، لأنه ما تزال هناك رائحة ، وليس لدينا أنابيب للغاز · هذه هى المسألة ! »

وقال ذلك كله فى نفس واحد ، وفولوديا ما يزال يضحك بصورة آلية ، ولكن بعد ذلك سادت فترة صمت ·

وسأل حسين : « كم استمر الحال على هذا المنوال ؟ هل تذكر ؟ »

- انه منذ وقت طويل جدا . وقد طلب القبطان فى الميناء مهندسا - لا أدرى من أين جاء -

- أيحتمل أن يكون من قسم التفتيش ؟

- هذا صواب . وقد قال انه لا بد من ايقاف ذلك على نحو ما الى أن تأتى نهاية موسم الملاحة ، ثم استدار ، ومضى . أما هم فقد نفذوا ذلك على أية حال مجرد تنفيذ !

- اذن فقد أذن لكم قسم التفتيش بأن تشحموا السفينة وظهرها على هذه الحال ؟ ودون أية أنابيب للغاز ؟ هذا محال !

- ولكننى أذكر ذلك جيدا ، فقد استدار ، ومضى ..

وعض كوتلنيكوف أظافره وتجهم وجهه .

وقال فى صوت خفيض : « لا بد أن نصنع شيئا أيها الرفاق ، فهم لا يمكن أن يخرجوا الى البحر على هذا النحو . هذا واضح ».

- ولكن ماذا سنصنع ؟

- سنتصل بالخط الملاحى ونخبرهم هناك بذلك ، فهذا شيءلايمكن السكوت عنه .

فقال فولوديا : لقد فات أوان هذا ، فهم لا بد أن سيفرغوا من عملية الشحن الآن . ولكن هل لديكم يا فالريان أى محركات كهربائية على ظهر السفينة ؟ »

- نعم ، هناك رافعة على ظهر السفينة . وأين يمكن أن تكون فى غير هذا المكان ؟

فسأله حسين ، وهو ينظر حوله في فزع : « ألا يمكن أن يكون

هناك قليل من الوقت ؟ ألا ينبغى أن نوقظ بازوف ؟ »

ـ لقد فات الأوان يا مصطفى ، وبازوف ليس صانع معجزات . وعلى أى حال فان أحدا لن يصدقنا . لقد حدث ذات مرة أن أعطى قسم التفتيش تصريحا ـ

ـ ان أحدا من رفاقك يا فالريان لا يدخن على ظهر السفينة أليس كذلك ؟ أم تراهم يدخنون ؟

ـ كلا ، فهذا ممنوع . ونظر فالريان الى ثلاثتهم واحدا بعد الآخر، وعيناه ترمشان كمن استشعر جرما . وقد أحزنه ان الحديث الذى كان قد بدأ طيبا قد انعطف الى ذلك .

وقال كوتلنيكوف : « حسن ، أيها الرفاق ، لقد فات الأوان الآن لأن نعمل أى شىء ، ولكننا سوف نثير هذه المسألة فى هيئة الحزب فى ماخاش ـ كالا . وفيم يفكر مساعدكم السياسى أيهاالرفيق، يا عامل الاتصال الشاب ؟ »

ـ لست أدرى ، فهو لم يكن معنا منذ وقت طويل . وصمت فالريان لحظة ، ثم ابتسم فجأة بطريقة صبيانية جذابة . وأضاف : « بالله فلنتحدث فى شىء آخر » .

وأعجب الجميع بعامل اللاسلكى الصغير الذى يعمل فى الأزبكستان، ولوحوا له بقبعاتهم وهو يسير على رصيف الميناء فى طريقه الى الساحل ، بل ان دوجايلو أخذته نوبة انفعال وهو يراقبه ذاهبا .

وقال فى حزن : « كان لى ابن ـ ومات . كان غلاما لطيفا ماهرا مثله ، ولو عاش لبلغ الآن ثلاثين عاما أو يزيد ـ »

- ٣ -

ومضى اليوم هادئا كأى يوم آخر فى البحـــــر ، وقد قسم الى نوبات الحراسة المتتالية كل أربع ساعات • وفى عرض البحر لم يكن الموج قد هدأ بعد تماما • وكانت أشعة الشمس تصطدم بالجانب المنحدر من الامواج ، وكان سلك القطر يئز عند مؤخر السفينة • وبعيدا وراء ذلك كانت المقدمات العالية للأزبكستان تلوح فى الأفق ، ويبدو صاريها أسود على رقعة السماء الزرقاء • وسرعان ما ألف رجال الديربنت تلك السفينة ، كما لو أنهم كانوا يقطرونهـا منذ ازمان ، وكما لو لم يكن عليها شحنة وفيها رجال ، وانما كل ماهنالك صوار ، وجسم سفينة علاه الصدأ ، وهيكل علوى لها أبيض • وفى المساء عندما خيم الظلام ، وأضيئت الأنوار فى الحجرات تلاشت تماما • لم يكن هنـــاك سوى أزيز سلك القطر الذى يتـلاشى فى الظلام ، الى أن ينتهى عند باقة من النور ، ويحرك سلاسل من الأضواء المرتعشة حركة متموجة فى أعماق البحر • وكانت موجات غير مرئية تأتى فتقطع السلاسل شطرين ، ولكنها كانت تعود فتتصل لكى تشطر مرة أخرى ، وهكذا ، مرة بعد مرة •

ووقف كازاتسكى للحراسة فى هدأة الليل ، وقد غرق فى تأمل تلك السلاسل المتلألئة • وأسند كوعيه الى درابزين الجسر ، ولف نفسه جيدا بمعطفه المصنوع من الفرو ، وظل بلا حراك •

وهناك بعيدا خلف مؤخر السفينة كانت السلاسل الذهبية تتلوى كالثعابين ، فراقبها ، ولم يستطع أن يحول عنها نظره ، رغم أن المنظر كان على نحو ما ثقيلا على نفسه • وسر عندما سمع أصواتا

تحته ، فانحنى على الدرابزين قدر استطاعته لكى ينصت اليها ·

ـ لا بد أن تكون هنا جزيرة ، فأى جزيرة هى ؟

ـ جزيرة شيشين ·

ـ شيشن ؟ عجبا ! يبدو كأنك تعرف البحر بأسره !

ـ ولم لا ؟ فقد أبحرت فيه منذ أن كنت شابا !

وكان الصوت الذى يوجه الأسئلة أميل الى الخشونة والسخرية ، وكان صوت رئيس الملاحين ذو الصرير هو الذى يجيب ·

فقال كازاتسكى مخمنا : « لابد أنه خروليف »

ـ يا عمى خاريتون !

ـ ماذا ·· ؟

ـ أين كنت مساء الأمس عندما كنا نضع القماش على المحرك فوق ظهر السفينة ؟ لقد بحثنا عنك فى كل مكان ·

ـ لست أذكر يا صديقى ، ولابد أننى كنت أصنع شيئا ما ، فلست أذكر ··

ـ يا للكذبة المفضوحة ! فقد قال حسين انك كنت فى المطبخ ترقد هناك فى هدوء ، فهل هذا صحيح ؟

ـ انه هو الكذاب · انه عديم الأصل ، ولا يحب الآخرين ؟

ـ اننى أتفق معك على هذا ، ولكن ماذا عن السؤال ؟

ـ اذا أراد شخص ما أن يغرق فهذا من شأنه ·· وأنا رجل عجوز ··

ـ كذا أنت ! فى الوقت الذى أكد أنا فيه · لقد غطاه الماء تقريبا

على السفينة بالأمس - أعنى حسينا ، وقد أضيفت الفكرة الأخيرة كأنها ذكرى سارة ·

وأنصت كازاتسكى ، وتجمدت فى وجهه ابتسامة ، كانت أذنه البيضاء الدقيقة بارزة من ياقته الصوفية · ولكن الحديث انتهى عند ذلك الحد ·

فقال كازاتسكى فى صوت خفيض يدل على الرضاء : « حسن ، لقد مررنا بجزيرة شيشن ، وينبغى لى أن أتبع خطتنا » · وذهب الى حجرة الخرائط وهو يرمش بعينه فى الضوء ، وتمطى ، حتى تقوس ظهره كما يبدو القط خلف الفريسة · وعندما انحنى فوق الخريطة سمع ضجة صاخبة مدوية فى مكان ما بالخارج كأن مطرقة تدق على لوحة من الصلب · وفى نفس اللحظة اطلق خروليف صيحة على مركز الربان ، ودفع باب حجرة الخرائط ففتحه ·

فساله كازاتسكى وهو يستدير : « ماذا بك ؟ هل لدغك شيء ؟ »

ورأى خروليف وقد علت وجهه قتامة ، وبدا فاغر الفم ، فقفز نحو الباب · وهناك بعيدا ، وراء مؤخر السفينة ، حيث كانت سلاسل النور تضوى من قبل ، ظهرت سحابة مترنحة من الدخان القرمزى اللون ، كان من الممكن رؤية صوارى الأزبكستان وحبالها من خلالها ، وقد أضاءت بنور أحمر · وكان كازاتسكى قد أخذ طريقه مسرعا الى سلم الهبوط ، ولكنه وقف فجأة مبهوتا ، وراح يعض أصابعه · وعاد وجه خروليف الأبيض الذى أعماه الخوف ، عاد فظهر ، وصاح صوته الأجش :

- النجدة ·· !

وانطلق كازاتسكى يقول : « صه ! اسكت ! ونفذ أوامرى ! »

وثبت قدميه ، وأمسك بالملاح من رقبة قميصه ، وجذبه نحوه ·

- أرجوك أن تهدىء من روعك وأن تنصت ، فسلك القطر لابد أن يقطـــع . ألق به من فوق السفينة فى الحال ! مفهـــوم ؟ ولا تبد مضطربا !

فتمتم خروليف وهو ينحنى : « اننى أحتاج الى بلطة » ثم أضاف : « يا سلام ! يا سلام ! نقطع سلك القطر ! »

ودفع كازاتسكى بالملاح بعيدا وطفق يهبط الســـلم ، فأسرع خروليف فى اثره وهو يلهث ، وقال فى شبه نشيج : « فى ظرف لحظة ! نقد هلكنا ! »

وسأله كازاتسكى دون أن يبطىء فى نزوله : « أين البلطة ؟ هل تسمعنى ؟ »

فقال خروليف وهو يزمجر : « هناك بلطة فى الموقد ، وسوف آتى بها الآن . آه ، سريعا سريعا ! »

وارتعد الجو بزئير صاخب لانفجار ، وظهرت خلف مؤخر السفينة سحابة أخرى من الدخان سوداء نارية ، قد انتشرت فيها شرارات متوهجة . ودق جرس السفينة على الأزبكستان فى جنـــون ، ثم توقف فجأة . وخرج دوجايلو سريعا الى ظهر السفينة ، وكان يجر عوامة (شمندورة) ويضرب ضرب عشواء ، ويتهادى فى مشيته . واصطدم بباب أرضى ، وصاح صيحة عالية : « أف ! »

وقفز اليه خروليف هابطا ، وأمسك بيده ، وقال :

- اعطنا بلطة يا عم خاريتون ، سريعا ! آه ، لقد هلكنا !

فغمغم دوجايلو : « تريدون بلطة ؟ ولماذا تريدونها الآن ؟ انك تحتاج الى عوامة ! »

فقال خروليف مزمجرا : « أعطنى بلطة فى الحال ، أيهـــا البغل العجوز ، والا تركتك جثة هامدة . »

وخطا دوجايلو الى الوراء ، وألقى بالعوامة · واختفى الرجلان كلاهما بعيدا عن شعاع النور المرتعش ، والآتى من مؤخر السفينة، وبعد ذلك بدقيقة عاد خروليف مندفعا الى النور وعلى كتفه بلطة · وصعد الى مؤخر السفينة فى سرعة مدهشة ، وفمه فاغر ، يبتلع الهواء · وكان دوجايلو يبحث على ظهر السفينة عن عوامته المفقودة ، وهو يتأوه تأوهات مكتومة ، وقد ضاق بنفسه · وأخيرا وجدها ، وشرع يضعها فوق رأسه ، منصتا الى ضربات البلطة الآتية من مؤخر السفينة · وتمايلت السفينة عندما فصلت عن الأزبكستان ، فترنح ووقع جالسا على ظهر السفينة ، مدمدما · وجـــرى كازاتسكى الى النور واصطدم به ·

وقال فى ابتسامة مرتعشة مغتصبة : «انتهى الأمر ! لقد نجونا !» ثم أضاف : « ألق بهذا الشىء التافه بعيدا أيهـــا الأحمق الكبير ، وايقظ القبطان · »

وفى ذلك الوقت خرج حسين من عنبر المحركات، ووقف على الجسر الممتد ، منصتا ·

وصاح حين رأى الرجال على ظهر السفينة : « لقد انقطع سلك القطر ! ويجب أن نوقف السفينة أيها الرفاق ، يا وكيل القبطان الأول ! »

فصاح كازاتسكى : « عد من حيث أتيت ! » ثم أضاف : « كل شىء منتظم ، فعد ! »

ولكن حسينا جرى فجأة ، ولمع ضوء النار الأحمر فى عينيه ·

وصاح ، وهو يتلفت حوله فى هياج : « أين القبطان ؟ عجبا ! انت هنا ؟ ولا يمكنك أن ترى أن هناك حريقا ! »

فصاح به كازاتسكى : « عد حيث كنت · وسوف أقدمك للمحاكمة لعدم طاعتك الأوامر فى عمل طارىء ! »

ولكن حسينا لم يكن بعد ينظر الى ظهر السفينة ، أو ينصت الى وكيل القبطان • ووقف جامدا بلا حراك بضع لحظات ، يفكر • ثم اندفع الى سطح الصوارى ، وصعد السلم الى جسر الملاحة ، واختفى •

وقال خروليف مخمنا : « انه يريد أن يشيع النبأ ، وسوف يوقظ كل شخص يا أوليج سرجايوفتش ، وســـوف يضـــطروننا الى التقهقر ! »

وساد الظلام كل شيء مدة لحظة ، وتلاشت ومضات النور على سطح البحر المعتم • ولكن ما لبث ان انطلقت سحابة ذهبية من الشرر خلف مؤخر السفينة ، وبدت السماء حمراء نارية •

ودوى صوت الديربنت فى الظلام دويا يصم الآذان ، كأنها تحترق من وهج اللهيب •

وكان بازوف راقدا على سريره دون أن يخلع ملابسه ، وقد تمددت قدماه العاريتان خارجه ، وبرز ذقنه كما لو كان قد أصابته رصاصة • وكان بين جفنيه غير المسبلين تماما شيء يثير عينيه ، فظن ان الصباح كان قد أتى ، وان الشمس الحمراء كانت تشرق • وبالقرب من اذنه كان هناك شيء يدوى دويا ممتدا ارتجت له حيطان الحجرة • واستدار وهو شبه يقظان على جانبه لكى يتحاشى أشعة الشمس الحمراء التى كانت تداعب انسان عينه من بين أهدابها • وفجأة انقطع الدوى ، وسمع بازوف خلال السكون المطبق صيحات ، ومع ذلك فلم يتحرك ، ولكنه تعجب فى فتور من كونه يشعر بالميل الى النوم فى حين ان الصبح كان قد أصبح ، ومن كونهم لم يوقظوه فى نوبة عمله كما طلب منهم • وسمع الباب يفتح فى عنف ويندفع منـــه شخص ما فيصطدم بكرسى نظرا لسرعته • ثم تحقق ، عندما فتح عينيه ، من ان الشمس لم تكن هى التى تسطع ، ورأى وجه حسين ينحنى فوقه، وبدا له أنه يحاول أن يفزعه •

فسأله ، وعلى فمه ابتسامة ناعسة ، وهو يتلمس مفتاح النور : « كم الساعة الآن ؟ » ثم قال : « ماذا قلت يا مصطفى ؟ »

فقال حسين وهو يهزه من كتفه : « أقول لك قد شب الحريق فى الأزبكستان ! فهيا انهض سريعا ! »

وأضاء بازوف النور وجلس على سريره .

وصرخ بأعلى صوته : « ليس هناك حريق ! مستحيل ! »

وعندما أضىء النور اعتراه ذهول ، لا من كلمات حسين ولكن من التعبير الذى ارتسم على وجهه ، ذلك التعبير القديم الذى يدل على اليأس الفارغ المكتوم ، والذى كان من المعتاد أن يرتسم عليه خلال الرحلات الأولى المخزية .

وقال حسين متعجبا فى صوت له دوى : « انظر ماذا صنع الاوغاد! لقد ضاع الآن كل شىء . هلكنا ! »

فقال له بازوف : « هدىء من روعك يا مصطفى » ، ولبس حذاءه ذا الرقبة ، واندفع خارجا الى الممر ، وراح يعقد أزرار سترته وهو يمضى فى طريقه . وتساءل وهو يصغى فى انتباه : « من ذلك الذى يصيح ؟ »

- « لقد تجمع الرفاق على سطح الصوارى ، وهم يصرون على العودة » واخترقوا الممر فى طريقهم الى ظهر الشحنة . وتوقف بازوف ، ورفع يديه الى صدغيه .

وسأل فى همس : « ما هذا ؟ ما الذى يحدث يا مصطفى ؟ »

وهناك بعيدا وراء مؤخر السفينة كانت سحابة هائلة من الدخان ، وكان سطحها يتأجج منه وهج أحمر يخطف الأبصار ، كأنه فحم ملتهب ، ويرسل فى السماء حزما من الشرر الذهبى .

وقال حسين فى لهجة يأس : « لقد قطعوا سلك القطر ، وهم الآن يمضون بالسفينة بعيدا . وقد صرخت فى البوق ولكن كازاتسكى طردنى . أنصت ، يجب أن تصنع شيئا ! وما يزال هناك متسع من الوقت . فهل يصح أن نبتعد بسفينتنا على هذا النحو يا ساشا ؟ »

وحملق فى وجه المهندس ، ولكنه تحقق فجأة من أن بازوف كان عاجزا مثله تماما ، فقد كان عليه أن يتلقى الأوامر من القبطان ، ولم تكن له الحرية فى أن يعود بالسفينة . واذا هو أصر على ذلك ربما هددوه بتقديمه للمحاكمة أو طردوه ، تماما كما فعلوا معه هو ، أى حسينا ..

ولكن بازوف استعاد هدوءه فجأة ونظر خلفه كأنه يقدر المسافة الى السفينة المحترقة . واستدار فجأة ، وأسرع فى صمت الى السلم . وتبعه حسين فى صمت كذلك ، وهو فارغ الذهن .

وكان الرجال فوق سطح الصوارى يتلفتون حولهم فى ذعر ، وقد صعب عليهم أن يرى الواحد منهم الآخر فى ضوء النار الباهـــر . وكانت أصواتهم تعلو حينا ويتصايحون جميعا ، فيغطى بعضهم على بعض ، وحينا كانت تهبط الى أن تصير همسا ، حتى انه كان من الممكن سماع كل كلمة تقال بصوت مرتفع ، ثم قد ينظـــر الرجال جميعا الى الشخص الذى يتكلم ، كأنهم ينتظرون أمرا .

وأمكن رؤية قامة كازاتسكى الطويلة على مركز موجه السفينة بالقرب من السلم . وكان يقف هناك بلا حراك ، سوى التفــاتة عرضية من رأسه عندما ترتفع الضجة من تحته .

ومن ورائه كانت قامة القبطان المترهـــلة المنحنية تســـتند الى الدرابزين . وكان يتحرك باستمرار ، ويقوم بكل أنواع الحـــركات الصغيرة غير المجدية . وجمع بين كتفيه كما لو كان يشـــعر ببرد ، وشرع يعقد أزرار قميصه ، ولكنه انطلق فجأة وأدار رأســـه ناظرا

أحيانا الى السفينة المحترقة وأحيانا الى سطح السارية ، وهو يزمجر ويلوى أصابعه ٠

وعلى سطح الصوارى كان ياكوبوف ، وقد بدا عليه الانفعال ، يجفف وجهه المبلل بمنديله ، وبدت عيناه كأنما تعلوهما الدموع المسفوكة ٠

وصاح حوله فى غضب : « دعهم ينزلوا الى هنا ! دعهم يشرحوا لماذا هم يقودون السفينة بعيدا ! دعهم يا رئيس مجلس السفينة يشرحوا ! »

فصاح كوتلنيكوف وهو ينظر الى مركز الربان فى كراهية : «كفى كلاما ! ويجب أن نضطرهم الى العودة ٠ »

وصاح البعض : « فلتأتوا بالقبطان ! »

- ان القبطان هنا ٠٠

- أين ٠٠ ؟

- هناك ! منطرح على الدرابزين !

وسادت فترة صمت قصيرة ؛ وتجمع الرجال قرب السلم ، ينظرون الى الشخص الملوث على الجسر ، وقد نسوا النار للحظة ، وهم فى حالتهم الاستطلاعية الكئيبة ٠

وخلال الصمت انبعث صوت دوجايلو الحزين يقول : « وذلك الصبى ، من المحتمل أنه يحترق ، أعنى عامل اللاسلكى ٠ انه يحترق حيا أيها الأصدقاء ! يحترق ! »

فصاح كوتلنيكوف فى غضب ، وعيناه تلمعان : « لنعد ! » وفى الحال انطلقت صرخة مدوية على سطح الصوارى تقول :

- فلتأتوا بالقبطان !

- القبطان .. !

- يجب أن ننجي أولئك الرجال ! أتسمعون ؟ »

- فلنقبض عليهم !

- أين المساعد السياسى ؟

- هل فقدت صوابك ؟ لقد أخذ المهندس مكانه منذ زمن بعيد ، وقد بقينا بلا مساعد سياسى مدة طويلة ! »

- ماذا يصنع أولئك الأوغاد ؟ ينزلون الزوارق الى الماء ! ماذا هم يصنعون أيها الرفاق ؟ »

فصرخ خروليف وهو يدس نفسه فى المتجمهرين قائلا : « عن أى شىء تتحدث ؟ أتريد أن تموت محترقا ؟ ان الريح تبعث بالشرر فى كل مكان . أليس لدينا نحن نفس الشحنة ؟ يا لكم من قطيع ! » وشرع يدفع الرجال جانبا بطريقة مؤذية ، وعندما مر بياكوبوف قال وفى صوته نغمة التهديد : « عليك أن تلزم الصمت ، وأن تعرف ما يمكن أن تناله بسبب افسادك للنظام ، فكن على حذر ! »

وفجأة رأى بازوف قادما حول ركن السفينة ، فخطا جانبا على عجل ، وضغط على شخص ما على حائط السفينة بظهره . وسادت فى الحال فترة صمت ، وكف الرجال عن التجمهر وأفسحوا طريقا لبازوف الذى هب لتوه الى الجسر . ومن خلفه لاح شخص حسين الضخم . وهرع فولوديا ماكاروف لمقابلته وهو شاحب اللون ، يلهث من الاضطراب ..

وصاح كمن أوشك أن يفقد صوابه ، وهو يمسك بيد بازوف قائلا: « ان الربان ما يزال هناك ، وفى استطاعتى أن أسمع اشاراته » . ثم أضاف : « لا يمكننى أن أستمع لذلك . أنحن جبناء ؟ »

ودفع بازوف عامل اللاسلكى جانبا وصعد مسرعا فوق الجسر .

وفى الحال اندفع بعض الرجال خلفه ، وتدافع المتجمهرون جميعا نحو السلم ٠

وصاح كازاتسكى قائلا : « ما معنى هذا ؟ أرجوكم أن تتفضلوا فتعودوا ٠ وأنت يا ايفجينى استفانوفتش ، كف عن هذه المضايقة ، فأنا لا أستطيع أن أعمل »

وخطا الى الوراء متنحيا عن السلم ليدع بازوف يمر ، ولكنه جرى فى الحال أمامه وسد الطريق الى حجرة الخرائط ٠ وفجأة توقف الاثنان يواجه الواحد منهما الآخر ، ويتنفسان فى عمق كمتصارعين على وشك أن يشتبكا فى معركة ٠

وسأله بازوف فى صوت خفيض : « أأنت الذى قطعت السلك ؟ » ثم أضاف : « ولماذا تبتعد بالسفينة ؟ »

فأجابه كازاتسكى بنفس الصوت الخفيض : «ليس هذا من شأنك» ثم أضاف : « ان القبطان هنا يقوم بعمله ٠ »

وسرعان ما أحاطت بهما حلقة من الرجال ، يلهثون فى سرعة وعمق ٠٠

- « سوف ألكز وجهه » - قالها بازوف فى نفسه وهو يرفع يديه آليا ليضرب بها ، ويثبت عينيه على القوس الأبيض فى أنف القبطان ٠٠ !

ولاح وجه حسين فوق كتف بازوف ، مكشرا عن أنيابه غضبا ٠ ومن خلفه كان آخرون لم يكن من الممكن معرفتهم فى ضوء الوهج الضعيف ٠٠

ومن الخلف انطلق صوت ياكوبوف الأجش يقول : « اضربه يا مصطفى ! لا تخف ٠ اضربه بشدة ٠ خذ ازميلا ! »

وفجأة اتحد المتجمهرون فى همهمـــة بلهاء كما لو أنهم استولت عليهم عاصفة متزايدة من الانفعال ، وتدافعـــوا من الخلف فجعلوا بازوف ملتصقا بصدر القبطان • وعاد بازوف فسيطر على نفســـه وأنزل يديه •

وصاح فيهم وهو يفسح لنفسه : « الزموا الهدوء أيها الرفاق ! وليبتعد غير المطلوبين من الرجال عن الجسر ! اننا عائدون لتخليص رجال الأزبكستان ، فاذهبوا الى أماكنكم ! »

وأحس بالحائط الساخن من الأجسام يبتعد من خلفـه ، وصاح بأعلى ما يستطيع من قوة وقد اخشوشن صوته :

« نفذوا الأوامر ! ابتعدوا عن الجسر ، وليقـــدم وكيل القبطان الثانى وعامل الآلة الاضافية نفسيهما الى • استعدوا لانزال الزوارق ، والزموا الصمت أيها الرفاق ! »

وسمع صوت كازاتسكى فوق رؤوس الآخرين يقول : « ليس لك أى حق فى ذلك ! فالقبطان هو الذى يصدر الأوامر هنا ! ثم انك رفعت يدك فى وجهى ، وقد رأى الجميع منك ذلك ! »

وتوقف الرجال الذين كانوا قد اقتربوا من السلم فى حـــيرة • واقترب بازوف من جســـم القبطـــان فى اصرار : « يا ايفجينى استفانوفتش ، يجب أن نعود ، فهناك أناس يحترقون • هلم ، هدىء من نفسك • أنصت ! »

وأبعد القبطان يديه عن وجهه وتلفت حوله فى تطلع ، كأنه يأمل ألا تكون السماء الملتهبة ، ودوى النفير ، والصيحات ، سوى خيال من عنده • ورأى الضوء الأحمر فى نافذة حجرة عجلة القيـــادة ، وأمسك بياقته وأصابعه ترتجف •

وقال فى صوت تعس : « لست أدرى يا صديقى ، لست أدرى أى شىء ! يا الهى ، يا الهى ، ماذا تريد ؟ »

وهنا انبعثت صرخة مجنونة من حسين الذى كان يدفع الرجال جانبا ليتمكن من رؤية القبطان بصورة أوضح ، تقول : « أأنت لا تدرى ؟ .. أأنت لا تدرى ؟ .. بل يجب أن تدرى اذا كنت قائدا لا مجرد عجوز ... »

واندفع الى حجرة عجلة القيادة ، دون أن يتم جملتـــه . وأسرع بعض الرجال خلفه ، فى حين أسرع الآخرون فعادوا في حيرة تجاه السلم ..

وقال بازوف محـــاولا أن يحمل القبطان : « انك تهـــدم نفسك يا ايفجينى استفانوفتش . وسوف نقدم كلانا للمحاكمة اذا مات أولئك الرجال . فهلم استند الى »

وفى حجرة عجلة القيادة دفع حسين موجه السفينة جانبا ، فارتطم هذا الأخير بالحائط وتمتم :

ـ دعها ، دعها قلت لك . سوف تطالب بالدفاع عن تصرفك هذا .

فقال حسين وقد برز كوعاه عندما راح يدير عجلة القيادة : « سأدافع عن نفسى دفاعا طيبا يا رفيقى العزيز ، فلا تهتم . سوف أدافع ! »

وجذب بازوف القبطان الى حجرة عجلة القيادة وهويرفعهبذراعه.

وتساءل ايفجينى استفانوفتش : « اذن فأنت تقول أنه يجب علينا أن نعود ؟ » ثم أضاف : « اننى يا صديقى العزيز قد فقدت قدرتى على التفكير على نحو ما ، فاصنع كل ما هو ضرورى الى أن أفيق لنفسى مرة أخرى . ولعلك تلاحظ أننى مريض حقا . »

ودارت السحابة الذهبية مارة بمؤخر السفينة ، وصنعت قوسا ضخما طفا على الجانب الأيسر من السفينة . وكان البحر فى الشعاع تلمع منه قطع متوهجة .

ـ آه ، هكذا تنهد ايفجينى استفانوفتش وهو يغلق عينيه . ثم أضاف : « اننى أشعر باعتلال ، وسوف أموت . دعنى أذهب . »

وألصق يده على صدره وجلس على احدى درجات السلم . وكان قلبه يدق فى سرعة ، فبدا جسمه كله كأنه يتحلل ، وقد حطمته رعشة مفزعة . وفى تلك اللحظة شعر بالكراهية نحو جسمه المرتعش الغارق فى العرق ، وصوته المهشم . ومر أحد الأشخاص ومسح وجه القبطان عرضا بذيل سترته . وأدار القبطان وجهه بعيدا ، وبدا له من العبث التعلق بالحياة ، وان من الأفضل الكف عن الوجود نهائيا . ولكنه فى اللحظة التالية لاحظ خلال جفنيه المغلقين النور الاحمر المتلألىء يقترب شيئا فشيئا ، ويزداد نصاعة ، وكاد يختنق من القلق .

ونادى فى صوت خفيض : « يا ألكسندر ايفانوفتش ! ان لدينا فى خزاناتنا زيت كراسنوفود كما تعرف ! آه ، يا الهى ! »

وصاح بازوف وهو يدفع بالبحارة ناحية السلم : « افتحوا صنابير الماء فى كل مكان ! وليراقب الوكيل الثانى للقبطان العملية . هلم يا رئيس الملاحين ! قف بجانب البطاريات الحمضية ! وفى حالة حدوث حريق اتبعوا التعليمات . افتحوا صنابير الماء ! »

وكان أليافدين فى ذلك الحين يقف بالقرب من موجه السفينة ووجهه متوتر شاحب . وكان من الواضح أنه مضطرب ، ولكنه كان يحاول أن يبدو هادئا تماما . وكان بالمثل راضى النفس عن الامتحان الذى تعرض له .

وصاح وقد شجعه رنين صوته الخاص : « الى اليسار قليلا ! وقليلا أيضا ! كفى ! »

وكان وهج اللهيب قد صنع نصف دائرة ، واستحالت صفحات

الزبد حول السفينة الى اللون الأحمر . وفى المكان الذى كانت السفينة تتوجه اليه كان عمود أصفر من الدخان يقسم السماء القرمزية المتوهجة قسمين ، وهو يتمايل فى الهواء كأنه شجرة لهذا جذور مشتعلة تزحف عند أسفلها فوق الماء .

وقال بازوف وهو يصعد الى القبطان : « أؤكد لك أنه ليس هناك خطر على الاطلاق . » وأضاف : « يبدو أنك شفيت . اننا سننزل الزوارق الآن » . وقد أضاف كلماته الاخيرة وهو يبتعد ، ولم يكن واضحا منه ما اذا كان يطلب تصريحا أم يصدر أمرا .

وقال القبطان فى نفسه : « سرعان ما سينجلى الأمر . » ثم أضاف : « اننا نقترب من الجانب المحجوب عن الريح ـ فهو يصنع كل شىء على الوجه الصحيح ، وهم جميعا يطيعونه ، حتى اليافدين ـ انه يحسب لكل شىء حسابه . فلا يفقد صوابه ! »

وظهرت السفينة المحترقة عند مقدم الجانب الأيمن للسفينة ، وهى تبعث بالدخان فوق الماء وبرز مقدمها الذى لم تلحق به النار تلفا . وكانت ألسنة النار تلعق الماء فى كل مكان حولها ، وتندفع الى ذؤابات الأمواج السوداء .

وقال ايفجينى استفانوفتش لنفسه : « ان الزيت يشتعل فوق الماء ، فقد فاض من فوق السفينة واشتعلت فيه النار . » ودوى النفير دويا يصم الآذان ، وخيل اليه أنه قد مزق السماء الملتهبة بدويه . ثم هدأ كل شىء . وكان فى استطاعته أن يسمع الأصوات ينادى بعضها بعضا تحته ، وخرير الماء ، وصياح بازوف فى أنبوبة الاتصال وهو يقول :

ـ هدىء السرعة ! شغل الآلة الاحتياطية . حسن .

وهبت فوق السفينة هبة قاسية ممتدة من ريح لافحة ، وكان من

الممكن سماع دوى رتيب قوى كأن فرنا قد احترق ، والريح تعوى في حفرة الرماد .

وصاح ايفجينى استفانوفتش على غير انتظار وهو يمنع نفسه في سرعة مختلسة : « الى الجانب الأيمن من السفينة ، أكثر من ذلك ! » ثم أضاف : « أوقفها ! »

- ٤ -

وعلى سطح الصوارى كان الملاحون يجذبون الأغطية القماشية عن زوارق النجاة . وكان واحد منها يسطع عليه النـــور الآتى من وهج النار ، ومن تحته ، وعند جانب السفينة ، كان الزبد الفائر أحمر اللون . أما الزورق الثانى فكان على الجانب الآخر من سطح الصوارى ، وكانت الأمواج الصاخبة أسفله مختفية فى الظلام .

وكان حسين أول من قفز الى الزورق الذى كان يسطع عليه النور ، وحين استقر عليه حل المجاديف . ومن ورائه جاء فاموشكين ، وهو ملاح في منتصف العمر ، ظل حتى تلك اللحظة قلقا يعمل فى عصبية قرب جانب السفينة ، ويساعد على رفع الأغطية عن الزوارق . »

وتمتم قائلا : « ان الزورق أكثر أمانا ، فهو بعيد عن الزيت . »

وجلس عند دفة الزورق ، وهو يمسك حافتيه بكلتا يديه ، ويلقى بنظرة انكسار الى حسين ، كأنه خجل من خوفه .

وصاح حسين : « فلنمض فى طريقنا ! » ثم أضاف : « ان الملاحين السوفيتيين لا يتركون رفاقهم ! أتفهم ؟ . »

وكان فى ذلك الوقت نشطا وغاية فى المرح . وفى حين كان الملاحون يقودون الزوارق ظل هو ينظر الى السفينة المحترقة كأنه يتعجل رؤيتها عن قرب .

وجاء فولوديا ماكاروف مسرعا متقطع الأنفاس ، وأومأ الى الملاحين الذين كانوا ينزلون الزورق .

وصاح : « انتظروا ! سوف أذهب معهم ! انتظروا ! »

وصرخ حسين وهو يقف عموديا ويحفظ توازنه بيديه : « أنزلوا الزورق ! لماذا تتوقفون ؟ انما نمضى فى طريقنا ! »

فقال فولوديا متلعثما : « كيف لك هذا يا مصطفى ؟ ان بازوف سيذهب ، وأنت ، وكوتلنيكوف ، وقد قضينا الحياة معا ، والآن »

« عليك أن تظل على اتصال بالبر ، فاذهب الى جهازك اللاسلكى ! ألست تؤمن بالنظام ؟! »

وانزلق الزورق بجانب السفينة ، وشق بمقدمته الأمواج عندما أخذ حسين يدفع الماء بأحد المجاديف .

وكرر فولوديا عبارته فى أسى : « كيف لك هذا ، اننى الشخص الوحيد الذى لا يذهب ! »

وانساب الزورق بين الأمواج السوداء ، وأخذ الماء يدخل منه . وارتفع مجدافا حسين فوق الماء فى دفعات مستعرضة ، وكان هو نفسه يميل أحيانا الى أمام ، ويستند أحيانا الى ظهره كما لو كان سيرقد فى قاع الزورق . وتوارى هيكل الديربنت فى الظلام، وهو متوهج من أجيج النار ، وانزلق الزورق الثانى تحت مقدمتها ،أحمر شاحب اللون ، وضعيفا كقشرة البرتقال .

وقال حسين وهو يحرك مجدافيه : « ها هو ذا بازوف يقدم » ثم أضاف : « ان الملاحين السوفيتيين لا يتركون رفاقهم ! » وقد كرر هذه العبارة فى لذة ، وربما أعجب بها بازوف أيضا ثم قال : « اننى على صواب ، أليس كذلك يا أخى ؟ »

وارتفع الزورق فوق موجة عالية ، وسطع عليه النور عندما كان على قمتها ، وهبت نحوه أول لفحة من الدخان .

وسعل فومشكين ، ولوى فمه فى تشنج محاولا أن يبتسم .

وصاح به حسين وهو يستدير اليه : « اجعل الاتجاه دائما نحو النار » ثم أضاف : « الى أين أنت تتوجه ؟ »

فتمتم الآخر ، وهو يستدير ليلتفت الى السفينة الملتهبة ، قائلا : « ليس من أحد هناك » ثم أضاف : « انظر ! ان الماء يشتعل بالنار »

وكانت أشرطة عريضة من النور تضوى حولهم ، والماء يتلألأ عندما يتساقط من المجاديف .

وظل حسين ينظر من فوق كتفيه ، محاولا أن يرى ما كان يحدث في الأزبكستان . ورأى ألسنة مدببة من النار ترتفع فوق مركز الاتصال ، والنوافذ المفتوحة فى الحجرات العلوية تبعث بسحب من الشرر . وفوق حائط السفينة كانت سيول متلظية من الزيت تفيض كما لو كانت آتية من وعاء الغلي الكبير ، وتنتشر فوق الماء فى جداول من النار ترى فى صعوبة خلال ستار الدخان .

وكرر فومشكين عبارته فى تشبث : « ليس من أحد هناك ! » ثم أضاف : « هلم بنا نعد يا مصطفى ! »

فصاح به حسين مهددا : « اسمع ، لا أريد منك كلمة أخرى ! »

وهبت ناحية الزورق لفحات حمراء من الدخان ، أمكن رؤية شيء يشبه العوامة خلالها . واقتربت العوامة ، وهى تتدافع فوق الأمواج . وبدت كأنها تتلوى بصورة غريبة ، ككائن حى له شوارب حساسة فى كل ناحية . وألقى حسين بالمجدافين ، وذهب الى مقدمة الزورق ، فرأى رجلين يتعلقان بعوامة نجـــاة ورأساهما ملتفان صـــوب الزورق القادم .

وصاح حسين بأحد الرجلين وهو يصوب اليه نظره خلال الماء : « ناولنى يدك ، هلم أقبل يا رفيق ! »

وكانت اليد زلقة وباردة ، فأمسك حسين فى حرص بالجسم الرخو من تحت ابطيه ، وجذبه فوق حافة الزورق .

وقال حسين وهو يجذب عوامة النجاة اليه : « ارقد يا صديقى واسترح » ثم أضاف : « حسن ، هلم الى الثانى ! »

وكان الثانى عريان تقريبا ، وظل جسمه الزلق يفر من بين يدى حسين . وكانت احدى عينيه مغمضة فى احكام ، وكانت الأخرى تفتح حينا فى حملقة غير واعية ، وحينا تغمض جفنيها المرتجفين . وسقط فوق قاع الزورق ، ورفع ركبتيه ، ورقد كتلة متراكمة .

وقال وهو يأخذ نفسا عميقا : « أيها الأصدقاء ، لقد قدرنا أن هذا سيحدث »

فقال حسين وهو يتناول المجدافين : « يمكنك أن تخبرنا بذلك فيما بعد . أين زوارقكم ؟ »

فقال الرجل الذى أنجى ، خلال نوبات من الرعشة : « لقد رأيت واحدا منها كان قد أنزل ولكنه بدون مجاديف . وأظن أنه انقلب عندما قفزت . يا الهى ، ما أبرد الجو ! »

وجاء زورق الديربنت الثانى يهدر فى الخلف ، ويرتطم بالأمواج، ومساند المجاديف فيه تحدث أزيزا .

وصاح بازوف الذى كان يجلس عند الدفة : « لقد تغير وجه الريح ، فلا تضيع الوقت يا مصطفى ! »

فأجابه مصطفى وهو ينحنى فوق المجدافين وينظـر الى الرجلين الأولين اللذين أنجيا كملاك قد جاء الى البر بصيد طيب .

وفجأة قفز فومشكين الذى كان يجلس طوال الوقت دون حراك . وتجهم وجهه قلقا ، وخلع معطفه ، وخطا فوق المقعد ورفع الرجل العريان من كتفيه .

وقال فى اصرار : « خـــذ هذا فالبسه ، فلست فى حاجـــة اليه . »

فقال حسين : « يا للأسف ! فليس عندى شيء على الاطلاق » . ونظر الى صدره العارى وقميصه بكميه المطويين الى أعلى ، وهو يستشعر الأسف لكونه لا يجد معه شيئا يمكن أن يقدمه .

وكانت ستارة كثيفة من الدخان تقترب فوقهم ، ثم انثنت حول جانبى الزورق ، ودارت كما يدور الماء تحت ضربات المجاديف . وهناك قريبا توهجت ألسنة النار ، وهبت تيارات من الهواء اللافح على وجه حسين ، فبدأ يسعل ، ومسح الدموع التى اغرورقت بها عيناه ، مسحها بأهداب عينيه .

وصرخ فومشكين وهو ينظر خلفه ، قائلا : « انه الزيت يحترق ، انه ينتشر ، ولا نجاة لنا منه يا مصطفى .»

وأمره حسين قائلا : « صه ! ان هناك من ينادينا » وقفز الى المقعد وأنصت .

وخلال زفيف النار الرتيب انبعثت صيحة ضعيفة منتزعة ،كصيحة رجل مجهد فقد الأمل فى أن يسمعه أحد .

فصرخ حسين قائلا : « نحن قادمون ! هيا ارفع صوتك ! »

وفى هذه المرة صاحت عدة أصوات استجابة للنداء ، ولكن الصيحات تلاشت كأنها ماتت على جدار . وبرزت من الدخان المقدمة المدببة لزورق ، وانسابت فى بطء ، مارة بهم . وانطوى الملاح الجالس عند المجدافين وقد أخذت نوبة من السعال تهزه . فترك بازوف الدفة، وأسرع اليه كانت الدموع تنساب على وجنتيه ، وظل يمسح بلسانه شفتيه الجافتين ويتنفس الدخان اللاسع .

فقال له فى صوت صاخب غريب : « جدف ! جدف والا ...! »

ورفع الملاح وجهه الأحمر ، وحملقت عيناه كعينى فرس أصابه الفزع . وبدأ يجدف . وبعثرت الريح الدخان ، وأطارت فوق البحر

رقائق سوداء من السناج . وفجأة رأوا جميعا على الرقعة المنبسطة من البحر زورقا مقلوبا يتراقص على الأمواج .وكان رجال عديدون يرقدون فوقه ، وكان آخرون يناضلون لكى يتسلقوا جانبيه الزلقين زحفا ، ولكن موجة جاءت وطوحت بهم الى الماء . وكانت رقع من الزيت تحترق وتبعث بالدخان من حولها ، وكان فيض كثيف من النار ينتشر فى بطء من الجانب المقابل . وترك فومشكين الدفة ، وشرع ينظر حوله ـ وقد انثنى على مقعده ـ بعينين شبه زائغتين . وانعطف الزورق جهة اليسار .

وتلعثم وهو يقول فى غير وضوح : « انظر يا مصطفى ، انظر خلفك ! انها تحترق ! »

وكان شبح الديربنت الثابت يقف على بعد ، وكانت شعاعات حمراء تضوى كالنور على سطح الصوارى بها .

وتأوه فومشكين وهو يقول : « ان الديربنت تحترق » ثم أضاف : « حياتى فى ذمتك يا ابن العاهرة . أين يمكننى أن أذهب الآن ؟ ليس سوى البحر يحيط بنا من كل جانب . آه ! »

وحملقت عيناه بشكل مريع فى الظلام ، وأخذ ينهنه باكيا بصوت مرتفع ، وقد غص بالدخان . وكشر حسين عن أنيابه ، وتخطى اليه المقاعد ، فتراقص الزورق .

وجأر يقول : « صه ! والا مزقتك اربا ! سألقى بك من الزورق ! فاسكت! »

ورفع قبضته ولكنه لم يضرب ، وأمسك الملاح من ياقته وجذبه من مقعده . ولمعت الأضواء الحمراء على الديربنت مرة ، ثم مرة ، واختفت .

وصاح حسين وقد أصابته غصة : « انظر أيها الأحمق ، انه

انعكاس النوافذ ذلك الذى أخذت تبكى منه . يالك من جبان ! »

ونزع الدفة من موضعها وجلس عند المجدافين . وكان زورق بازوف قد صار قريبا من طرف النار . وكان يتمايل بصورة خطرة بسبب الرجال المتعلقين بجانبيه ، متعجلين الخروج من الماء . وكان الزورق المقلوب يتدافع فوق الامواج ، وجانباه المبتلان يعكسان النار كالمرايا . وجدف حسين مقتربا منه ، ودفع بزورقه بكامل قوته اليه . ثم نهض فى الحال واقفا ، فقد لاحت فوق الماء أيد كالمخالب ، ورؤوس سوداء قد صير الماء شعرها أملس ، ووجوه بدت شاحبة .

وصاح حسين وهو يجر فوق جانب الزورق جسما ثقيلا بلله الماء: « رفقا ، لا تتعلقوا جميعا بجانب واحد ، والا قلبتمونا . »

واستطاع أن يشعر على وجهه وصدره العارى باقتراب النار غير المحتمل ، وبدت عيناه كأنهما على وشك أن تنفجرا من الحـــرارة اللافحة ، ولكنه استمر يجذب الأجسام الزلقة من الماء ، ويضعها على الجانب الآخر من الزورق حتى لا ينقلب .

وقال وهو ينثر حفنة من الماء الملحى على وجهه : « سوف أحملكم جميعا ، فلا تتشبثوا هكذا ! أتظنون أننى سأترككم هنا ؟ يالسوء ظنكم بى ! »

واصطدمت يداه بجسم عار تماما ، جامد لا حركة فيه ، فحاول أن يرفعه ، ولكنه انزلق من بين يديه ، فأمسك به من شعره ، ولم يتركه هذه المرة يفلت منه . وكان الزورق المقلوب ينبعث منه دخان ، وكانت ألسنة صغيرة من النار تزحف خارج ستار الدخان ، وتلعق جانبيه فى حرص . وكان زورق بازوف قد وجه مقدمته صوب النار ، فمر قريبا منهم ، واستطاع حسين أن يرى بازوف وهو يجدف ويرفع مجدافيه فى بطء كأنه يرفع شيئا ثقيلا فوقهما .

وصاح المهندس فى نفس صوته الرنان كما كان من قبل : « عد ! فان قميصك تأكله النار من خلفك · فابتعد ، قلت لك ! »

ولكن حسينا كان ما يزال يناضل لرفع الحمل الثقيل لذلك الجسم الهامد · وقد رفعه من الماء الى منتصفه ، ثم جمع قوته ، وأمسك به من تحت ابطيه ·

وهبت فجأة هبة ريح لافحة ، وتطاير الشرر قريبا ، وأحس حسين بألم لا يطاق · وأن شخص بالقرب منه أنينا عاليا من بين أنيابه التى كشر عنها ، وشرع يضرب على جانب الزورق · وشد حسين كل عضلة فيه ، وتغلب شيئا فشيئا على العبء المعلق على يديه · وحين انتزع الجسم أخيرا من الماء سقط على المقعد ، وراح يلتمس المجدافين ·

ولم يكن يستطيع أن يرى شيئا فى الظلام · وأخذته نوبة سعال، وطفت أمام عينيه دوائر سوداء · وأخذ يجدف ، وهو يرفع المجدافين ويغمسهما فى الماء بصورة آلية ، ويطوح بجسمه الى الوراء ، ويلتمس الاتجاه تخمينا ·

وخف الدخان شيئا فشيئا ، وصار الهواء أكثر صفاء · وتنفس حسين تنفسا عميقا عدة مرات ، وتنخم ، وبصق من فوق الزورق · وكانت عيناه تسكبان حرارة ولكنه استطاع أن يرى خلال دموعه لفافات مجعدة من الدخان تطفو على متن الريح ، ومن خلفها الهيكل الأسود الذهبى للسفينة المحترقة · وكانت النار تزحف فوقها كحيوان كث الشعر أحمر اللون يزحف فوق الهيكل العلوى لهـــا ويتسرب الى ظهرها · وتحت أنيابه انبعثت نافورات من الزيت المحترق ، ثم دارت فى بطء على جانبها فظهر قاعها المسطح فوق الماء ، واندفع من عنابرها سيل ذهبى جارف من الحمم ، أنار فى الظلام دائرة فسيحة من البحر ·

وعند حافة هذه الدائرة المضيئة كانت الديربنت · فجدفت قوارب الانقاذ البيضاء صوبها وقد غصت بالرجال · وكانت مقدماتها ترتفع

وتهبط ، وأكف المجاديف تلمع وهى تدفع الأمواج . وكان ثلاثة منها فى المقدمة ، فى حين تأخر واحد منها فى الخلف . فأبطأت الزوارق التى بالوسط حتى تجعل الزورق المتخلف يلحق بها . وقد كان عامل التجديف فيه يجدف بضربات غير منتظمة ، وهو يتمايل على المقعد كالثمل . فأخذ رجل آخر مكانه وسرعان ما وازى الزورق المتخلف الزوارق الاخرى . وظلوا برهة يجدفون متراصين فى صف واحد ، ولكنهم فجأة أبطأوا جميعا فى وقت واحد وقد توازنت مجاديفهم فوق الماء .

وهبطت مؤخرة السفينة المحترقة فى الماء ، وظل جانبا مقدمتها الأسودان بارزين ومغلفين بسحب من الدخان حجبت وجه السماء بحجاب أسود . ومالبث الدخان أن تلاشى ، ولم يعد هناك حيث رقدت الأزبكستان شىء آخر يرى . لا شىء سوى خيوط عريضة من الزيت كأنها طرق على البحر تحترق فى شعلات موحشة .

وصارت صفوف الأبواب الأرضية والنوافذ المضيئة فى السطح العلوى للديربنت أكثر وضوحا ، وشق دوى النفير الصاخب الهواء يدعو اليه الزوارق .

وجلس حسين القرفصاء فى قاع الزورق ، وأسـند كتفه على شخص صغير يجلس تاليا له . وعندما توارى هيكل الأزبكستان فى البحر بدأ الشخص الصغير يبكى ، فأمسك حسين بيده فى صمت فوجد يده صغيرة ورقيقة ، فخطر له ان الرجل الناجى لا بد ان يكون قصيرا ونحيلا جدا كالطفل .

فسأله فى لطف : « أهذا أنت يا فالريان ؟ »

فأجابه عامل اللاسلكى الصغير فى صوت خفيض عميق : « انه نا طبعا ، ومن أنت ؟ »

— أنا حسين ، سواق من الديربنت . لماذا تبكى ؟ هل أصابتك حروق ؟

ـ لا ، ليست كثيرة ، ولكننى حزين من أجل سفينتنا • ألست أنت كذلك ؟

ـ بلى ، اننى حزين •

وتنهد الصبى تنهيدة طويلة مرتجفة •

واستند الى كتف حسين وهمس : « هذا هو قاربنا ، فقد نجا اذن • وقد انقلب الآخر ، وكنت أنا فيه ، ولكن بعض رجالنا مفقود » • ثم أضاف : « اسمع ، هذا هو العم كوليا ، وقاد سفينتنا، يرقد هناك • انه لا يتحرك ، ويبدو أنه لا يتنفس كذلك ، أخشى ••

فقال حسين وهو يحتضن الصبى : « ان العم كوليا قد مات » •

وتجمع الرجال عند جانب الديربنت ، وقد أضاء من خلفهم نور قوى على ظهر السفينة • وانكب فومشكين على مجدافيه فى نشاط ، ناظرا خلفه الى الأسلاك المتدلية من الأذرع الحاملة للزوارق على جانب سطح الصوارى •

وصاح حسين وهو ينهض : « أسرع ! مرحى ! انها الديربنت !»

وكان يتنفس أنفاسا قصيرة غير منتظمة ، واستطاع أن يشعر بشىء يموج ويحك فى صدره • وكان جلده مشويا ، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع •

وانزلق الزورق فى طريقه ، ورأى حسين فولوديا من الجانب ينظر اليه فى قلق وجزع ، فابتسم له ، كرجل يعرف وجها أخويا عطوفا ينحنى عليه بعد كابوس مفزع • وكان على وشك ان يقول انه لا يستطيع ان يرى أو يقف على قدميه ، وأنه يشعر بألم ، ولكنه لم يقل شيئا • ولكنه اكتفى بأن يصدر أمره فى صوت جدى أجش، قائلا :

ـ جهز الملابس يا فولوديا ، فبعضهم قد أصابته حروق •

وقف بازوف على ظهر السفينة يحمل على وجهه عصابات ممزقة قد غمست فى محلول المنجنيز . وكان ضجرا لعدم قيامه بأى عمل، فأراد أن يذهب الى عنبر المحركات ، ولكن دوجايلو أصر على أنه لا بد ان يحمل تلك الخرق الباردة على وجهه .

وقال له رئيس الملاحين وهو يرفع اصبعه محذرا : « يجب عليك أن تمنع الجرح من أن يتقرح » . ثم أسرع الى حجرة الاستقبال حيث كان المصابون بحروق تربط حروقهم .

وكانوا مجموعة كبيرة ، وكلهم يشكون من احساسهم بالبرد وعدم قدرتهم على التنفس . ودخل اليهم بازوف ولكنه لم يستطع ان يجد لنفسه عملا . وكان بعض بحارة الديربنت يعرفون الاسعافات الأولية ، فأخذ الكهربائيون يخلعون ملابس الضحايا أو يكتفون بتمزيق الخرق المبتلة منها ، وقامت فيرا بعملية الربط وهى تتفحص فى قلق كل وجه من الوجوه المشوهة الجامدة لتتأكد من أن الرباط لم يكن مشدودا جدا .

ورقد الضابط البحرى بالأزبكستان على وجهه فوق المنضدة ، وكان قد أصابه الانفجار بجرح فى رأسه . فأمسك بالمشمع ، واختلجت كتفاه عندما كان فولوديا يخرج من الجرح خصلات من الشعر ، وتجهم وجهه ، وراح يلقى بنظرات حائرة الى زجاجة اليود .

وراح يلهث وقد احمر وجهه وهو يقول : « أنا لا أطيق هذا » . ثم أضاف : « لماذا تخدعنى أيها الصديق ؟ »

فأجابه فولوديا وفى وجهـــه نظرة يأس : « أرجوك أن تتحمل قليلا » وغمس قطعة من القطن الطبى فى اليود ومر بها فوق حافة الجرح ، فأجفل الضابط البحرى ، وصر بأسنانه ، وراح يهمهم .

فقال فولوديا بتعبير الجراح الذى فرغ لتوه من عملية جراحية معقدة : « لقد انتهى كل شىء » . ثم أضاف : « يا فتيا ، ضعى الرباط على هذا الرقيق » .

ومد حسين يديه المحترقتين الى فولوديا عن طواعيـــة . وكان وجهه قد ربط على عجل ، وكانت عيناه الملتهبتان الدامعتان تنظران خلسة من خلال الأربطة . ورأى بازوف فارتفعت معنوياته .

وسأل فى سخرية : « أتظن أن هناك ألما ؟ » ثم قال فى تعجب وهو ينظر الى يديه : « انظر ما أعجبهما ! انهما حمراوان كالجزر ! »

فهمهم فولوديا فى تعاطف مكتئب قائلا : « اسكت يا (أرمة) ! ثم أضاف : « لعلك تظن أن جلدى هو الذى كان يتسلخ لا جلدك » .

وتناثر على الأرضية قطع من الأربطة والخرق الممزقة ، وفاحت فى المكان رائحة المستشفى . وفى كل مكان لاحت الأجسام البشرية العارية فى الضوء الساطع . وبقى بازوف قليلا ثم خرج الى ظهر السفينة . وكانت السماء فوق الصوارى هى تلك السماء الزرقاء الشـــفافة التى تسبق الفجر . وفيهـــا بدت النجوم غارقة ، ومن خلالها جاء بريقهـــا كأنه جاء من خلال ماء بلورى صاف . ولـــكن بازوف كان ما يزال يتخيل انه رأى فى البحر انعكاس الضـــوء الأحمر ، وكان أحيانا يبدو كأنه لا يرى على الاطلاق . لقد كانت يداه ووجهه تحترق ، ولم يستطع ان ينسى مناظر الليلة السابقة . وقد كان كل ما صنعه فى تلك الليلة مغرقا فى الخيال حتى انه لم يرد ان يفكر فيه . ثم انه لم يصنع شيئا فى سبيل تقويمه . وراح يفـــكر فى الرجال الذين عملوا معـــه ، والذين كانوا موضع حبـــه وافتخاره .

لقد ظن قبل ذلك ببضعة أشهر فقط انهم جميعا لا يرجى منهم خير ، وأنهم غير مخلصين فى عملهم ، وحقراء • أجل ، لقد كانوا فى ذلك الوقت خلاف ما هم عليه تماما • وقد اختفى أولئك الرجال ، ونسى هو أسماءهم وأشكالهم • فحسين وفولوديا وياكوبوف البراد — هؤلاء قد عرفهم منذ زمن بعيد ، وهم لم يكونوا أسوأ من البرادين أو من أيبات الخراط الذى كان يعتز به ذات يوم غاية الاعتزاز •

وكان قد ظن حين ترك الورش فى الربيع ان الحيـاة بالنسبة له قد انتهت ، ولكنه الآن قد اكتسب معرفة أفضل ، فسوف تشيد فى العام القادم نماذج جـديدة أرقى ، ثم ان كثيرا من السفن قـد بدأت الآن تقوم بالرحلات الاستخانوفية ، وعادت الأجماليا لتلحق بهم وتهددهم باحتلال المكانة الأولى • ثم ترى كيف سيكون بحارة الديربنت فى العام القادم ؟ وخطر لبـازوف انه لو ترك الديربنت الآن فلن يكون لغيابه أى أثر • ولهذا السبب — على وجه التحديد — أدرك انه قد لا يترك السفينة فى نهاية الموسم •

وبدأت نفسه تبتهج ، فشرع يصفر ، والعصابة فوق وجهه ، نغما فيه عجرفة وشراسة ، وكان يخرج عن اللحن ، ويضطر من وقت الى آخر لأن يتوقف كى يسلك زوره • وتمشى على ظهر السفينة ،وحين وصل الى حجرة الخطاف توقف فجأة ، وانقطع الصفير •

وكانت على ظهر السفينة أجساد مغطاة بعلم مؤخر السفينة • وكانت الريح قد رفعت طرف العلم فكشفت عن الأقدام الجـامدة الممتدة من الرجلين اللذين توفيا • وكيف استطاع أن ينساهما ؟ وهو نفسه قد ساعد فى وضعهما فى ذلك المكان ، وكان هو الذى غطاهما بالعلم • وتذكر أنه كان هناك اثنان منهم ، وان واحدا قد غرق قبل ان يصل اليه زورق الانقاذ • هذا شىء ظل يعرفه طوال الوقت ، ولكنه قد نسيه الآن لسبب ما •

وقال فى نفسه كأنه يحاول أن يجد له عذرا : « انه التعب » • ثم

حاول أن يستعيد الشعور المذهل الذى شعر به عندما رأى الرجال الموتى لأول مرة ·

ولكنه لم ينجح ــ رغم المحاولة ــ فى أن يستغرق فى الأفكار الحزينة ، فقد كان اللحن المتعجرف ما يزال يرن فى أذنيه ·

وقال فى نفسه : « ما شأنى ؟ ان الرجال قد فقدوا حياتهم ،وهذا شىء لا يمكن اصلاحه · وكيف أستطيع ان أفكر فى أشياء تافهة ، وان أكون سعيدا ، وان أحلم بالمستقبل ؟ هل صرت قاسى النفس وفقدت شعورى ازاء الرجال لمجرد أننى تعودت ان أقودهم ؟ اذا كان الأمر كذلك فليس هذا مكانى » ·

وجاوبته نفسه : « هذا خطأ ! فقد اقتحمت النار من أجل أولئك الرجال ، وجعلت الآخرين يصنعون نفس الشىء · وأنت أحببتهم دون ان تكون قد رأيتهم · وأى شعور آخر يمكن ان يكون قد حفزك لأن تصنع ما صنعت البارحة ؟ ولكنهم ماتوا ، ولم يعد لذلك كله فائدة · وقد أوشك مصطفى حسين ان يفقد حياته وهو ينتزع جسدا ميتا من الماء · وهو شخص لا يعرف ما الخوف ، وينطوى على قلب حنون · وحين تقارن بينك وبينه تجد أنك فظ وكئيب رغم كل ما تعرف · أما هو فمرح ، فهو يفكر فى المحركات أثناء تضميد حروقه ، وفيما سيصنع عندما يهبط الى الارض · وهل يمكن ان يعود حزنه على الموتى بأى نفع ؟

وبسط بازوف العلم ومضى · وكان وجهه يلتهب ولكن قلبه كان هادئا · ونظر الى ساعته متسائلا ما اذا كان الوقت قد حان لاخطار الميناء عن طريق اللاسلكى بوصولهم · وسمع خرير ماء ، فقد نسوا ان يغلقوا صنابير سطح الصوارى ·

ثم قابل كوتلنيكوف الذى ابتسم له فى غموض ، وصعد به الى أحد المصابيح ·

وقال كوتلنيكوف : « ان معى شيئا ، وهو شىء مهم ، فهل تريد ان تراه ؟ » وناوله قطعة من الورق كتبت بخط يد مائل معتنى به وفى ضوء المصباح قرأ فيها بازوف :

- لا نستطيع ان نساعد الأزبكستان بسبب الريح الشــديدة والشرر . أرسلوا سفينة انقاذ - الديربنت - كوتازوف .

وقال بازوف مخمنا : « هل كتب القبطان ذلك ؟ وأين وجدتها ؟»

- « الأمر غاية فى البساطة . فقد كتبها كازاتسكى وأعطاها لفولوديا لكى يرسلها عن طريق اللاسلكى ، بينما كان مصطفى يطلق النفير . وطبيعى ان فولوديا لم يرسلها . وأراد ان يلقى بها فى المرحاض ، ولكننى اختطفتها منه . أجل ، وقلت له ان هذه وثيقة قيمة ، فهاتها ! فسوف تقدم فى المحاكمة » . وطوى الورقة فى عناية وأضاف : « انهم لن يجدوا مخرجا الآن ! وسوف نجعل الطفيليين يندمون . كم سنة تظن أنه سيحكم بها عليهم ؟ »

فقال بازوف : « لست أدرى فأنا لست قاضيا ، ولكن موقف الرجل العجوز مؤسف » .

- ومن ذلك الذى يؤسفك موقفه ؟

- قلت لك الرجل العجوز ، القبطان ، فموقفه مؤسف . وهو فى الحقيقة سيىء الحظ .

وتلاشت ابتسامة كوتلنيكوف .

وقال : « مؤسف ! حسن ، انك تثيرنى ! ماذا تريد أن تصنع الآن ؟ أتريد ان تحميه ؟ هل هذا ما تعنى ؟ »

فقال بازوف مرتبكا : « انك لم تفهمنى » ثم أضـــاف : « أأنا أحميه ؟ اننى لم أقل سوى ان الرجل العجوز كان تعسا » .

- « أقلت تعسا ؟ وهل رأيت الأجساد الملقاة هناك ؟ » . هكذا

صاح كوتلنيكوف فجأة وهو يشير فى اتجـــاه حجرة الحطاف . وأضاف : « فلولا رجلك العجوز لكانت تلك الأجساد المحرقة ما تزال أجساما لرجال أحياء . استمع الى : انك ان كنت تفكر فى حاجته »

فأسرع بازوف يقول معدلا لموقفه : « ان هذا لم يخطر على بالى ، وكان مجرد غباء منى ان أقول ذلك » .

— « أعتقد هذا ! ومن حسن حظك أننا بمفردنا . اسمع ، ان الرفاق غاضبون الآن ، وعامل اللاسلكى الصغير يرقد فى سريرى ، وقد أدخله مصطفى هناك ، آمنا مطمئنا ، سوى ان شعره قد احترق قليلا . وكان أول الامر يبكى ، واستشعر الأسف من أجل السفينة ، ومن أجل دفاتر ملاحظاته التى احترقت ! فقد كانت فيها مادة طريفة بحسب كلامه . وقد استسلم الآن للنوم . وهو نحيل جدا ، وذراعاه تشبهان مغزلين . ينبغى ان تذهب لتراه » .

وكانت السماء جهة الشرق يلوح فيها الضوء سريعا . ومن وراء البحر لاحت جبال كأنها سحب شامخة ، ومن خلفهـــا تراكمت السحب كأنها جبال مكسوة بالجليـــد . ولاحت حافة الشمس ، وصارت قمم الأمواج حمراء لؤلؤية .



ضـــرورة

وعندما طابت نفس موزيا أخيرا ارتدت ملابسها على عجل . ولم تكن ترغب الا فى شىء واحد هو ان تخرج دون ان يلاحظها أحد ، حتى تتجنب أسئلة زملائها . ولكن ليزا زفونيكوفا حامت حولها واحتجت في صوت ناعم قائلة :

ـ لماذا لا تخبريننا يا عزيزتي موزيا . ما أبشع ان يحدث هذا ! هلمى يا عزيزتى موزيا أخبرينا !

فقالت موزيا فى سرعة وهى تلبس قبعتها أمام النافذة : « اننى أشعر بصداع » . ثم أضافت : « والأمر من المشقة بحيث لا يميل الانسان الى حكايته . وسوف يخبركم تاروموف بكل شىء » .

وذهبت الى الباب ، ولكن ليزا وصلت اليها وأمسكت بيديها .

ـ ولكن صديقك يا موزيا على السفينة ، فماذا حدث له ؟ موزيا يا حبيبتى !

فانطلقت موزيا تقول فى غيظ : « هل تذكرت هذا لتوك ؟ » ثم أردفت : «اننى لا أعرف شيئا ، فدعينى وحدى » .

وأسرعت الى الدفة وهبطت السلم . وكانت الشمس مشرقة خلف المنازل البيضاء ، وبعثت الرياح برائحة الخبز الساخن من المخبز ، وكان الناس يسرعون الى موقف الترام ، ويقفزون على عجل داخل العربة . وكان القلق باديا فى وجوههم كالمعتاد، والنوم مازال يرنق قليلاً فى عيونهم .

واتخذت موزيا لها مقعدا بين امرأة عجوز سمينة كانت تمص فى فمها قطعة من الحلوى وبين رجل أسمر الوجه يلبس (باباخا)«١» . وأحست بالوحدة الكاملة .

وقالت فى نفسها : « سوف يصلون الآن الى ما خاش - كالا ، وسيكون ساشا واقفا على ظهر السفينة ينظر الى الشاطىء . ولكن ما الذى يدعوه لأن ينظر الى الشاطىء ؟ ويحتمل ان يكون نائما فى حجرته فى هدوء ، فهو دائما هادىء وراض عن كل شىء وأنا أذوب قلقا ولا أدرى لماذا . أوه ، يكفى هذا . ولكن أيمكن ان يكون قد احترق ، وانه يرقد مع الآخرين ؟ » وتخيلت فراشا أبيض وشخوصا لا حراك بهم قد غطوا بالملاءات . وارتجفت ، ونظرت حولها فى قلق . وكانت المرأة السمينة تطحن قطعة الحلوى ، وهى تنظر أمامها بعينين رنق فيهما النوم ، ووجنتاها ترتجفان من اهتزازات الترام . وكان الرجل الذى يلبس الباباخا على وشك ان يخرج ، وظل ينظر من النافذة .

وقالت موزيا فى نفسها : « منذ متى كنا سويا ؟ » ثم أضافت : « مايو ، يونيه ، يوليه » وعدت على أصابعها فى عجل وهى تحرك شفتيها ، واستمرت : « أغسطس ، سبتمبر ، اكتوبر ، ونصف

---

١ - فراء قوقازى

نوفمبر ، فهو لم يرسل أى خبر عنه قط ، بل استبعدنى من ذهنه ، وانتهى الأمر . حسن ، فليذهب الى الجحيم ، فهذا أفضل . آه ، يا ليتنى فى البيت !

وألقت بنظرة كراهية على المرأة العجوز السمينة ، وسحبت قدميها . وأحدث الترام صريرا فى أحد التقاطع ، ولاحت أشجار المتنزه من خلال النوافذ .

- ان تصرفى اليوم كان غاية فى الغباء . ويحتمل ان يظننى تاروموف مجرد دجاجة راقدة مثل جاليا جونخيرنكو التى تأخذ صورة زوجها معها الى الفراش . يا للشناعة ! ولكن هل لما يظنه أهمية ؟ المسألة أننى خائفة جدا ، ولا أستطيع ان أصنع شيئا فى ذلك . اننى أشعر كما لو كنت سأنفجر بالبكاء . أوه ، اننى مجنونة لا غير !

ونزلت موزيا من الترام عند منعطف شارع مولوكانسكايا . وكان يقف هناك على الرصيف رجلان يقرآن الصحيفة . وقال الرجل الطويل منهما ، الذى يلبس قبعة البحار ، للآخر

« لقد حدث ذلك البارحة ، ولهذا فلن يظهر فى الصحف اليوم بل غدا » . ونظر الى موزيا وابتسم . ثم وكز رفيقه بكوعه ،وقال: « فى باكو فتيات رائعات ! جواهر حرة ! »

وتوقفت موزيا عندما وصلت مفترق الطرق . وكان البحار ينظر اليها فى فضول وقح ، بل انه بدا على وشك أن يذهب اليها . وفكرت موزيا لحظة ، ثم جرت فى الطريق فجأة بأسرع ما تستطيع .

وقالت فى نفسها : « سأسأل فى المكتب عما اذا كانت هناك أخبار جديدة ، فليس فى ذلك أية غرابة ، فجميع الناس يسألون ، ولن أكون أنا الوحيدة . ولكن ماذا يستطيعون هم هناك ان يخبرونى

وأنا قادمة لتــوى من محطة اللاسلــكى ؟ آه يا لى من غبية مرة أخرى ! »

واستشاطت غضبا من البحار الذى كان ما يزال يحملق فيها ، ومن عربة لورى ، ومن نفسها ٠

ولم تعرف فى الحقيقة أى شىء جديد من مكتب الخط الملاحى ٠ وكانت بعض النساء يقفن عند المدخل ٠ وقد أدارت واحدة منهن ، شابة ، تلبس بلوزة صـــفراء ، أدارت وجهها الى الحـائط حتى لا يستطيع أحد ان يراها وهى تبكى ٠فقالت لها موزيا : «لا تجزعى، هل زوجك على السفينة ؟ »

ـ كلا ، ولكنه أحد معارفى

ـ على أى سفينة ؟

ـ على الديوبنت

فقالت موزيا لها : « لا تبكى اذن ، فزوجى هناك أيضا ولكننى لا أبكى ٠ وأؤكد لك ان كل شىء سيكون على ما يرام » ٠

ومسحت الفتاة عينيها وابتسمت ٠

وقالت : « أتظنين ذلك ؟ »

وأسرعت موزيا الى شارع الجنسكايا ، ووجنتاها ملتهبتان ٠

ـ لماذا أخبرتها عن زوجى ؟ لماذا كذبت عليها ؟ لم يكن هناك سبب لمجيئى الى هنا ٠ أجل ، فهو حى وهادىء كالمعتاد ، ويحتمل انه لا يفكر فى ٠ ومع ذلك فقد كانت تلك الفتاة تبكى ٠ أوه ، هذا عبث ! انه هو الذى مهر البرقية بامضائه ، ولكن ليس لهذا كبير معنى ، فقد كان يستطيع ان يصنع ذلك وان لم ٠٠٠ أوه ، بودى لو أن كل شىء كان قد انتهى ! »

ووقفت عند مدخل الفندق ونظرت فى المرآة على الباب · ووقفت أمامها فى المرآة فتاة تلبس (بيريه) وفى عينيها حزن عميق ، وقد غطى شعرها نصف أذنيها الملتهبتين ·

فهمست موزيا فى كراهية : « حسن ، أين ستذهبين الآن ؟ يجب عليك ان تنتظرى ؟ وهل يفيد قلقك أحدا ؟ كان ينبغى لك ان تبقى فى بيتك »

وأجابتها الفتاة التى فى المرآة فى تجهم وتقطيب كريه · وعندئذ راحت موزيا تتجول ، وسارت فى شارع المولوكانسكايا ، وانعطفت بصورة آلية الى دارها ، وصعدت فى السلم · وكان الأطفال يجرون حصانا خشبيا على أسكلة السلم محدثين ضجيجا · وخرجت جارتها تحمل غسيلا مبتلا ·

وقالت : « عزيزتى موزيا ، لقد جاء أحد المهندسين لزيارتك البارحة ، وأظن ان اسمه استومين » ·

وابتسمت ابتسامة حانية فاهمة ، كما يصنع عادة أولئك الذين مضى على زواجهم أمد طويل عندما يتحدثون فى شئون الآخرين الغرامية ·

وسألتها موزيا : « وهل ترك أية رسالة ؟ » · ·

ـ قال انه سيعود غدا · وكان يقول لى : (انك تخفينها منى ، ولكننى سأجدها مع ذلك) فأقول له : (أنت على صواب فى تخمينك ، فانظر ، ها هى ذى فى جيبى) · لماذا تخجلين يا موزيا ؟ لقد تمنيت لك الخير دائما ، وأعتقد انه رجل غاية فى اللطف » ·

فقالت موزيا فى لهجة حزينة : « ليس بيننا أى شىء » · ثم أضافت : « وأنت بهذا تسخرين منى » ·

ـ آه ، اننى أدرك ، فأنت فتاة كتوم · أليس كذلك ؟

ودخلت موزيا الى حجرتها ، ورقدت على الفراش متجمعةالجسم، ويدها تحت وجنتها كما كانت تصنع دائما قبل ان تنام . ولكن النوم قد لا يأتي رغم ان جسمها كله كان يؤلمها من التعب وأحست طوال الوقت بعدم الراحة ، وحاولت ان تتخذ وضعا أكثر راحة . ومرت بها لحظات صار فيها عقلها خاملا ، ولاحت أمام عينيهاشخوص غائمة . ولكن ألما مفاجئا ربما نبهها وملأها بذلك النوع من القلق الشديد حتى انها لترغب فى ان تنهض فى الحال ، وان تذهب الى مكان ما ، وتصنع أى شيء . ومع ذلك فقد كانت تدرك انه لم يكن هناك شيء تستطيع ان تصنعه ، وان عليها ان تنتظر .

وقالت وهى تستدير على ظهرها وتفتح عينيها : « لا بد أننى صنعت خطأ » . ثم أضافت : « فلنتخلص من كل شيء ، ولنضع له حدا ــ فساشا على الديربنت وليست لدى أخبار عنه . هذا هو الشيء الرئيسى ، ولكن سرعان ما أعرف كل شيء . وبجانب هذا فليس هناك خطأ من جانبى . فهو قد تغير ــ لا بل لقد كان دائما خلاف ما ظننت . لقد ظننت انه مهوش وخيالى ، فاذا هو الآن تكتب عنه الصحف . وقد تحول يعقوب نيومان فصار عائقا له ، وكانوا يلومونه فى الاجتماعات فيحاول ان يبين انه لم تكن لديه قط أية نية لمضايقة بازوف الاستخانوفى .ولكن ما الذى أصابنى ؟ انها كذبة ! فقد ضايقته كما ضايقه الآخرون تماما ، وكل ما فى الامر ان أحدا لا يعرف ، تماما كالحال مع نيومان . ألا ما أبشع هذا ! ومع ذلك فقد كنت قلقة من أجله اليوم عندما حدث ذلكالحادث الفظيع وعلى هذا فأنا لست آخر الامر سيئة للغاية . انها كذبة أخرى ! فأنت لم تشعرى قط بالضيق منه بل كان دائما بالنسبة لك شيئا ثمينا . ولكن محاولاته الفاشلة أخافتك فجمحت منه كما يجمح الفرس . لقد خفت منه ، وهذه هى الحقيقة . هذا أمر واضح ! فهل هناك شيء آخر ؟ أجل ، هناك استومين ! لقــــد اتخذت منه مثالا لساشا لأنه يتقدم فى حيـــاته تقدما حسنا ، وللادارة فيـــه رأى

طيب . وقد أنصت اليك ساشا ، ولكن ما معنى هذا ؟ لقد أنصت اليك ساشا ، ولكن ما معنى هذا ؟ لقد أنصت فى سكون ولم يقل شيئا فابكى الآن أيتها الحمقاء ! » .

واستدارت موزيا فى فراشها ، وعضت شفتيها ، وبكت بحق . وتذكرت كيف أنها ذهبت لمقابلة استومين ذات يوم فى مكتبه بادارة الخط الملاحى لكى تذهب معه الى المسرح . وكان هذا قرب منتصف الصيف . وقد بقى ساشا فى البحر مدة طويلة ، واعتادت هى ان تقابل استومين كل يوم تقريبا .

وكانت عربة جودويان خارج المدخل ، وكان السائق الصغير مشتغلا فيما حوله بمسح زجاج العربة الأمامى . ولم تمض دقيقة حتى خرج استومين مع بعض الزملاء ، وذهب توا الى العربة دون ان يلاحظ وجود موزيا .

وحيا السائق فى أدب قائلا : « مساء الخير يا نيكولاى ؟ » ثم أضاف : «كيف الأحوال ؟ هل ستيبان دمتريفتش فى الاجتماع ؟»

وأخرج علبة سجائره وقدمها الى السائق . ولاحظت موزيا معنى الود فى حركاته وفى لهجة كلامه . ويحتمل ان يكون السائق قد لاحظ كذلك ، فقد أخذ سيجارة فى غير كلفة ، وضغط عليهـا بأصابعه المشحمة .

وقال استومين لرجل فى منتصف العمر كان يقف بجانبه : « هذه عربة صغيرة لطيفة » . ثم أضاف : «ليت لنا عربة مثلها !» واستدار فرأى موزيا .

فقال فى لهجة مختلفة تماما ، لهجة أكثر ثباتا وتأثيرا : « انى تأخرت قليلا » ثم أضاف : « لقد أخرونى فمعذرة » .

وأحست موزيا أنه تعمد ان ينطق الجملة الأخيرة فى صوت عال

حتى يسمعها زملاؤه الواقفون على الرصيف . ووقعت عيناها على عينى السائق ، واعتراها الخجل .

وقالت فى ايجاز : « بل جئت فى ميعادك . حسن ، فلنذهب ! » ، وفى هذه اللحظة خرج جودويان . وتأبط حقيبته وانتزع نظارته، وفيما هو يمسحها بمنديله بدا من نظرته أنه مصاب بقصر النظر . وترك استومين يد موزيا ، واتخذ سمة الجد ، وانحنى انحناءة قصيرة مهذبة . ورفع جودويان يده بالتحية ودخل العربة .
وسأل استومين موزيا وهو يسير بجانبها : « هل رأيت ذلك ؟ انه يعرفنى ، وهو دائما يحيينى عندما يلقانى ، ولا يلقى بالا الى الآخرين . هل لاحظت ؟ »

ولم تهب الريح اطلاقا فى تلك الأمسية ، وسكن الهـواء فوق المدينة ، محملا بشذى الأزهار ورائحة البترول . وكانت أنوار السفن الحمراء والخضراء تنزلق على سطح الخليج الأملس ، فراقبتها موزيا ، وأجابت عن أسئلة استومين فى تشتت وهى تشعر بأنهـا وحيدة ولا أهمية لها .

وقد مرت شهور عدة منذ ذلك الحين ، ولكنها فجأة تذكرت كل شىء واضحا كما لو أنه لم يحدث الا بالأمس .

وقالت لنفسها لتهدىء منها قليلا : « غدا سأذهب الى الميناء » . وأضافت : « أأذهب ؟ ان ساشا سيظن أننى قد أتيت بسبب مقالات الصحف . لا بأس . فليفكر كيفما شاء ! ليتنى أستطيع رؤيته مرة واحدة ! والآن وقد حزمت رأيى فلن أفكر فى أى شىء آخر ، وسيكون فى مقـــدورى أن أنام . ولكن مهلا ! أأنا كنت خائفـــة من أعماله الفاشلة ؟ لا ، بل لابد أن يكون هناك شىء آخر . فأنا لم أستطع أن أفهم الشىء الرئيسى فى شخصيته ، أعنى الضرورة التى تلزمه فى حد ذاته لأن يسلك الطريق الوعر ، الطريق الوحيد الذى وجد من

أجله . » وهنا بدا لها وجه المرأة العجوز ، واذا بالفكرة التى تعبت فى الوصول اليها تختلط عليها فجأة ويصيبها التشويه . لقد كانت المرأة العجوز فى فمها قطعة من الحلوى ، وكانت وجنتاها تختلجان كوجنتى الكلب (اللولو) . واحتاجت موزيا الى بعض الوقت لكى تتخلص من وجه المرأة العجوز . وحين استسلمت للنوم استدارت على جانبها ورأت وجها آخر ، هادئا ، وفاترا قليلا ، وبه قليل من التجاعيد فى الجلد المصبوغ حول العينين . فمدت يديها فى يأس نحو ذلك الوجه خشية أن يختفى .

وراحت تشكو اليه وهى تبتسم فى غبطة : « لقد افتقدتك كثيرا أيها القائد ، ولكن هل أنت ذاهب ؟ فى حين أننى كنت أحن اليك كثيرا ؟ اسمع ، أنا أعرف الآن أنه يجب عليك أن تذهب ، فقد حان وقت ذهابك . وهكذا ترى أننى لا أمنعك ، وان كان ذلك قاسيا على نفسى . انه غاية فى القسوة ، وغاية فى الوضوح ، وغاية فى اللطف ! »

واحتجب الوجه الحبيب خلف ضباب واختفى ، ولم يظهر مرة أخرى . ولم تحلم موزيا الا بمباراة رياضية ، وبعملها فى محطة اللاسلكى ، وبالبرقيات . ولكنها لم يغادرها طول فترة نومها شعور الزهو الوضىء الذى خالجها فى الحلم الأول .

وهبط رجال الأزبكستان الذين نجـــوا (السقالة) الى رصيف الميناء واحدا وراء الآخر ، وهم يمسكون (الدرابزين) فى حـــذر بأيديهم المعصوبة . وهناك توقفوا يلقون نظرات الرحيل الحارة على بحارة الديربنت الذين كانوا يلوحون بقبعاتهم من فوق السفينة ، والذين كان لهم فى نفوسهم أبلغ الأثر . واقتادهم رجال عـــربة المستشفى الذين حضروا يلبسون معاطف بيضــــاء ــ اقتادوهم الى خارج أسوار رصيف الميناء ، وأفسح لهم حراس الميناء طريقا وسط الجمهور . وعلى الطريق كانت عربات المستشفى تصفر صفيرا عاليا رديئا .

وكان فالريان لاستك آخر من غادر الرصيف . وقد زمجرفىوجه أحد رجال المستشفى حين حاول أن يسنده من ذراعه ، وظل يحاول أن يعود .

وصاح يقول لماكاروف : « يا فولوديا ، يجب أن تظل على اتصالى بى . وكم بودى أن أبقى هنا . لماذا لا تنظر الى يا فولوديا ؟ »

وعند السور عاد فالتفت وراءه وصاح بصـــوته الفتى الصارخ العميق :

ــ قل لرفاقك الاستخانوفيين اننى سأكتب عنهم ، وانني سأكون دائما مثلكم ... »

واصطفقت « البوابة » خلفه ، وحالت المعاطف البيضاء بينه وبين فولوديا .

وسأل فولوديا بازوف الذى كان يقف بجانبه : « هل سمعت ؟ انه يقول : قل لرفاقك الاستخانوفيين ، فقد نبت فى نفســـه حب حقيقى لنا ، بل انه قبل كوتلنيكوف نفسه • يا له من طفل كبير ! » وضحك فولوديا فى مرح واقترب من بازوف ، وقال : « استمع لما قاله القبطان البارحة ، فقد قال انه هو ووكيله بينهما نوع من التعهد المشترك • وقد سبق لهما أن أشتركا فى الماضى فى عمل قـــذر لا أستطيع أن أتبينه على وجه التحديد • وهو يرتجف عندما يتكلم عن ذلك كأن به حمى ، وتفيض عيناه بالدموع • يقول : « أصدقائى ، أصدقائى الأعزاء ، انظروا ماذا صنع بى ذلك الرفيق ! » ويبدو كأن ضميره يخزه ، ويروح يكشف عن كل شىء • والآن سوف يقدم هو ووكيله للمحاكمة ، وسنجد غيرهما رفاقا يمكن الاعتماد عليهم • واذا جاء الينا آخرون يشهرون خناجرهم فسنمنعهم من العمل • انك تدرك اننى فى حالة زهو نفسى اليوم ، وقد تظن ان السبب هو ان اليوم عيد ميـــلادى أو شىء من ذلك • بل اننى لأحس بالخجل من نفسى » •

فقال بازوف وهو يبتسم : « لا حاجة بك الى الاعتذار ما دامت حالتك النفسية طيبة » •

ـ اننى أشعر بالخجل كذلك ، فقد حدثت كارثة ، وفقـــد بعض الرجال حياتهم ، وأصيب آخرون بتلك الحروق ! انظر ، ان حسينا يشتبك مع الطبيب فى معركة » •

كان هناك طبيب عجوز من المدينة يحاول أن يمنـــع حسينا من الانزلاق خلال الممر الى ظهر السفينة • وكان حسين يندفع محاولا أن ينزوى خلال ممرات جانبية وهو يلقى حوله بنظرات يائسة •

وكان الطبيب يقول له وهو يضم يديه فى توسل ويفحصه من فوق نظارته كأنه فى شك من أن هذا المخلوق الذى لا يطاق يحمل

وجه انسان تحت العصابات : « آه ، انك لا تطاق البتة ! ألا تعرف أنك تخاطر ؟ فاذا أصاب الجروح فساد ٠٠٠ »

فتمتم حسين وهو ينظـــر الى العصابات فوق يديه : « ولكنها التأمت بالتأكيد ، وليس هناك ما يثير قلقك أيها الطبيب ! »

ـ على كل حال أرجوك أن تمضى الى البر ٠

ـ لن أمضى ، وهذا هو قرارى !

ـ أقول لك يجب عليك أن تمضى ! أين مساعدكم السياسى ؟ فهذا أمر مشين !

ووضع بازوف يديه خلف ظهـــره ، وتمشى الى حيث مشـــهد الجدال ٠

وقال لحسين : « يجب عليك أن تضرب مثـــلا للآخرين ، ولكنك تثير شغبا يمكن أن يسمعه كل من على رصيف الميـنـــاء ! ينبغى أن تخجل من نفسك ! »

فقال حسين مجادلا فى عناد : « ولكن استمتاعى هناك سيكون أسوأ مع ذلك من بقائى ٠ اسمع أيهـــا الطبيب ، دعنى أذهب ، حقا ! »

فشرح بازوف الموقف فى أناة قائلا : « ولكننى لا أستطيع أن أتركك عند المحـــركات بيدين كيديك ، فحـــاول أن تفهم ، وحكم عقلك ! »

ـ حسن ، سأمضى اذن ٠ ولكن هذا ليس لطيفا منك يا الكسندر ايفانوفتش !

ـ امض ، امض !

وصاح فولوديا ماكاروف : « انهم يسمحون للجمهور بالدخول ! ها هي ذي زوجتك يا كوتلنيكوف · »

واندفع الجمهور خلال الحاجز وتناثر على الرصيف · وجاءت النساء مسرعات ، تتخطين خط الأنابيب ، وتنظرن من بعيد الى البحـــارة الواقفين على جانب السفينة ، محاولات رؤية رجالهن · ورأى بازوف فتاة تلبس قميصا أزرق تندفع نحو حسين ، وتمد اليه يديها في اندفاع · ولكنها لم تلمسه ، فقد سقط ذراعاها فى وهن ، ووقفا ينظران أحدهما الى الآخر ·

وانصرف بازوف ، ومضى فى بطء الى منارة السفينة · وكان العلم القديم الذابل الذى كان يغطى أجساد المـــوتى ، كان ملقى بجانب حجرة الخطاف · وكان الزيت يتدفق فى صخب من الأنابيب داخل الباب الأرضى · ونظر بازوف فى ذلك الاتجاه محاولا أن يقدر مدة الزمن الذى سيمر قبل أن تنتهى عملية الشحن · وقال فى نفسه وقد اعتراه فجأة شعور حزين : « آمل ألا تطول » · واستطاع أن يسمع خلف ظهره وقع خطوات تقترب وتتراجع ، وأصوات امرأة منفعلة ، وأجزاء من جمل تتخللها فترات سكون لأخذ شهيق ·

ـ لست أدرى كيف استطعت الانتظار ·

ـ أين هو ؟ أرجوك أيها الرفيق أن تناديه ·

ـ لماذا لم يخبرونا عن طريق اللاسلكى ؟ لقد استبد بى القلق .!

وأجاب صوت رجل : « أوه ، هذه مسألة تافهة !

واستطاع بازوف أن يعرف كل تلك الأصوات ، ولكنه ابتعد عنها الى الجانب الأقصى من السفينة واستند على الحاجز · وكانت رقع بنية من الزيت تتراقص على الموجات الخضراء ، وبدا انعكاس السفينة المنكسر كأنه يصل الى قاع البحر ·

وقال في نفسه عندما نظر الى انعكاس صورته المرتعش على سطح الماء : « لطيف أن يكون لكوتلنيكوف زوجة وطفل . وكذلك جاءت الفتاة ذات القميص الأصفر لكي ترى حسينا . وكان ينبغي لى أن أذهب الى مكان ما عندما رسونا ، فانه ليؤذى نفسى أن أراقبهم جميعا ولكن لا حيلة لي في هذا . سأدخل الى حجرتي ، فكل ما أستطيعه هو أن أنتظر . »

وكان على وشك أن يبتعد عندما سمع خطوات خلفه ، فأبطأ منتظرا أن تمر به .

وسمع صوت فولوديا يسأل : « أأناديه ؟ »

- « لا ، سأذهب أنا اليه » وجعل هـــذا الجواب السريع بازوف ينتبه فجأة ويستدير .

وكانت موزيا تقف على بعد خطوتين منه . واستطاع أن يرى في وجهها أثر المعاناة وشيئا كالخوف . وفيما هو في دهشته قال لها في لهجة فيها انطلاق وبساطة على نحو ساخر : « اذن فقد جئت لرؤيتي! حسن ، حسن ، فأنت اذن لم تنسيني ! » .

فقالت موزيا في صوت خشن منخفض : « تصور أنني لم أعرفك أول الأمر ، وظننتك شخصا آخر . »

وكانت تلبس شالها الملفوف الذى كانت تلبسه في الأمسية التي سبقت فراقهما . واقتربت منه ، وفجأة اعتراها انفعال شامل ، وبدت عيناها كأنهما أخذتا تخضلان بالدموع . وأخذ بازوف بيدها ، ووقفا هناك بضع لحظات لا يعرفان ماذا يصنعان بعد ذلك .

وسألها في نفس اللهجة البسيطة المتكلفة ، وهو يحس في نفسه قشعريرة لكون ذلك لم يكن ما يريد أن يقوله : « ماذا تقصـــدين بقولك انك لم تعرفيني ؟ فهل أنا تغيرت اذن ؟ »

فقالت وهى تعقد حاجبيها وتقرب يدها من وجنتها : « انك تحمل لزا ، فمن أين لك ذلك ؟ »

- هذا حرق ، فقد كان الجو هنا حارا جدا بالأمس . أليس كذلك يا فولوديا ؟ »

وأومأ فولوديا ماكاروف فى فطنة ونظـــر اليهما فى انتباه ، ثم استدار ومضى فى طريقه على ظهر السفينة وهو يؤرجح كتفيه .

وقالت موزيا فى صوت مرتفع وهى تراقب عامل اللاسلكى وهو يبتعد : « سرعان ما يتحسن هذا . ويجب عليك أن تغسله بمحلول المنجنيز . هل فكرت فى أحيانا أيها الرفيق ؟ » وقد سألت هـــذا السؤال فى همس تهديدى سريع ، وهى تميل برأسها الى جانب .

وضغط بازوف على يدها ، ونظرت هى اليه وابتسمت .

وقال بازوف فى مشقة : « حسن ، الآن فقط ، فى اللحظة التى جئته فيها ... »

- وماذا تعنى بقولك : الآن فقط ؟

- لقد كنت أفكر فيك . وقد اعتدت أن أفكر فيك كثيرا عندما لا اجد ما أصنعه . وأنت الآن قد جئت ، ويبدو لى ان ذلك من توافق الأحداث لا غير »

فقالت موزيا وهى تضحك : « أمن توافق الأحداث أننى جئت ؟ يا للهراء ! »

وتلفتت حولها وألقت بذراعيها فى سرعة حول عنقه .

وهمست تقول فى حدة وهى تضغط بشفتيها على وجنته ، حيث كان الجلد مشققا : « ان الناس لا يكفون عن المرور هنا طوال الوقت . عليهم اللعنة ! » ثم أضافت : « وهناك أشياء كثيرة يجب أن أخبرك

بهـــا . ألا يحتمل أن تكون لك حجـــرة خاصة على الأقل أيهـــا الاستخانوفى ؟ »

ودست ذراعها بثبات فى ذراعه وجـــذبته وراءها . واستأنفت تقول : « ما أطول الفترة التى مضت منذ أن رأى بعضنا بعضا ! لقد كنت أحسبها وأنا قادمة الى هنا . انها ستة أشهر وعشرة أيام . ولكن لماذا لا يبدو عليك أنك غاضب منى ولو قليلا ؟ ينبغى أن يبدو عليك ذلك على كل حال من باب المظاهر ! ولكن لا ، فأنت لن تقول شيئا الآن ! »

وتبعها بازوف ، وهو يمر بأصابعه فوق أصابعها ، وتذكر تلك الليلة التى مضت منذ زمن بعيد حين اجتازت به موزيا فى الظـــلام الحقل المهجور ودلتهما صفارات الرفاسات المجلجلة على الطـــريق . ومنذ الآن فقط أخذت الشمس الساطعة تشرق ، وتحت أقدامهما كان ظهر ناقلة الزيت الصلب ، وكان الزيت يحدث خريرا وهو ينساب داخل الأبواب الأرضـــية ، يذكرهم بالانفصـــال الوشيك . ولم يستطع مع ذلك أن يفهمها تماما ، وان تشابكت أصابعهما فى احكام، وشعت عينا موزيا بالسعادة الفياضة . ووجدا نفسيهما فى ممـــر عنابر الجلوس . وهناك كانت رائحة طهى ، وهدوء تام ، وشـــبه ظلام سوى عمود من النور ينبعث من خلال الباب الذى كان مفتوحا قليلا . وتجمعت هناك طيور الخريف الرائعـــة بأجنحتها التى تلمع كالبلور . واحتبست أنفاس بازوف نتيجة للعنف الذى تعانقا به ؛ ولكن موزيا كانت هى التى وضعت نهاية لذلك كما كانت تصنع فى الأيام الخوالى البعيدة فى أول تعارفهما . وضغطت على يده لتجعله ينصت اليها .

ــ اسمع . لقد اعتدت أن أقول عنك انك غريب لا تشبه الاخرين، فلماذا لم توجه لى مع ذلك كلمة لوم ؟ يجب أن تساعدنى على اقتلاع ذلك من صدرى . اننى خائفة دائما من أن تنتهى سعادتى فجأة .

ولكن ذلك لن يحدث ، أليس كذلك ؟ واذا كنت لا تريد أن تؤذيني ففي استطاعتي أن أؤذي نفسي • وهكذا ترى أنني كنت خائفة لأنك كنت على ذلك النحو من الغرابة ، وكان من المؤلم أن تواجـه كل انسان بمخاطراتك وأنت بمفردك • انك كنت مجرد حالم يرسـم المشروعات • وأنت تعرف أن بعض الناس يشمون رائحة الفشل على بعد ميل • وقد خيل الى أنه لم يكن هناك شيء واقعي يتصل بك ، وأنك لا تستطيع الا أن تحلم ، وأنك لم تكن موفقا في مسائل الحياة اليومية • وأنا لم أشأ أن أرأف بك لأنني أحببتك • وقد كنت في نفس السفينة التي بها ذلك المعوق نيومان • لا تقل انني لم أكن فقد كنت • وقد حط العمال من شأن نيومان ، ولكن أحدا لا يعرف شيئا عني سواك • وأنت لا يمكن أن تكون قاضيا قاسيا في الحكم في حين أننا كنا لتونا متعانقين ! حسن ، أجب الآن عن سؤال واحد ، ولكن عدني أنك ستقول الحقيقة » •

حسن ، وما هو ؟

ـ « اسمع ، اذا أنا دعوتك الآن الى البر من أجل مصلحة فهل تقبل ؟ » وتغلغلت عيناها في وجهه ، وهما تزدادان انتصارا •

ـ لا يا موزيا ، لا أقبل •

ـ لقد قلت ذلك كيفما يكون ! آه يا عزيزي ! انني أحبك اليوم أيها القائد كما لو أننا لم يعرف بعضنا بعضا الا لتونا • وسـوف نفترق في ظرف نصف ساعة ، لأنه لابد من الافتراق ، وأنت لن تترك السفينة من أجلي ، وأنا لن أطلب منك أن تصـنع ذلك ، رغم أنني ظللت أشتاق اليك كثيرا •

ـ لست أدري • آه يا موزيا ! ليتني أستطيع أن أحصل عـلى أجازة ••

فصرخت في غيظ : « صه ، يا للتفاهة ! انك لم تفهم شيئا ،وأنا

أعلم انك لن تقبل ؟ فانت لا تستطيع أن تفكر الا فى خط مستقيم ، ولست تعرف مقدار نفسك ٠ وربما ظننت أننى نسيتك ٠ أجل ، يمكننى أن ارى أنك قد نسيتنى ، ولكننى سأخبرك بشعورى عندما كنت فى مأزق بالبحر ، فقد كان فى وسعى أن أسمع الطرقات فى مكبر الصوت ، وعرفت ان ذلك كان خاصا بك ، أنت ورفاقك ، ولم استطع أن افهم شيئا ٠ وأردت أن ابكى ولكننى لم أستطع لأننى غاية فى الزهو ٠ ولكن ذلك كله قد انتهى الآن ، فأنت معى وأنا نشعر بالرضا ٠

وتعانقا ، وهما يقفان عند الباب نصف المفتوح ، وأطار تيـــار السحب شعرهما معا ، وجعل طرف شال موزيا يرفرف ٠

وغمغمت فى عطف بالغ : « فلندخل الى حجرتك ، فلسنا نستطيع حقا أن ٠٠٠ »

وفى تلك اللحظة دوت فى الخارج فرقعة معدنية تصم الآذان غطت على كل ضجة ٠ وتحركت شفتا موزيا ، ولكنه لم يستطع أن يسمع ما قالته ٠ ولم يستطع سوى أن يرى عينيها المخضلتين بالدموع تزدادان صمودا شيئا فشيئا ، وتفقدان اشعاعهما ٠ ثم خفت حدة الفرقعة ، ووقفا بلا حراك ، يمسك الواحد بيدى الآخر ليشجعا ٠

وقالت موزيا فى هدوء : « لقد حان الوقت ٠ ولم يخطر لى انه سيمر بهذه السرعة » ٠ وأضافت فى مزيج من السخرية والحـــزن تقول : « ومع ذلك فأنت لم ترنى حجرتك أيها القائد » ٠ ثم أردفت : « يجب على أن أذهب الآن ٠ »

ـ لا داعى للتسرع ٠ وليس لدينا متسع من الوقت اليوم بسبب رجال الأزبكستان ٠ أما فى الحالات العامة فتستطيعين أن تبقى وقتا أطول من هذا ٠ ونحن سرعان ما نقوم برحـــلات ترفيهية كذلك ،

سنستطيع البقاء معا ثلاثة أيام كل شهر . وبهذا نعوض ما فلتنا موزيا .

وخرجا الى ظهر السفينة ، واستندت موزيا على ذراعه وهي تراقب البحارة يمرون بهما وكان العمال على الرصيف يجذبون الأنابيب التي أحدثت ضجيجا مزعجا ممتدا وهم يرفعـــون سراويلهم كما لو كانوا يقفزون على الماء . وجاء حسين في الاتجاه المقابل . وكان رأسه قد صار كتلة من الأربطة التي تتجمع في قمة رأسه وتجعله يشبه اعرابيا يتجهز عمامة .

فصاح بازوف قائلا : « ماذا تصنع هنا ؟ ألم نتفاهم ؟ اســـمع يا مصطفى ... »

ـ « لقد أردت فقط أن أحذرك ـ فالاجماليا تشحن من الرصيف الرابع . وقد قابلت رجالها في الورشة وقالوا لي : (لقد أعدنا فحص محركاتنا ، وسنريكم الآن شيئا من السرعة !) فقلت لهم : (سيكون هذا منظرا مثيرا) . » وألقى بنظرة الى موزيا وأزاح الأربطة التي كانت قد سقطت على عينيه . ومضى يقول : « وعلى هذا ينبغي علينا أن نزيد عدد الدورات يا الكسندر ايفانوفتش . »

وأسرعت موزيا الى الرصيف ولوحت بيدها .

ولكز بازوف حسينا بكوعه وقال له : « هذه المرأة التي تراها منطلقة قريبتي »

فقا ل حسين في دهشة : « أوه ! ومتى دبرت ذلك اللقاء ؟ »

فقال بازوف وقد احمر خجلا : « اذهب وأسرع ، فهم يرفعون السقالة » . وابتسمت موزيا وأشارت بشفتيها .

وجاء جازاريان السائق يقول وقد لاح في مدخل عتبر المحركات : « يا الكسندر ايفانوفتش لقد توقفت المضخات » .

- حسن ، أوقف مضخة المحرك . من القائم بالحراسة ؟

- المهندس الثانى زادوروف . مرحى ، مرحى ، أوقف مضخة المحرك . »

ورفعت السقالة فأحدثت فرقعة ، وأعولت الرافعة التى على مقدم ظهر السفينة ، واتسع الفراغ الضيق المعتم بين جانب السـفينة والرصيف ، وبدت فيه الصورة المنعكسة للسفينة مقلوبة رأسا على عقب ، وانعقدت نفثات من الدخان وتلاشت على ظهر مؤخر السفينة .





دار القاهرة للطباعة ـ ٢٦ شارع منصور

المؤلف

ولد « يوري كريموف » في لينينغراد ، وكانت أمه كاتبة ، فأراد أن يكون كاتبا مثلها ولـكنه رأى أن يتفهم أولا الموضوع الذى يتناوله بالكتابة « الحياة والعدل » فصمم على دراسة احدى الحرف ليصبح رجلا ذا قيمة فى النظام الجماعى السوفييتى .

وقد تخرج مهندسا عام ١٩٣٣ ، ثم ذهب الى بحر قزوين ليرقب اجهزة اللاسلكى على سفن نقل الزيت القوية وهناك حصـــل على ذخيرة من تجارب الحياة ووجد مواضيع وأبطالا لـكتبه ، وقد نشر كتـابه الأول « السفينة ديربنت » سنة ١٩٣٨ ، وكتابه الثـانى « المهندسون » سنة ١٩٤٠

لم يستطع كريموف أن يضع بقية خططه الاخرى موضع التنفيذ ، فقد نشـبت الحرب الوطنية الكبرى وأصبح جنديا من جنودها .

وفى نوفمبر سـنة ١٩٤٣ تسلم اتحاد الـكتاب السـوفيت فى موسكو بالبريد نسخة من كتاب « السفينة ديربنت » أصابها التلف من كثرة تداولها وكان بداخلها رسالة من مزارع جماعى يروى فيها كيف أن كريموف المهندس والكاتب ، مات ميتة الابطال وهـو يقاتل جيش الاحتلال النازى ..

دار القاهرة للطباعة ـ ٢٦ شارع منصور